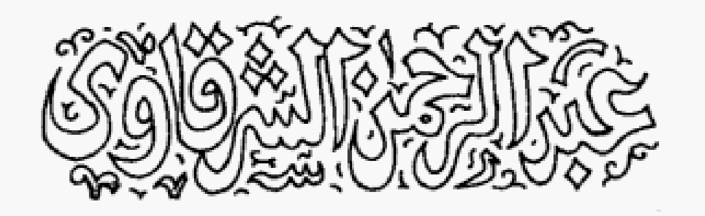




دار الشروق

الغلاف للفنان حلمي التوني

بسم الله الرحمن الرحيم
« قل إنما أنا بشر مثلكم »

الإهداء

الى ذكرى ابي . .
الذي غرس في قلبي - منذ الطفولة -
حب محمد

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب . .

أنا لا أقدم كتاباًجديداً في السيرة؛ فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة.

وما أحسب أن كتاباً جديداً أكتبه، يمكن أن يضيف حقيقة جديدة الى ما كتب في السيرة!!

ولكني أردت أن أصور قصة انسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال، ودفعت سلالات من الأحياء في طريق التقدم، واكتشفت آفاقاً من طبيعة الحياة والناس.

وما من انسان يستطيع أن يجحد فضل الحضارة الاسلامية على التقدم، أيام كان ابن سينا يفيض بحكمته على سهول آسيا الوسطى تحت ظلال الريحان، وأيام كانت الفلسفة الاسلامية المضيئة تقرع أبواب القلاع المظلمة الصماء في جنوب أوروبا وغربها، حيث سادت الذئاب والسحرة ومسوخ القباب الذهبية، وأيام كانت أفكار ابن رشد وآراء ابن خلدون تنتشل القطعان المتخلفة على شواطىء بحر الروم. . . أيام كانت القاهرة وبخارى وبغداد وتونس وقرطبة وطشقند ودمشق وأشبيلية وفاس منارات شامخة تقهر الظلمات باشعاع باهر من تعاليم محمد!

والذين يبحثون في هذا الكتاب عن قصة الانسان صاحب التعاليم التي كونت هذه الحضارة، يستطيعون أن يتجاوزوا سطور هذه المقدمة ليقرأوا الكتاب. . . انني لم أكتب لهم هذه المقدمة، هؤلاء السادة الذين يريدون أن يروا في هذا الكتاب صورة الرجل. . لا النبي! فليتفضلوا مشكورين بقراءة الكتاب نفسه، عسى أن يجدوا فيه قصة انسان رائع

البطولة، ناضل ـ على الرغم من كل الظروف ـ ضد القوى الغاشمة المفترسة، ومن أجل الاخاء البشري، ومن أجل العدالة والحرية وكبرياء القلب المعذب، ومن أجل الحب والرحمة، ومستقبل أفضل للناس جميعاً بلا استثناء: الـذين يؤمنون بنبـوته والـذين لا يؤمنون بها على السواء!

انه ميراثهم جميعاً لا ميراث الذين يؤمنون به فحسب.

فليجاوزوا هذه المقدمة ـ كما رجوتهم ـ الى الكتاب نفسه فأنا لم أكتب المقدمة لهم ـ. وان كنت من أجلهم بصفة خاصة كتبت هذا الكتاب.

وأنا ـ كذلك ـ لم أكتب هذه المقدمة للذين يتهمون الكتاب في بعض الدوائر بأنه انحراف عن الدين، ولا للذين يتهمون بأنه انحرف إلى التصوف والسلبية!! ولا للذين يتهمونه بهذه وتلك في نفس الوقت، حسب الظروف. !

ولا للذين يقلبون صفحات الكتاب بأصابع تشير في اتهام: أين رسول الله ﷺ في هذه الصفحات؟ أين النبي؟!

فلئن كانو أشداء في دينهم حقا فـأنا أكلهم الى حسن اسـلامهم، وأحيلهم الى الحديث الشريف: «أيما رجل اتهم أخاه بالكفر فقد باء به أيهما؟». ثم اني لأذكرهم بالموقف في صلح الحديبية لنتخذ منه الأسوة.. عسى أن نعتبر جميعاً.

انما أكتب سطور هذه المقدمة للذين استقبلوا هذا الكتاب في طيبة وواجهوه بالنقد الموضوعي عندما نشرت فصوله على صفحات المساء في العام الماضي.

وأكتبها للذين لم يقرأوا فصوله، وانما انتظروا متوقعين ان يجدوا منه كتاباً يضيف شيئاً ما الى السيرة النبوية..

لقد أردت أن أقول لهم ان السيرة ليست في حاجة الى كتاب جديد يتحدث عن عصر النبوة أو يدافع عن صدق الرسالة أو يؤكد معجزات النبي.

لسنا في حاجة الى كتاب جديد عن الدين، يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا في حاجة الى مئات من الكتب عن التطور الذي يمثله الاسلام.. كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين، تصور العناصر الايجابية في تراثنا، وتصـور ما هـو انساني في حيـاة

صاحب الرسالة، اننا بحق في حاجة إلى مئات من الكتب يقرأها الناس كافة. الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لا يؤمنون.

اننا دائماً في حاجة الى اعادة تقييم تراثنا. الى احياء ما هو انساني فيه ونشره على العالم. الى تصوير القدر المشترك ـ المتفق عليه بين الجميع ـ من دور أصحاب الرسالات. أي الى تصوير الجانب الدنيوي الذي أصبح ميراثاً مشتركاً لكل الناس مهما تختلف دياناتهم وفلسفاتهم وآراؤهم.

وأنا أعرف أن من الناس من يجحد دور الاسلام ومحمد..

ومن يتهم الاسلام بأنه حركة رجعية..

ومن يتهم محمداً بأنه أرستقراطي من أشراف مكة كان يطلب ملك الحجاز.

وأنه جاء لينظم العبودية وليحتال على المجتمع ببعض اصلاحات تخفف الضغط عن الفقراء ليؤخر ثورتهم.

وأنه جاء ليضطهد اليهود..

ومثل هذه الآراء ينشرها كتّاب كثيرون في العالم بأكثر من لغة...

وعلى الرغم من أننا نملك آلاف الأدلة على فساد هذه الآراء.

ونملك من حقائق التاريخ الثابتة ما يقطع بأن للاسلام دوراً تقدمياً وتحريرياً، لم يزل يؤثر في تاريخ البشرية ومستقبلها.

وأن محمداً كان رسولاً يبشر بالحرية والاخاء الانساني.

وأنه عامل اليهود بصبر ورحمة وحكمة لم يعرفها التاريخ من قبل ولا من بعد.

على الرغم من كل هذا فقد عدل كثير من كتابنا عن مناقشة هذا كله.. ودارت معظم الكتابات في السيرة حول النبوة والمعجزة.. حول الرسول، لا الرجل.

ولكننا حين نناقش من لا يؤمن بالجانب الديني، يتحتم علينا أن نناقشه بمنطقه، لا بمسلماتنا وعقائدنا.

انهم يناقشون الرجل والتعاليم فلا يجب إذاً أن نتحدث عن شيء آخر.

لا يجب أن نواجههم بالنبي حين يتحدثون عن الرجل!..

فلنواجههم بالرجل. وان في حياته لثروة لا تنفد من الاباء والرحمة والحب

والحكمة والبساطة، والقدرة الخارقة على التنظيم والابداع وكسب القلوب.

أكنا نخاف من الحديث عن الرجل، لأن في مجتمعاتنا كثيراً من الذين لا تروق لهم الحياة الا اذا نصبوا فيها الفخاح.. أكنا نتهيب الذين يؤذيهم أن يجتهد الناس ليعالجوا فتح أبواب جديدة الى المعرفة.!

أكنا نخشى من الاتهام بالكفر والخروج على الدين وعدم الاعتراف بالنبوة؟

ولكن من هو هذا الذي يملك أن يفتش في قلب انسان ليناقش معتقداته وايمانه؟!

أحرام عليَّ أن أكتب لغير المسلمين، عما في حياة محمد النبي من روعة وبطولة وانسانية وخطر؟

ولكن نشر الصفحات الجليلة في تراثنا أمام الناس كافة ـ مهما تختلف عقائدهم ودياناتهم ـ ولكن هذا العمل ليس مجرد عمل أدبي، بل واجب قومي، ومسؤولية فنية يجب أن ينهض بها من يشعر في نفسه بالاستعداد لها.

ولقد حاولت أن أنهض بدوري المقسوم في هذه المسؤولية.

فقدمت هذا الكتاب الذي اخترت له الشكل القصصي لا شكل البحث.. انها لمحاولة أقدمها ـ أولاً ـ الى غير المؤمنين بمحمد..

راجياً أن يتناول القارىء ـ مهما تكن عقيدته ـ هذا الكتاب بنفس الروح التي كتبته بها.

داعياً الله أن ييسر كتابي هذا لفائدة من يقرأه بدلاً من التشهير أو الايقاع بمن كتبه!

لقد بدأت العمل في هذا الكتاب سنة ١٩٥٣، ولكن هذا شيء لا شأن للقارىء به.

فان وجد القارىء في هذا الكتاب ما أردت منه فهذا جزائي، وهو حسبي... وان لم يجد، فعزائي أنني بذلت فيه أقصى ما أملك من جهد، ورجعت فيه الى كل ما أعرف من مراجع، وأعملت فيه غاية الطاقة، وتناولته بكل حرص على أداء المسؤولية، وبكل النية الحسنة في أن أنفع به..

وبالله التوفيق.

١٥ من رمضان ١٣٨١
٢٠ من فبراير ١٩٦٢

عبد الرحمن الشرقاوي

١

ها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى، بعد نضال طويل مع المصير! لكأنه يولد ـ فجأة ـ من جديد، بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم، وأمله المعذب في الخلاص!

لم تكن له حيلة في كل ما حدث.. ولا حيلة لرجل في مكة على الاطلاق لأن المصادفة وحدها هي التي تخط أقدار الرجال، والنساء.. ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصم اسمه مناة.. الهة بلا قلب، هي التي تملك القضاء.. والى جوارها يتشامخ تمثال هبل: رب الأرباب، رب المصادفة والمصير والقدرة، وشيخ مناة نفسها، وشيخ زميلتها اللات والعزى!

أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب؟!

أيملك هو، عبدالله بن عبد المطلب، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التي تحرس الكعبة منذ القدم والتي يستمد منها أبوه عبد المطلب مبرر وجوده، والتي ما زال يمتثل لها ـ مع أبيه ـ كل الملأ من قريش؟!

على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعدما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبة، التي تجرؤ على أن تحرم فتى في مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة!

وانه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ليمضي معه الى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى.. وكأنه يوسف.. الذي سمع قصته من فلسطين فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل!. لكأنه يوسف يرتمي في أحضان أبيه الصابر المضني

ليستمتع بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرد في أرض الغربة!

وعبد الله اذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم اليه. . . وكان عبد المطلب قبل أن يرزق الولد قد تعرض لبلاء كثير، وما من ولد يسانده، حين همّ بأن يحفر بئر زمزم. . خاصمته قريش في البئر وأزرت عليه ولكنه استمر بحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد اسماعيل. . وبلل عبد المطلب جبينه من الماء واتجه الى آلهة الكعبة فنذر لئن رضيت عنه الآلهة وولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى منعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة، شكرانا وقربى!

فلمابلغ بنوعشرة بمولد عبدالله، وأدرك أصغرهم عبدالله مبلغ الرجال، وتيقن عبد المطلب أن ولده مانعوه، جمعهم ليخبرهم بنذره، ودخل بهم على هبل كبير آلهة الكعبة وبدأ يجري القرعة بينهم بضرب القداح، لينحر أحدهم وفاء بالنذر القديم!

وخرج القدح على الفتى عبدالله أصغر ولد عبد المطلب وآثرهم لديه.

ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئاً وقام الى عبدالله ليذبحه تحت قدمي هبل، فخف اليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم أخيهم، ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعاً ودفعهم بيده، وهو يحذرهم من الاعتراض على قضاء الآلهة!. .

وتدافع اليه بعض صحابه الذين كانوا يجلسون في رحاب الكعبة وألحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يروا رأياً ينقذ رأس الفتى عبد الله، ويرضي هبل.

ولكن عبد المطلب لم يصغ اليهم فانطلق صوت حانق في وجه عبد المطلب. «لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟».

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ في أعماق كل الآباء الذين التقوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه ارضاء لهبل. .

وعرضوا عليه أن يفتدوا عبدالله بالمال. . ولكن لا!. . الولد يجب أن يذبح تحت قدمي هبل ما دام القدح قد خرج عليه!.

كم من الصرخات تدوي الآن في أعماق عبدالله! انه ليرفض هذا القضاء، ويرفض أباه، ويرفض هبل نفسه!. . ولكنه لا يقوى بعد على الكلام!

وطال الجدل بين عبد المطلب وبين صحابه فاقترح أحدهم أن يرحلوا الى عرافة يثرب فيسألونها قبل أن يذبحوا عبد الله، عسى أن تقضي بأمر لهم فيه فرح! . .

وغدوا عليها من اليوم التالي فسألتهم عن دية الرجال فيهم فأجابوها. «عشرا من الابل» فقالت لهم: «ارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم من هبل وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم وان خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم».

وعادوا الى مكة مستبشرين. . وعاد عبد المطلب يضرع وهو قائم عند هبل، وقد قدم ولده عبد الله، وعشرا من الابل. .

وضربوا القداح فخرجت على عبد الله، فزادوا الابل عشراً وعبد المطلب يدعو، والقداح تضرب من جديد فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده اليه، فتزاد الابل عشراً أخرى والقداح تضرب وعبد المطلب قائم يدعو. . حتى بلغت الابل مائة فخرج القدح على الابل!

ودوت في أرجاء الكعبة رنة فرح بنجاة عبد الله، وقام عبد الله يحملق في أبيه واخوته، والرجال، والأصنام، وكل ما حوله، كأنه يرى العالم لأول مرة. . وصاح عبد المطلب في نشوة: «انحروا الابل المائة جيعاً واتركوها للآكلين لا يصد عنها انسان ولا سبع!».

وينطلق عبد المطلب آخذاً بيد ولده عبد الله.

وها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى، بعد نضال طويل مع المصير.

ودروب مكة تمتد أمامهما، وهنا وهناك تتناثر بيوت أوصدت أبوابها على الطيبات والمتاع والغنى، وكل ما يمكن أن يلهب وجدان شاب مثل عبد الله! .

الى متى يا عبد الله يساق الرجل للذبح لأن قدحا طائشا أصم وقع عليه؟!

ألأن الآباء يريدون أن يشكروا إلهاً يتعطش أبداً الى الدم، يجب حقاً أن تسقط رؤوس الأولاد؟!

ولكن عبد الله ـ ككل الفتيان في قريش ـ لم يكن يستطيع أن يرفع الرأس في وجه أبيه. . فأبوه يملكه كله: يملك حتى حياته!

وحياة أبيه نفسها رهن بقضاء هبل . .

كان من الممكن أن تأمر عرافة يثرب بذبح عبد الله . . وما دامت هي التي اختصت بتفسير ارادة الآلهة، وما دامت هي وحدها التي تستطيع أن تتعرف على ما يرضي تلك التماثيل من حجر، فما من أحد يجرؤ على المخالفة عن أمرها. . حتى سراة قريش الذين حاولوا أن يفتدوه بمالهم!

كيف الخلاص إذاً من هذا كله؟!

ولم يكد عبد الله يمضي في طرقات مكة، مثقل الرأس بأحلام الخلاص، ونظراته تتأمل في نهم كل ما أوشك أن يحرم منه، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخرة الثياب، بوجه كفلقة القمر!

وتأملته المرأة الصغيرة في اقباله على الحياة التي عاد اليها الآن. . وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التي يسطع فيها وهج الشوق الى المستقبل. . وهج غريب آسر!.

وتخففت من بعض ثوبها فبانت استدارة كتفيها ونصاعة نحرها، وتقدمت الى عبد الله ونظراتها تقرأ على وجهه وفي أغوار عينيه سراً غامضاً حبيباً مؤسياً ينزع بها اليه. .

وابتسمت وهي تعترض طريقه. . وسألته: «الى أين يا عبد الله».

فقال لها وهو لم يفق بعد من كل ما مر به في الكعبة: «أنا أذهب مع أبي».

فقالت وهي لا تحفل بوجود أبيه: «لك مثل الابل التي نحرت من أجلك ان تزوجتني الآن».

وتأملها عبد الله في حيرة. . وقدبدأ يستعر في أطوائه، شغفه بطيبات الحياة التي أوشك أن يحرم منها!. . من تكون هذه المرأة التي تتعرض له في الطريق وتدعوه اليها جهاراً دون أن تستحي من أبيه؟! ليست هي من هذا الصنف من النساء الذي يتعرض للرجال في طرقات مكة. . ان وجهها، وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها في الكلام، وكل شيء فيها ينطق بأنها امرأة واسعة الغنى، وذات اباء. ولكن ما في عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة والطيبة، تلتمع جذور متقدة من الحساسية المرهفة والهيام الأنثوي واللهفة أيضاً. .

وبهاتين العينين العامرتين سألته ألا يرفضها فيحرجها. . ولكن أباه جذبه من يده واندفع في طريقه.

فقال عبد الله وهو يتبع أباه: «وأنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه».

وانطلق وراء أبيه، وأوشك أن يستأذنه في خطبة المرأة التي تعرضت له، فهي امرأة صغيرة جميلة، لم يعلم أحد عنها من سوء وأنها لتقدم اليه مائة من الابل. . ولكن أباه كان قد قرر - منذ رأى اقباله على تلك المرأة - أن يخطب له فتاة بكراً من بنات أصحابه. . فقد كبر الولد وهو جدير بعدما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما في أعوامه السبعة عشر من عنفوان.

وبدلاً من أن يعود عبد المطلب بابنه الى البيت، عدل عن طريقه، ومضى الى دار وهب بن مناف سيد بني زهرة فخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله. . ووافق وهب. . وتزوج عبد الله وآمنة في نفس اليوم. .

كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل، وآمنة أصغر منه بنحو عامين.

وفي صباح اليوم التالي خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه الى الكعبة. .

وفي الطريق الى الكعبة قابل الحسناء التي عرضت عليه نفسها بالأمس، ونظر اليها فلم تكلمه. . وابتسم فأعرضت مغضبة. فقال لها: «ما لك لا تعرضين عليّ ما كنت عرضت بالأمس؟» فأجابته بجفوة: «فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس بي لك اليوم حاجة»:

وانصرف عنها وهي تهمهم:

فلما قضت منه أمينة ما قضت نبا بصري عنه وكل لساني

كانت مكة في تلك الفترة من القرن السابع الميلادي مدينة كبيرة مزدهرة أعدت منذ زمن بعيد لتكون محطة للتجارة، وزودت بكل ما يصلح لاستقبال التجار واقامتهم.

وكانت تقع في شمالها دولة للفرس ودولة للرومان. . دولتان تعيشان في حرب مستمرة، وتستنصر كل واحدة منهما على الأخرى بأعراب أطراف الصحراء.

واذا كان انتظام القوافل يحتاج إلى تأمين المواصلات فقد أثرت الحروب المتصلة

بين الروم والفرس على خطوط القوافل التي كانت تخف بألوان البضائع من أدنى الأرض الى اقصاها تحت تهديد حروب الفرس والروم والقبائل التابعة لهذا الفريق أو ذاك.

وهكذا بدأت مكة تتحول من محطة تجارية تستريح عندها القوافل الى مركز تجاري تصدر اليه القوافل وترد، حيث تقام أسواق ضخمة يتبادل فيها التجار من مختلف البلاد بضائع آسيا الوسطى والشام واليمن ومصر والهند والعراق والحبشة، والفرس والروم.

ثم أخذ تجار مكة في تجهيز القوافل لحسابهم الخاص..

واذ كانت مكة في واد غير ذي زرع، فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة.. وأصبحت يوماً بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية، وأقيم بناؤها الروحي والديني والثقافي على أساس البيع والشراء والربح.. وأصبح التجار الكبار فيها هم الحاكمون.. التجار الكبار هم الملأ الأعلى.. فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التي تصون لهم مصالحهم في المعاملات.

وهكذا قضوا بأن من مات في مكة من التجار الأغراب ورثته مكة.. ورثه الذين كانوا يتعاملون معه في مكة من تجار قريش!

أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون! وقضوا على من يستدين أن يقدم الى دائنه رهناً عزيزاً عليه..

كان الرجل أحياناً يرتهن ولده أو امرأته أو نفسه فاذا حل موعد أداء الدين وجب على المدين أن يدفع أضعاف ما استدان. فاذا عجز، تحول الرهينة الى عبد يملكه الدائن ويستثمره كيفما شاء.

وأقام الملأ من مكة آلهة في داخل الكعبة يعبدونها جيلاً بعد جيل، ويقومون هم وحدهم على خدمتها وعلى الاستفادة منها ـ وينزلون على حكمها ويسألونها البركة في البيع والشراء ويذعنون لقضائها.. وعينوا كهنة عرافين يختصون بتفسير ارادة التماثيل الصماء التي أقاموها رموزاً لآلهتهم.

وعاماً بعد عام امتلأت الكعبة بأصنام ترمز الى الآلهة التي تعبدها كل القبائل التي تتعامل مع مكة!

وأصبح أهل مكة جميعاً اما تجاراً يستوردون ويصدرون ويبيعون لأهل الواحات والمدن المنتشرة في الجزيرة العربية، واما وسطاء في المبادلات بين التجار العابرين واما أصحاب مصارف يوظفون أموالهم في اقراض التجار الصغار نظير حصة من الأرباح.. واما مرابين يكسبون من الربا.

وهؤلاء جميعاً هم الذين يملكون الثروة في مكة وهم يملكون الى التجارة والأموال، بساتين في الواحات المجاورة تنتج النخيل والأعناب وتربى فيها الخنازير وتستقطر من ثمراتها الخمور.

والى جوار هؤلاء المالكين، يعيش عشرات الألاف الآخرين أجراء في المزارع البعيدة، أو عمالاً في القوافل والمصارف والمتاجر.. أو بلا طعام.

وكانت تجارة مكة تشمل كل البضائع التي عرفها الناس اذ ذاك، وتمتد خطوط القوافل إلى أعماق آسيا وأفريقيا وأطراف البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

واذ كانت القوافل الغنية الضخمة تقطع المسافات الشاسعة وتتعرض لغزوات البدو وهجمات قطاع الطرق في بلاد مختلفة، فقد آثر سراة مكة أن يشتروا العبيد من أفريقيا ويدربوهم على السلاح ليقوموا على حراسة قوافلهم وتجارتهم في خارج مكة وداخلها.
وهكذا أصبح لمكة جيش وشرطة.

وكان هؤلاء التجار من كبار المرابين ومن أصحاب القوافل والمصارف والبساتين والمتاجر والمراعي والخمارات، هم الذين يتوزعون مناصب مكة فيما بينهم.

والعرب يعتبرون مكة عاصمة لهم، فهي أم القرى عندهم جميعاً.. هي المركز التجاري الكبير الذي يمثل عصب الحياة، وهي تضم البيت العتيق الذي أقيم للناس مباركاً... وهي بوضعها الاقتصادي: العاصمة الضخمة المرموقة! ومن أجل ذلك جمعت كعبتها آلهة الجزيرة كلها، ليحج اليها العرب من كل مكان. وأصبحت مواسم التجارة فيها هي مواسم الحج الى كعبتها.. وكانت هذه المواسم تقام في أسواق داخل مكة.. على أنها بدأت تضيق يوماً بعد يوم بالوافدين اليها فأقامت مكة في ضواحيها أسواقاً أخرى كان أعظمها سوق عكاظ.

وفي الحق أن سوق عكاظ هذا كان مهرجاناً كاملاً تشترك فيه كل القبائل العربية لا سكان مكة من قريش وحدهم.

كان الملوك والأمراء يأتون الى سوق عكاظ من أطـراف الجزيـرة العربيـة حيث تعرض سلع الفرس والروم وسلع بلاد أخرى كثيرة، وتقام فيه المنابر ويتبارى الشعراء العرب، ويختار من قصائدهم ما يجدر بأن يعلق فوق الكعبة ليعيش في التاريخ باسم المعلقات. . وفي عكاظ كان يقضى بين الناس وتعلن القبائل فيه تخليها عن فجارها فلا تحتمل جريرة أحدهم ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه. .

وفي عكـاظ كانت تقـام أسواق الـرقيق من كل الجنسيـات: الحبشيـات السـود والروميات البيض والهنديات والمصريات والفارسيات السمر. . ونساء وسط آسيا. .

وكان عكاظ فرصة للضعفاء يستصرخون فيه من ينجدهم لمقاومة من لا قبل لهم به من قطاع الطريق الذين يعدون على مضارب القبائل الصغيرة. .

وفيه يهدر دم الغادر. .

كان سوقاً عجيباً للتجارة وتبادل الثقافة والمتاع. . يقف فيه الى جوار الشعراء الذين يتحدثون عن أنسابهم ومفاخر أقوامهم. رهبان ثائرون على سلطان كنائسهم، ويهـود يتلون ما لديهم من الكتاب، وقرشيات شريفات يتعرضن للرجال ينشدن الأزواج، وكمان يلقون ما انتهى اليهم من حكم الهنـد وفارس من خـلال جملهم المسجوعـة، وملوك يبحثون عن البضائع والجواهر النادرة، وخمارون، ومبشرون، ونخاسون واسعو النفوذ، وصعاليك عظام، وتجار كبار، ونساء غزلات، ومؤرخون نسابون!

ولكن مكة لم تكن كلها تعيش هذه الحياة الباهرة الـزاهية من الكسب والمتـاع والغزل.

فلم تكن مكة كلها من التجار الأغنياء. . ولم يكن البيت الواحد فيها يضم رجالاً أثرياء فحسب، فقد كان للتاجر الكبير أحياناً أخ فقير مـدقع. . وفي بني هـاشم قبيلة عبد المطلب كان هناك الفقراء المعذبون والأغنياء الفارهون. .

ومن بين تجـار مكة كـان هناك من يملك آلاف الآلاف. . من يملك القـوافـل

والمصارف والبساتين في الواحات المجاورة حول الطائف . . وكان هناك أيضاً من يستدين ويستدين ليتجر أو ليعيش.

ولم يكن التاجر الصغير الذي يستدين يربح دائماً فلئن خسر ماله أو عجز لأي سبب عن أداء دينه، لقد وقع في الشرك إذاً!

كان عليه أن ينزل للدائن عن حريته، فيعمل عبداً للدائن حتى يقتضي منه الدائن ماله . .

وكان الدائن يحسب دينه أضعافاً مضاعفة عند حلول أجل الدين، وهكذا كان المدين ينزل عن حريته سنوات وسنوات . . وربما أصبح عبداً الى آخر العمر . . عبد كامل يملكه سيده الدائن كما يملك أي متاع آخر . . فما للعبد أي حق من حقوق الانسان.

وكان بعض الدائنين يفضلون أن يقتضوا تعويضاً عن ديونهم بطريقة أخرى اذا عجز المدين عن الدفع . . ربما لا تكون لهم حاجة باستعباده، أو ربما تزوغ عيونهم الى ما عند المدين من نساء . .

وهكذا كان المدين ينزل للدائن عن زوجته أو عن أمه أو عن ابنته أو عن زوجة ابنه . . فيتسلمها الدائن لا ليستمتع بها وحده فحسب فقد كان من حقه بعد أن يستمتع بها، أن يلحقها بأحد بيوت اللهو الكبيرة التي كانت ترتفع عليها رايات خاصة . . وفي هذه البيوت التي أحسن إعدادها بالأثاث الفاخر وعمرت بالخمور، وضمخت بالبخور والصندل وعطر اللبان . . في هذه البيوت الفاحشة الترف، يلتحق نساء المدينين، بالتجارة الشائنة التي تجلب لها الفتيات البيض والسود والسمر من كل بلاد الأرض، ليبعن المتاع للتجار الوافدين أو لمن يدفع الثمن من فتيان قريش الأثرياء . .

ويقتضي الدائن دينه مما تكسبه امرأة الدائن أو ابنته في هذه المهنة الشائنة . . فاذا استوفى دينه أعاد الفتاة الى أهلها! وكم من رجال أحنوا رؤوسهم أمام هذا العار واستسلموا له!.

وكم من رجال آخرين خشوا أن تأتي عليهم أيام تمرغ أنوفهم في هذا الوحل، فتخلصوا من بناتهم ووأدوا البنات بعد الولادة على الفور. !

على أن من رجال مكة من رفض العبودية والعار، فهرب إلى البادية بعيـداً عن ضجيج الحياة الفاسدة، وانطلقت منه صرخات احتجاج تلعن مكة ومظالمها وأسلوب الحياة فيها.

وكان هؤلاء الرجال الهاربون من أسلوب الحياة في مكة يكونـون جماعـات في البادية تنتزع لقمتها بحد السيف، وتهاجم قوافل الأغنيـاء وتحترف القتـل وتنشىء في الواحات الصغيرة المستظلة بالمرتفعات الوعرة، دولة الصعاليك والفتاك.. دولة وضعت تقاليد لمبادىء الفروسية في التعامل.. وكان لهم شعراء ينبض من خلال شعرهم، الحلم الدائم بالخلاص، والأمل المبهم في العدل.

ولم يكن التشريع الذي تضعه السلطات الحاكمة في مكة يهتم بغير مصالح تلك السلطات.

وأصحاب السلطة والحكام كلهم من التجـار الكبار أصحـاب رؤوس الأموال أو أصحاب المزارع البعيدة التي تربى فيها الخنازير، وتستقطر فيها الخمور.. كانوا من أصحاب المصارف والمرابين وملاك الخمارات وبيوت اللهو الضخمة.. ومن أجل ذلك فما كان التشريع في مكة ليهتم بأحد غير هؤلاء الملاك الكبار الحاكمين.

ومـا كـان التشـريـع ليهتم بشيء الا بمـا يمكن قبضتهم على رقـاب العـاملين والمدينين، وبمـا يمنحهم المتاع والجاه واللذة وكل ما يزهو به القلب الأجوف.!

وكان الرجال اذ ذاك يزهون بما يمتلكون من عبيد ومال وبما يشربون من خمور، وما يقتلون من مستضعفين وما يمتلكون من سطوة وهيبة ونساء.

وكان النساء أيضاً يفخرون بعدد العاشقين والأبناء.. بالقدرة على ولادة كثير من الأبناء.. مهما تكن أشكال العلاقات التي أنجبن منها.. فما كان الزواج الذي نعرفه هو وحده أساس المعاشرة بين النساء والرجال!

ولم يكن للفقراء ما يحميهم.. لا القانون ولا العرف السائـد ولا التقاليـد التي أسستها حكومة التجار والمرابين!

وحتى أصنام الكعبة.. لم يكن هؤلاء الفقراء من بين ما تهتم به.

لم يكن للفقراء شيء على الاطلاق.. فالرجال ينحدرون تحت وطأة الحاجة ليتحولوا فجأة الى عبيد.. والنساء - حتى العفيفات منهن - يتحولن تحت نفس السلطان الغاشم الى بغايا في بيوت ترتفع عليها رايات خاصة.

قليل جداً من هؤلاء الرجال والنساء استطاعوا رغم المعاناة ان يحتفظوا بما هو انساني فيهم.

ولكن الشرف والجاه والبسالة والنخوة وكل الفضائل التي يمجدها العربي لم يكن يملكها الا الذين تمردوا على أسلوب الحياة في مكة وأنشأوا في الواحات المنيعة دولة الصعاليك والفتاك.. وآخرون قليلون من قريش استطاعوا بحصانة خاصة باهرة كالمعجزة أن ينجوا من سيطرة روح العصر. أو من تعسف الدائنين!

كان المال والآلهة والكعبة والمتاع للسادة، وأما الفقراء الذين وقعوا في الشرك.

أما الذين سقطوا بغتة من قمة كبرياء الحياة اليومية الموفورة تحت ضربات الحاجة ليتحولوا الى عبيد عند دائنيهم.. أما اللواتي انتزعن من أحضان الأزواج، والأمهات، ودفع بهن إلى أذرع رجال غرباء.. وأما اللواتي ألقين الى أظفار نهمة تنهش لحومهن العذراء.. وأما الذين اشترتهم أموال النخاسين والتجار من شواطىء أفريقيا ليحرسوا أموال السادة وصلفهم الفاجر المستبد، وشهواتهم ومصارفهم وقوافلهم.

أما هؤلاء جميعاً فلم يكن لهم في مكة شيء غير الرمضاء والمرارة والألم الممزق.

أما هؤلاء جميعاً فقد ألقي بهم بعيداً عن الكعبة ليعيشوا في حي ناء عن الآلهة، بعيداً عن قصور السادة المحيطة بالكعبة.. بعيداً.. على حافة الصحراء.. في العدم.. حيث لا يملكون شيئاً بعد غير الذكريات، وأحلام الخلاص!..

وفي هذا الظلام الجائر العقيم المضني.

في هذا الليل الرهيب الداجي.. ولد الهدى: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

٢

عندما يقبل الربيع من كل عام على جزيرة العرب، ترتفع أعواد الحنطة في حقول اليمن، ويورق الكرم في أرض الطائف، ويمتلىء الفضاء بشذى البساتين، وينبت الكلأ في الوديان المترامية، وتتوج بشائر التمر الأخضر هامات النخيل في يثرب . .

أما في مكة فالربيع يقبل دائماً ليؤذن ببداية الحر، والاستعداد لرحلة الصيف.

وقد ألفت قريش رحلة الصيف الى سوريا ورحلة الشتاء الى اليمن . . وايلافهم رحلة الشتاء والصيف لم يكن يمنعهم من الترقب والترصد والاحساس بالقلق على مصير شبابهم الذين يخوضون في الصحراء تحت شمس لا ترحم وليال تصفر فيها الريح بعواء كائنات من عوالم غريبة . !

ولم تكن آمنة بنت وهب في ذلك الربيع من سنة ٥٧٠ تحب لزوجها عبد الله أن يخرج مع القافلة . . فقد دهمها خوف غامض عليه، وتمنت لو أنها تستطيع أن تمنعه . . كم تحبه وتشعر بالأمن الى جواره، ويمتلىء قلبها بالرضا عن نفسهـا كلما سمعت أن زواجها منه ملأ قلوب الفتيات بالغيرة! .

ولكن عبد الله بن عبد المطلب لم يكن يملك في بيته غير خمس رؤوس من الضأن يقتات هو وزوجته الحامل من ألبانها، ولم يكن في البيت بعد ذلك ما يأكله الزوجان الصغيران الا بقايا قليلة من تمر، وقديد . . . وهما الآن يستقبلان مولودهما الأول! . .
وليست لعبد الله تجارة يعتمد على ربحها وليس لأبيه ـ على علو قدره ـ فائض من مال، وهو بعد فتى في الثامنة عشرة قوي الذراع!

وخرج عبد الله يطلب رزقه، ليعود إلى زوجته آمنة فيملأ بيتها بالخير الوفير، ويستقبل المولود الجديد.

ليكن غلاماً يشد ساعدك يا عبد الله، ويسعى معك في رحلة الشتاء والصيف! وليكن له أخوة عشرة تستقوي بهم في قريش!

لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجتك آمنة حتى تضع ولدها ولكنها توشك أن تضعه وأنت ما تزال في البلد النازح! . . لشد ما يعبث بك القضاء! ولكنها ارادة آلهة الكعبة! . .

عندما كنت صغيراً أوشكت أن تذبح ليرضى كبير الآلهة عنك وعن أبيك، ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير. . مائة بعير افتدت حياتك، ولو أنها لديك الآن لأصبح لك في قريش شأن آخر، ولما اضطرتك الحاجة الى أن تترك زوجة وحيدة. . تضع لك طفلك الأول وأنت بعيد! . .

وها أنت ذا تضرب في الأرض من أجل الرزق. . بعيداً عن مكة البلد الذي ولدت فيه واخترته للحياة، وتتمنى أن تستلقي تحت ترابه بعد عمر طويل حافل! . . ولكن مكة الآن بلد يغشاه الوباء. . لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية!، جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشة، الذي أراد أن يستولي على مكة ويهدم الكعبة. ألم يسمع أبرهة أساطير الأولين؟. الم يسمع ما يقوله الرواة في طول الجزيرة وعرضها عن أبطال كانوا أشد منه بأساً حتى لقد أخافوا الجن، وشقوا الظلمات بسيوفهم، وسيطروا على الريح، ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة، وقضى عليهم أن يعيشوا في التيه مئات السنين!! . . ولكن أبرهة لا يعي، وانه ليستعلي على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل، تجفل الخيل منه، ويفر من أمامه الشجعان، وانه ليقرع أبواب مكة بجيش يتقدمه هذا الفيل!! . . لكم كان أبوك عبد المطلب حكيماً يا عبد الله! . . هو حكيم ولا يخطىء أبداً، أبوك الشيخ هذا. . تداعت قريش كلها الى القتال، فأدرك عبد المطلب أنهم لا قبل لهم بجيش أبرهة وبالفيل، فناداهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم الى شعاب مكة حتى يزول الكرب، أما الكعبة فلها أرباب تحميها. . وفي قصص الأولين عبرة! . . ولم يكد جيش أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذي كان يعصف بمكة، فاذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدري، ومعهم أبرهة نفسه، وما أغنى عنهم الفيل! . . وهكذا

فر أبرهة عائداً الى صنعاء بفلول جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقي من رجاله، فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول، بينما عاد أهل مكة من شعاب الجبل يهللون، ومن بينهم أبوك، وآمنة. . زوجتك آمنة بحملها يا عبد الله. . !

حدث هذا من نحو شهر، وأنت بعيد، وما زلت تضرب في الأرض بعيداً عن مكة وأبيك، بعيداً عن آمنة وحملها الذي تنتظر مقدمه، منذ أشهر. !

متى تعود لتعيش بقية العمر آمناً في بيتك ـ يا عبد الله ـ وحسبك من غنى شبع وري؟!

ولكن عبد الله لم يعد، فقد مرض ورقد عند أخواله بني النجار. .

وكان قد مضى خمسون يوماً على اندحار أبرهة وجيشه والفيل. . وزحف شهر أبريل على مكة بحرارته، فوضعت آمنة حملها. . وجاء ولداً. .

وحرصت آمنة على ألا يراه أحد قبل أبيه، ولكن أين أبوه الآن؟! . . وإذاً فلن يراه أحد قبل جده عبد المطلب! وأمرت آمنة أن يلقى على الطفل شيء يستره. . ثم أرسلت الى عبد المطلب من يقول له: «قد ولد لك غلام فأته فانظر اليه».

فقام عبد المطلب اليها، فكان هو أول من نظر الى وجه حفيده. . الذي اختارت له أمه اسم محمد، لكي يحمد حمدا بعد حمد. .

وأخذ عبد المطلب حفيده بين ذراعيه فرحاً به، ودعا له، وقام يلتمس له من ترضعه. . فوجد «ثويبة» جارية ابنه أبي لهب، فأرسلها الى آمنة ترضع عنها الوليد، وأرضعته ثويبة عدة أسابيع. . وأمه تنتظر عودة أبيه.

دفعت آمنة بطفلها الى ثويبة لكي تفرغ هي لزوجها ـ عندما يعود ـ بكل نفسها وبكل ما يمتلكه منها، كما تعودت الزوجات في ذلك الزمان. وظلت تحلم وتنتظر الزوج الغائب.

أما عبد الله فقد اشتدت عليه العلة ثم انطفأت جذوة الحياة في صدره. . أغمض عينيه على أمل متلهف أن يعود الى مكة فيرى آمنة، وابنه منها، وعلى حلم غامض بالخلاص من الحاجة التي تسحق حياة الرجال.

وعرفت الأرملة الصغيرة بنت السادسة عشرة أن زوجها وفخر حياتها، سيظل الى الأبد تحت ثرى بعيد في بلد نازح ذهب اليه يبحث عن الرزق. . ولن يتاح لها مدى الحياة أن تراه. . ولا أن تبلل ثراه بالدمع، ومع ذلك فمن حولها في مكة تمتلىء بيوت الملأ بالمسرة والغنى وكل ما يمنح القلب احساسه الممتع ببهجة الحياة! . .

ولم يكد عبد المطلب يمسح دموعه ويستمسك من حزنه الفاجع على أحب ولد اليه. . حتى ضم اليه اليتيم وأمه. .

ورأى أن يرسل حفيده اليتيم الى بادية بني سعد ليرضع هناك وينشأ ويتعلم في البادية أول الكلمات فيكون هذا أفصح للسانه وأجلد لجسمه.

وكان نسوة من «بني سعد» يقبلن الى مكة ليلتمسن الرضعاء في السنين العجاف. . وكانت تلك السنة قاسية على قبيلة بني سعد، فقدم النسوة إلى مكة، وعرض عبد المطلب على كل واحدة منهن أن ترضع محمداً، فما قبلت واحدة. . كل امرأة منهن تقول: «أنه يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجده؟».

وكل مرضع تطمع في كرم أب الطفل الذي ترضعه. .

وأوشكت القافلة أن ترجع بالنسوة محملات بالرضعاء. . وكانت حليمة هي المرضع الوحيدة التي لم تجد طفلاً، فقالت لنفسها:

«اني لأكره أن أعود من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، لأذهبنّ الى ذلك اليتيم فلآخذنه».

وعادت به حليمة ترضعه، ليفخر هو بهذه النشأة في بني سعد، بعد سنوات طوال. . اذ يقول لأصحابه «أنا أعربكم، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

استرضع في بني سعد بن بكر، وظل حتى بلغ الفطام، ولكن جده لم يشأ أن يعيده، واستبقاه في بني سعد حتى بلغ الخامسة من عمره، وهناك تعلم أول الكلمات، وتفتحت أذنه منذ الطفولة على النطق العربي الفصيح. . وهناك رعى الغنم مع أخيه في الرضاعة.

وقدمت به حليمة الى مكة في السن التي يصلح فيها أطفال ذلك الزمن للعمل وقد

تجاوز الخامسة بشهور. . ولم يكد يبلغ مشارف مكة حتى خاض في الزحام بكل لهفته الى البلد الذي ولد فيه والذي تعيش فيه أمه وعشيرته وجده. فبحثت عنه حليمة فلم تجده، فأقبلت على عبد المطلب جزعة تقول:

اني قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضلني فما أدري أين هو؟».

فقام عبد المطلب يدعو آلهة الكعبة أن ترده فلا يضيع أثر ابنه عبد الله؛ وما هي الا أن أقبل ورقة بن نوفل يمسك محمداً بيده وقال لعبد المطلب:

«هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة».

وهش عبد المطلب لحفيده وجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعيذه ويدعو له ثم أرسله إلى أمه آمنة.

وبعد عام واحد، خرجت أمه به لتزويره أخواله المقيمين في مضارب بين مكة ويثرب. . ولبثت هناك حيناً، ولكنها لم تعد الى مكة، فقد ماتت على الطريق ودفنت مكانها، وخلفت وراءها غلاماً يتيماً في السادسة من العمر. لم ير أباه أبداً، ولم يستمتع بالحياة في أحضان أمه. . لم يرها بالقدر الكافي. ولم تعلمه أولى الخطوات، لم تسانده ليمشي، ولم يتلق عنها الكلمات وأسماء الأشياء. . ولهو يوشك أن يستريح الى أحضانها اذ بالموت ينتزعها منه ويتركه وحيداً في فضاء شاسع رهيب!.

ما هو هذا الموت إذاً؟!. . وما الحياة؟!

وكفله جده عبد المطلب. .

لكأنه قد ولده مرتين. . هو ذا يرعى ابن عبد الله أحب ولد اليه!

وكان عبد المطلب قد تعود أن يستظل نهاراً بالكعبة على فراش مرتفع، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يقبل هو اليه، لا يجلس منهم أحد على الفراش اجلالاً لمقام أبيهم، فيأتي محمد وهو غلام صغير فيثب الى الفراش ويقعد، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم: «دعوا ابني. .».

ثم يجلسه منه على الفراش ويمسح ظهره بيده. .

ويمضي عمه الزبير بن عبد المطلب وهو من أظرف فتيان قريش فيداعبه أو يضحكه.

على أن هذا الحنان الدافق الذي مسح به جده جراحات يتمه، لم يدم له طويلاً، فما بلغ الثامنة من عمره، حتى شعر جده أنه يموت. . سيموت عبد المطلب ويترك حفيده وحيداً في الدنيا العريضة بلا مال، ولا أب، ولا أم.

ودعا عبد المطلب أولاده فأوصاهم بحفيده اليتيم، وقضى أن يكفله عمه أبو طالب فهو ـ وحده ـ شقيق ولده الراحل عبد الله ولدتهما نفس الأم. .

وأوصاه به، ومات عبد المطلب.

وانتقل الغلام اليتيم الى بيت عمه الشقيق أبي طالب. .

وكان أبو طالب كثير العيال، لا يكاد يربح الا ما يكفيه هو وأهل بيته. . وكان في كثير من الأحايين يضطر أولاده الى العمل ـ على صغر سنهم ـ ليكسبوا طعامهم الناقص بعرق الجبين!.

وما كان أبو طالب يحب أن يغامر فيستدين!

وأقام محمد عند عمه يضنيه شعور بالغربة، على الرغم من حرص عمه عليه، واحتفال بني عمه به. ولكنه ظل على احساسه بالوحدة، فاذا وضع الطعام له وللصبية من أولاد أبي طالب امتدت أيديهم وانقبضت يده استحياء.

على أنه ألف الحياة في دار عمه يوماً بعد يوم.

وكان لا بد له أن يعمل ليأكل كما يعمل أبناء عمه ليأكلوا. فرعى الغنم، وخرج مع الرعاة الآخرين يلتمسون الكلأ في مواضعه خارج مكة ويعودون مع الليل.

وذات صباح علم أن عمه أبا طالب سيخرج في رحلة الصيف الى الشام. وتشبث محمد بعمه، ولكن عمه نهره، فهو صغير بعد لا يصلح للخروج مع القوافل في سفرها الشاق.

وكانت هذه هي أول مرة يفارق فيها عمه منذ كفله.

وسأله محمد مرة أخرى ألا يتركه في مكة، فلمن يتركه اذا سافر؟!

ورق له قلب أبي طالب فأقسم ليخرجن به ولا يفارقه أبداً؟!

كان محمد يتوق الى هذه الرحلة في الأرض البعيدة، فقد ثقلت عليه الحياة بمكة حيث لا حرمة لشيء. الصغار الفقراء يعملون معاً وهم عراة لا يستحيون وبيوت السادة

تغلق أبوابها كلما أقبل الليل على تأود الراقصات والصخب الماجن. . والخمر تسيل بلا حساب مستنزفةعرقرجال طيبين مثل أبيه. . رجال يعيشون ويموتون وهم يبحثون عن الرزق على حين يتضاعف ثراء التجار الكبار الذين يعيشون في صلف ماجن مستبد، يحرسهم العبيد الذين هم بشر أيضاً. . بشر كالسادة!

ومن خارج هذه البيوت التي يمتص أصحابها دم المستضعفين، كان محمد قد عرف بيوتاً أخرى ذليلة تغلق أبوابها على رجال تعساء تلتقط آذانهم صدى الضحكات الخليعة التي يحملها سكون الليل، وكل واحد منهم يخشى أن يصبح فتضطره الحاجة الى ارتهان ابنته أو زوجته لتنضم الى ذلك القطيع من الرقيق الأبيض أو الأسود الذي يقدم للتجار الكبار وضيوفهم متاع ليال كاملة. .

وفي الرحاب الشاسع من أرض مكة. . خارج هذه البيوت وتلك. . بعيداً عن الصخب الداعر والمأساة: كان يجتمع رجال وفتيات لم يقعوا في فخاخ الدائنين يعيشون بالقليل، مثقلين بأحلام المعجزة التي يجب أن تقع. . فالمعجزة وحدها هي التي تستطيع أن تستخلص مكة من عنت المتجبرين!

كان هؤلاء الرجال والفتيان يجتمعون في ساحة حول رجل يروي لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب، وتلقى الأمن في القلب المضني، وتثير الأمل في النفس التي يروعها القلق وسلطان الحاجة والخوف الدائم من المجهول!. . أساطير مثيرة عن أبطال قدماء، وعن جبابرة هووا من عليائهم، وعن مستضعفين امتلكوا حياتهم، ومصيرهم، وتاريخهم نفسه بعد طول المعاناة!

كان محمد قد شهد كل هذا، وقد ضاق بصور الحياة من حوله. . وكان قد شعر أيضاً بأن عمه أبا طالب، اذا مضى مع القافلة وتركه، فسيبقى هو وحيداً في مكة المتلاطمة بصراع التجار مع المستضعفين، وحيداً. . أشد وحدة من أي وقت مضى.

وخرج محمد مع القافلة في صحبة عمه الى بلاد الشام، وهو اذ ذاك غلام في الثانية عشرة. . وفي بلاد الشام رأى مثلما رأى في مكة: قطعان العبيد تزجى كالأغنام. . الرجل يمتلكه غيره. . المصير معلق بكلمة ينطقها السيد. . كبار يملكون التجارة والأرض وكل شيء والآخرون يسامون بلا حق في أي شيء. . حتى في الشكوى!

لكم روعت كل هذه الأشياء قلبه، وهو في مكة. . ولقد سمع أن رجالاً من مكة رفضوا هذا كله وخرجوا على قومهم. . منهم ورقة بن نوفل الذي كان قد عرفه وهو صغير ضائع في مكة. . ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي أعلن صرخة احتجاج في وجه قوى الظلام ولعن اللات والعزى وهبل. . وتوقع الناس أن يصاب بالبرص. . كما يحدث لمن يلعن الآلهة. فلم يحدث له شيء وظل يطالب تجار قومه بأن يعدلوا مع من يتعاملون معهم، فبدأوا يتعرضون له. . ومنهم زيد بن عمرو الذي طالب الرجال بألا يشدوا البنات. . وحثهم على أن ينقذوا أنفسهم من العار فلا يسلموا المرابين أجساد النساء وفاء للديون. . ولكن المستضعفين لم يستطيعوا أن يستجيبوا له ونفاه التجار الكبار الى خارج مكة.

التجار في مكة هم حماة أوثان الكعبة التي تقضي لهم باذلال الآخرين. . أما هنا في الشام فالأمر مختلف. . هنا المسيحية. فما بال الرجل يلطم أخاه على كل خد، ويأخذ ما ليس له، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة، كأنما هي ملك لهم هم وحدهم. . وما بال الخيرين يحترقون في كبرياء الأشرار؟!.

وعاد الى مكة مع القافلة بعدما التقى براهب نصراني في الطريق. لقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه الى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه.

عاد يرعى الغنم، ويطوف بالكعبة. . والأيام تتقدم به الى أول الشباب.

انه الآن يتقدم الى السادسة عشرة، وما زال يرعى الغنم ثم يعود ليطوف بالكعبة، ولكنه لا ينام هادئاً كما ينام الذين يجهدون من العمل مثله طوال النهار. . فهو يفكر في أبيه الذي قتله السعي على الرزق، وفي أمه، وجده، وفي عمه أبي طالب الفقير وأعمامه الآخرين الأغنياء ويشرد إلى ما رآه في الشام!

ثم يعود ليتذكر المبشرين الذين نفتهم مكة، لتحتفظ بأسلوب الحياة فيها، وبأصنام الكعبة!. .

لكم رأى في الكعبة. وانه ليعجب من صمت (الأصنام) فيها على ما يجري هناك تحت عينيها أية آلهة هذه!

ففي الكعبة، رأى الرجال يطوفون عراة، والنساء يطفن بأثواب شفافة تكشف أكثر مما تستر، ويثرن بها الرجال أكثر مما لو طفن عاريات!. . ورأى بعض الرجال يلتصق

بالنساء أمام آلهة الكعبة. . وآلهة الكعبة مغمضة العينين!.

ان هذا ما زال يحدث على الرغم من أن الجميع يؤمنون أن من بين أحجار الكعبة، يقف رمزان لغضب الآلهة على من يفسقون في الرحاب المقدس: فقد بغى رجل بامرأة داخل الكعبة فمسخا حجرين!. . هكذا يعتقد الكل ولكن رجالاً ونساء منهم ما زالوا يدخلون الكعبة ويختفون وراء تماثيل الآلهة ليمارسوا البغاء!!

ووثبت به الحياة الى الفتوة، وهو ما برح يرعى الغنم في النهار، ويفكر طول الليل في ألوان الحياة التي تعيشها مكة وفي الطريق الى حياة أفضل. . أين الطريق؟!

وانه ليرعى الغنم ذات مرة مع فتى في مثل سنه، اذ سمع من بعيد صدى دفوف. . فقال لصاحبه: اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة.

وأسرع الى الدار التي يتصاعد منها رنين الدفوف، وكان بها عرس فيه لهو وزمر، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك شعر بتعب بعد طول الجري، وسهر الليل فقعد الى جدار، فأغفى، ونام، ولم يتح له أن يشارك في مسرات العرس.

وعندما قام فكر فيما دفعه الى أن يترك الغنم ليستمتع بما في العرس. انه لشبابه الفوار! ولكن النوم هبط عليه ليعصمه. . وقرر أن يتزوج لكيلا يتورط في مغامرات كالآخرين وانه ليكسب قوته من عمله الآن. .

ورأى في الكعبة امرأة شابة جميلة تطوف وليس في هيئتها وزينتها وثوبها ما ينكره. . كان اسمها ضباعة بنت عامر بن صعصعة فخطبها محمد لنفسه وشغفت المرأة به حباً. . ولكنه علم عنها أنها حين كانت تطوف بثوبها المحتشم ألقت شعراً فاحشاً متغزلة في فتوته ثم ذكر له عنها ما جعله يتركها. . ففسخ الخطبة وحزنت المرأة حتى لقد تلفت من الكمد.

أيظل في مكة يعمل برعي الغنم الى الأبد؟!

لم لا يعمل في التجارة وقد كبر الآن وأصبح فتى في السادسة عشرة؟. أيجب أن يعمل للسادة المتغطرسين الذين ينصبون الفخاخ للفقراء؟ أما من سبيل آخر لكسب العيش؟

ولكن. . ما برح في مكة رجال ونساء لديهم المال. . ولهم قلوب. !

٣

الكاذبون ما زالوا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بالأكذوبة في وجه الحياة، ويتجاسرون على كل شيء ثم يجدون من يسمع لهم لأنهم يملكون الثروة والسلطة والآلهة!

المرابون يزدادون غنى يوماً بعد يوم.. والذين يغرقون في وحل الخطيئة حتى الأذقان، يجدون ثياباً نظيفة يظهرون بها أمام الآخرين فيكسبون الحمد والاحترام..

وفي عين المنافق ما برح يسطع شعاع.. ربما كان أكثر التماعاً مما تسطع به عين الرجل الجسور.. وما يعرف أحد بعد أحكمة كان كل ذلك أم جنوناً..!

والكل يقول كلمات متشابهة عن الشرف.. الكهان، والنخاسون و«هبل» قائم في الكعبة ومن حوله الآلهة الصغار، صم بكم، تتمسح بها النساء، الفاجرات والعفيفات على السواء!

الصيارفة يصوغون الحقيقة ويملكونها، أما كنز الحق نفسه فهو حلم القلب الممزق!

وفي هذا التيه من الأباطيل ظل القلب قادراً على أن يحلم.. على أن يحلم بالزمن السعيد..

فعلى هذه الأراضي وفي هذا المكان نفسه، عاشت حقائق أخرى منذ آلاف السنين.. هنا في هذا البيت العتيق الذي أقامه ابراهيم مثابة للناس وأمنا.

أين تعاليم ابراهيم..!؟

ألم يصرخ في وجه الجبابرة ذات يوم في هذا المكان نفسه: لا تسرقوا، لا تكذبوا، لا تتعاطواالربا، لا تزنوا، لا ترتكبوا جوراً في القضاء ولا في الوزن ولا في الكيل؟

ولكن مدينته قد امتلأت بالظلم، واستبد بها كبرياء الأشداء.. فهم يسرقون ويزنون، ويكذبون، ويجورون في القضاء، واذا أقرضوا الناس ضاعفوا الربا واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون!..

لقد أصبح الرجل يقدر بما يملك، ولا يسأله أحد بعد كيف ملك.. أصبح الربح هو الغاية مهما تكن الوسيلة اليه.. الكذب والنفاق والسرقة والاغتصاب، أصبحت أدوات بارعة.. وما دام الرجل يستطيع أن يطوف بالكعبة ويمسح الركن، ويقدم القرابين لهبل، فكل شيء مباح له.. ولكن ما شأن الفقير الذي لا يسرق ولا يغتصب، ولا يملك ثمن القرابين!؟.. ان أصنام الكعبة لا تقبله في رحابها.. فهي آلهة مترفة تحب الأغنياء.

من للفقراء إذاً؟!.. لقد كان لابراهيم رب آخر، كان هو رب الجميع، وكان ابراهيم ينهى عن عبادة اله غيره، ويعد قومه الأمن ان أطاعوه، فلا يعبر في أرضهم سيف!

أين رب ابراهيم.. فهذه الأصنام تبارك صلف الأشداء وتنبذ المستضعفين لا يمكن أن تكون جديرة بأن يسجد لها الانسان!!

أكان رب ابراهيم هو الشمس التي تمنح كل شيء حياته؟! ولكنها تأفل أحياناً والرب يجب ألا ينام أو يموت.. والقلب المتطلع المشوق لا يحب الآفلين!

أين رب ابراهيم الذي قضى أن من قتل يقتل، وأن من زنى يحرق بالنار فلا تعيش الرذيلة في الأرض، وأن من أبغض أخاه في قلبه لحقت به اللعنة، وأن من انتقم أو حقد قضي عليه بالهوان؟!.

أين رب ابراهيم الذي بارك من «لم يعبد الأصنام، ولم يلوث امرأة قريبه، ولا ظلم انساناً، ولا ارتهن رهناً، ولا اغتصب اغتصاباً، بل بذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوباً ورفع يده عن الفقير ولم يأخذ الربا»؟!

ثم ما هو هذا الحجر الذي يطوفون به؟! أين هو رب ابراهيم..؟! انه حجر لا يسمع، ولا يبصر ولا يزجي الرياح، ولا يسوق المطر، ولا يضر ولا ينفع!!

نظر نفر من قريش لبعضهم، وقد سئموا الطواف بهبل وأخذوا يتأملون قومهم وهم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به.. قال واحد منهم وقد خلصوا نجيا: «ما قومكم على شيء.. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم».

كان هذا النفر هم ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو.. وكلهم معني بالبحث عن الحقيقة وسط زحام الخديعة والأكاذيب.

كانوا جميعاً يقرأون ما يقع لهم من الكتب.. ويعانون من فساد الأوضاع في مكة.. وتعاهدوا على أن يكتم بعضهم على بعض.. وخرجوا معا يضربون في الأرض باحثين، عسى أن يعودوا فيما بعد مبشرين بدين ابراهيم وتعاليم الحنيفية.

فأما ورقة بن نوفل فقد اهتدى الى المسيحية وعاد الى قومه مقتنعاً بتعاليمها ليحدثهم عن اله واحد «لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي ولا يخدم بأيادي الناس لأنه لا يحتاج الى شيء، اذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء.. لأنه هو رب السماء والأرض»..

وعاش ورقة في مكة كالرهبان ينصح لقومه أن: أحبوا بعضكم بعضاً فالمحبة لا تسقط أبداً.؟ باركوا على الذين يضطهدونكم.. ولا تلعنوا.

أما عبد الله بن جحش فلم تقنعه المسيحية أول الأمر وظل يلتمس الحنيفية دين ابراهيم.. أبيهم جميعاً..!

وظل عثمان بن الحويرث يضرب في الأرض حتى قدم الامبراطور الروماني واعتنق المسيحية وولاه الامبراطور أميراً على مكة.. ولما عاد الى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا أن يخضعوا لقيصر، أو أن يولوا عليهم أميراً وقالوا له: «ان مكة لا تدين لملك».

فاعتزل عثمان وظل يمارس طقوس دينه الجديد وكان لا يفتأ يردد آيات حفظها من الانجيل: «لا تقتل.. لا تسرق.. لا تشهد الزور.. لا تسلب.. أكرم أباك وأمك.. لا

تزن.. وأعط الفقراء ليكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب».

أما زيد بن عمرو فلم يكن ينشد خلاص نفسه فحسب بل خلاص قومه أيضاً فواجههم بما هم عليه من ضلال.. اعتزل الأوثان، ورفض أن يأكل من لحم الذبائح التي تنحر أمام الأصنام، ونهى عن قتل الموؤودة فكان يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها».

ولكنهم أعرضوا عنه..

وتعود أن يسند ظهره الى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمر بيده، ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري».. ومضى يسفه قريشاً ما يعبدون ويتعرض لهم فينهاهم عن الربا والكذب والظلم وعبادة أصنام الكعبة، وينشد لهم القصائد الطوال ويروي نبأ موسى وفرعون، ويونس والحوت، والمبشرين الأوائل الذين اصطدموا بجبابرة آخرين من قبل..

وشعر بعض سراة مكة بخطر دعوة زيد فعاتبوا عمه الخطاب.. وكان الخطاب تاجراً موسراً من الذين يكسبون من الربا، ويمجدون الاغتصاب، ويظلمون، ويملكون الآلهة، ويعشقون الخمر والنساء..

ونهى الخطاب ابن أخيه، ولكن زيداً ظل على دعوته!..

وآذاه عمه، فخرج الى جبل حراء على مقربة من مكة، يتأمل الساعات الطوال ويعود فيدعو الناس الى ترك الباطل الذي يغشى حياتهم كلها.

«وأغرى عمه به شباباً من شباب قريش من بينهم ابنه عمر بن الخطاب، وسفهاء من سفهائهم فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة..

فكان لا يدخلها الا سراً منهم فاذا علموا بذلك آذوه وأخرجوه كراهية أن يفسد عليهم وأن يتابعه أحد».

وضاق هو بهذه الحياة، وضيق عليه السفهاء فخرج من الحجاز يطلب دين ابراهيم ويسأل الرهبان والأحبار، وطاف بالجزيرة كلها حتى بلغ الموصل ثم أقبل فجال الشام كله يسأل عن الحنيفية دين ابراهيم.

وعرضت عليه اليهودية والمسيحية فلم يقبل شيئاً منهما.. وقال له الرهبان والأحبار: «انك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك اليه اليوم»..

وأضناه السفر الطويل..

ومع ذلك فقد ظل يتنقل من بلد الى بلد يتخبط على أبواب الأديرة، ويقرع صدره تحت قباب الكنائس النصرانية، ويتمرغ بين أعمدة معابد يهود، ويرنو الى عباد النار ويعفر رأسه بالتراب المقدس مع الكهنة، ويمتحن دين بوذا وأتباع زارادشت.. ولكنه لم يجد الحقيقة التي ينشدها أبداً..!

لا بد من دين آخر وقيم أخرى!

وما برح يرحل ويرحل كطريد قدر غاشم على دابته المتهالكة. عصاه في يده وجسده النحيل الذي أنهكته السنون يرتجف تحت ثوب خشن مرقع، وذقنه البيضاء ترتعش، وعيناه الكليلتان تقتحمان المجهول بحثاً عن الراحة التي يطمئن بها القلب.. بلا جدوى.. دائماً بلا جدوى..

وأخيراً اعترضه بعض اللصوص في احدى رحلاته المعذبة وعدوا عليه فقتلوه.. وعندما عرفت قريش، ابتهج السادة وتنفسوا الصعداء، أما الذين بحثوا معه عن الحقيقة، فقد بكوه أحر بكاء..

وما زال ورقة بن نوفل يذرف دموع العين. كلما ذكر صديقه القديم زيد بن عمرو..

بكى محمد أيضاً، ضياع هذا المبشر الجليل، الذي عاش حياته الطويلة قلقاً يبحث عن الحق ثم مات قبل أن يفيض الشعاع من قلبه.. وأن محمداً ليذكر كم كان رائعاً حقاً هذا المبشر الراحل.

ومحمد بن عبد الله يذكر أنه لقيه مرة على الطعام.

كان ذلك في أحد البلاد التي سافر اليها محمد ـ أجيراً باحدى القوافل وزيد بن عمرو يحل بهذا البلد باحثاً عن الحقيقة.. عن الكلمة التي يزرعها في القلب.

وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمي تمثال أحد الآلهة، وحاور محمداً.. وكان محمد اذ ذاك شاباً في العشرين يضيق هو الآخر بمظالم قريش

وبآلهتها المتعجرفة الصماء وبالتقاليد التي تدعم قبضة التجار الكبار على أعناق العبيد. . أما محمد فأكل، ولكن زيداً آثر الجوع على الشبع من ذبيحة نحرت أمام صنم ولم يذكر عليها اسم رب ابراهيم!. .

ان محمداً ليذكر هذا ويأسى، ويذكر أن «زيداً بن عمرو كان أمة وحده» وانه ليشعر بالحزن لأن قريشاً عاملت رجلاً منها بمثل تلك الفظاظة اذ دعاهم الى أن يعدلوا فيما بينهم!. . كل الأغنياء حتى العشيرة الأقربون لم يرحموا الرجل. . حتى عمه الخطاب الذي كان يبره ويحنو عليه من قبل أن يقول كلمته، ويمضي!. . وحتى ابن عمه عمر بن الخطاب الشجاع الذي كان زيد يريد أن يعز به دعوته!

لقد مات زيد بن عمرو، الذي أضاء لحظة كالشهاب الخاطف في ظلمة الحياة المكية الداجية. !!

وعادت مكة من جديد يستبد كبراؤها بالفقراء!

لم يسمع له أحد، والكاذبون يجدون من يسمع لهم، والمرابون يزدادون غنى يوماً بعد يوم، والكهان والنخاسون يقولون كلمات متشابهة. وفي عين المنافق ما زال يسطع شعاع!

وها هو ذا محمد يعمل أجيراً ليكسب حياته، كما عاش أبوه، ومات. . بينما رجال كعمه أبي لهب بن عبد المطلب وكالوليد وكأبي سفيان، يملكون أكداس الذهب، ومئات العبيد!!. . من شرع هذا؟!. .

وهبل قائم في الكعبة، راضياً عن الأغنياء وقد نسي هو وكل آلهة الكعبة، فقراء قريش!. .

وفي القافلة التي تنتظم ألفاً من الجمال، ومائتين من الرجال، يملك ثلاثة أو أربعة من أغنياء مكة تسعمائة جمل على الأقل، ومعظم الرجال، ويشترك بقية أهل مكة فيما بقي!. .

ومع ذلك فحينما تقع الحرب، يتحمل المستضعفون عذاب المعركة. . فالأثرياء يعتمدون عليهم وحدهم!. . لقد رأى محمد كيف كان عمه أبو لهب، ورجال سراة مثله

يعتمدون على ساعد عمه الزبير والشبان الفقراء عندما احتدمت حرب الفجار ضد قريش، منذ سنوات قلائل.

واشترك محمد بنفسه في هذه الحرب التي دارت حول الكعبة، ووقف الى جوار أعمامه، يرد عنهم نبال العدو.. وظفرت قريش، وعاد الزبير والفقراء من فرسان مكة الذين حموها، يبحثون عن الرزق ويشتركون بحظ قليل في القوافل: بدينار أو دينارين، في قوافل يشترك أمثال أبو سفيان وأبو لهب فيها بآلاف الدنانير..

وها هو ذا يضطر الى أن يشتغل أجيراً في هذه القوافل ليعيش، فما كان يملك الدينار أو الدينارين!.

ويخرج الى اليمن مع عمه الزبير في رحلة الشتاء..

وفي هذه الرحلة كان ما يزال هو الفتى الذي جاوز العشرين بقليل، وليس له في القافلة مال، ولا ناقة له فيها ولا جمل.. وانما هو أجير..

ورأى كيف يكسب التجار.. كيف يخسرون الميزان ويغشون في الكيل.

وراعه هذا كله، وتمنى لو قنع واحد منهم بما يمكن أن يكسبه من حسن التبادل، والقدرة على الموازنة بين سعر البيع وسعر الشراء!

وعاد الى مكة من احدى هذه الرحلات مهموماً حزيناً يفكر في الأكذوبة الكبرى التي تقوم عليها الثروة في مكة!. انه ليس ربحاً هذا الذي يحدث ولكنه شر من الربا: العملاء الذين يخرجون بالقوافل يغشون أثناء البيع، ويسرقون من الربح الذي حصلوا عليه بالغش... وهكذا.. كل شيء مختلط.. السادة يقهرون العبيد والأجراء لا يثقون في السادة، ويسرقون الآخرين!

الأمانة عملة لا تعرفها تلك السوق الشائنة.. والحق والعفة والصدق أصوات خافتة يطغى عليها زعيق السماسرة ورنين الذهب، ووسوسة الحمى!

وتمنى محمد لو أنه خرج في القافلة بمال له أو لعمه أبي طالب الذي يرعاه!

ليته يعمل لتاجر أمين يريد أن يربح بلا سرقة، ولا غش، ولا اغتصاب!!

ولكن من عسى أن يستخدمه الآن، والذين كانوا معه في القافلة عادوا يحكون عن انكاره لما تعودوه من نقص الكيل واحتيال في الميزان!

لقد أنكر هذا حقاً وطالبهم بأن يوفوا الكيل وبألا يخسروا الميزان، فما يقبل عليه الآن أحد من قومه ليوظفه في الاتجار بماله!

ومع ذلك، فما زال في مكة رجال ونساء يملكون المال، ويبتغون الربح بالحق.. لقليل ولكن كيف السبيل اليهم!.. أيعرض عليهم نفسه؟

ان اباءه ليمنعه ولو مات جوعاً..!

وها هو ذا مرة أخرى يعيش وحيداً، وفي بيت عمه أبي طالب، لا يملك غير الأمل المبهم في المستقبل، وغير ذكريات حزينة من ماض بعيد تتخايل فيه صور عن أمه التي ماتت وتركته لليتم، وأبيه الذي لم يره، وجده الذي كان يحبه كما لم يحب حفيد جده أبداً، ثم مات وتركه يواجه الحياة، والوحدة والفراغ الرحيب.. وذكريات أخرى عن المبشرين الذين نفوا من الأرض واستشهدوا في التيه وهم يبحثون عن حل انساني للفوضى.

ولا طعام في بيت أبي طالب... وكل من في البيت يعمل ليعيش، والثرى يقهر المحتاج، والمستغني ينهر السائل.. الجياع بلا مأوى، والكل في الضلال!

وانه ليفكر في الحياة والموت والمستقبل والذكريات اذ بعمه أبي طالب يقبل عليه، متحرجاً.. فيقول له:

ـ يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عين قومك قد حضر خروجها الى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك.

وأدرك أن عمه انما يعني خديجة بنت خويلد، التاجرة الغنية التي تستأجر الرجال في مالها والتي اشتهرت بجمالها وبعفتها، حتى لقد أطلق عليها «الطاهرة».

وتمنى محمد لو أنه اتجر في مالها، ولكن اباءه عاوده، فكره أن يذهب هو اليها ليعرض عليها نفسه أو ليسألها، فقال لعمه:

ـ لعلها ترسل الي في ذلك.

ولكن عمه أجابه:

ـ اني أخاف أن تولي غيرك.

ان خديجة بنت خويلد ذات شرف ومال.. هذا حق.. وهي بنت عم ورقة بن نوفل أحد الذين أضناهم البحث عن الحقيقة ثم اهتدى الى المسيحية، ولقد تأثرت ابنة عمه خديجة بما يحمله، فما عرف أنها أقرضت بربا من مصرفها الذي تقرض منه التجار الصغار، وما أباحت لنفسها ربحاً اجتلبته السرقة أو خسران الموازين..

ولقد سمعت هي عن محمد وتمنت لو استأجرته فيتاجر في مالها.

وأرسلت اليه عندما بلغها ما دار بينه وبين عمه أبي طالب.. له الحق أن يكره السعي هو اليها، فالنفس الأبية لا تترخص فتعرض ما عندها!

كانت في الأربعين.. امرأة جليلة شامخة ممتنعة في قمة جمال ذلك السن، وقد مات عنها زوج بعد زوج، وكلاهما تاجر واسع الغنى من سراة مكة.

وأقبل اليها محمد بن عبد الله، فتى جميل الوجه، واضح الملامح، أقنى الأنف عريض الجبهة، ثابت الخطوة، ممشوق القوام، متوسط الطول، مهيباً، يقظ العين، وهو على فقره نظيف الثوب، مرجل الشعر، يفوح منه الطيب وريح الفتوة!.. وعلى وجهه الناطق بالعنفوان، يبدو ذلك الضنى الغامض الذي يجلبه طول التأمل والمعاناة.

واستقبلته خديجة مرحبة، ومدحت فيه ما كانت سمعته عن صدقه وأمانته وحسن سيرته، ثم عرضت عليه أن يخرج في مالها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره.

وخرج محمد بن عبد الله، في رحلة الصيف الى الشام بمال خديجة، وعاد منها بربح طائل فقد أقبل عليه المتعاملون منذ رأوا فيه جديداً.. فهو أمين صادق لا يعمد الى عبث في كيل أو مقياس أو وزن.

وهكذا كسبت خديجة من مالها ذاك ضعف ما كانت تقدر. فأعطته ضعف الأجر الذي اتفقت عليه..

ظل يتردد عليها بقية ذلك العام، وعير مكة تستعد لرحلة الشتاء الى اليمن بقافلة كبيرة، احتشد فيها ثلاثمائة رجل بألف وخمسمائة من الابل.

وعندما أذن في مكة أن رحلة الشتاء تعود من اليمن رابحة، خرجت قريش كلها تستقبلها كما تعودت، بالفرسان والدفوف والراقصات، والنساء على جنبات الطرق. .

أما خديجة فقد وقفت في شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها، اذ لاح محمد من بين الرجال، أحست بقلبها يخفق فجأة؛ ويتفتح له، وأدركت أنها انما كانت تنتظره هو حقاً. . هو بجسده وشبابه ودماثته، محمد نفسه لا الأجير الذي سيسلمها ربحها من التجارة!!

وحدثها عبدها الذي كان يصحبه عن كثير من خصاله التي تحبب فيه الرجال. الرجال!! . . والنساء أيضاً!! . . ليته يخطبها!! . .

ولكن حياءه واباءه وارتفاع سنها عن سنه بشكل ملحوظ، ثم الفرق الشاسع بين غناها وفقره، كل ذلك سيمنعه!!

وأرسلت اليه نفيسة بنت منبه فتلطفت عنده وسألته لماذا لا يتزوج ـ وقد بلغ خمسة وعشرين عاماً ـ وكل فتاة في قريش تتمناه زوجاً، فهو أمين شجاع باسل وصادق وجميل. . واذ اعتذر بقلة المال، اقترحت عليه أن يتزوج امرأة غنية واسعة الثروة وهي الى ذلك ذات شرف ونسب. . وسألها محمد من عساها تقبله زوجاً وهو الأجير الفقير؟. فذكرت له خديجة. .

ولكنه لم يصدق أن خديجة بغناها الواسع يمكن أن تقبل الزواج من شاب فقير مثله. . على أن نفيسة وعدته بأن ترتب هذا الأمر. .

وعادت نفيسة تزف البشرى الى خديجة بنت خويلد، فمحمد بن عبد الله هو أيضاً يود لو تم هذا الزواج، ولكن فقره يقعد به عن أن يتقدم الى خطبتها.

وأرسلت اليه خديجة فعرضت عليه بنفسها أن يتزوجها. . وقالت له: «اني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك».

ومضى محمد بن عبد الله الى أعمامه يذكر لهم ما كان من أمر خديجة، فخرج معه حمزة أحب أعمامه اليه وأقربهم سناً منه، وخرج معه الزبير وأبو طالب وبقية الأعمام، فجاءوا خويلد بن أسد والد خديجة، فخطبوها لمحمد. . وكان خويلد ساعتها يشرب الخمر. . فوافق من فوره وعقدت الخطبة. .

ولكنه أفاق من غده فسأل ابنته خديجة عما حدث بالأمس اذ قالت له إنه عقد خطبتها الى محمد بن عبدالله، ثار وأنكر فمن هو هذا الفقير الذي يرضى به زوجاً لابنته الغنية الجميلة التي رفضت سادة قريش!؟.

ولكن خديجة جادلته وكرهت منه أن ينقض ما أبرم، وقالت له انها تملك من المال ما يكفيها ولا حاجة لها بزوج غني، وهي عندما تختار الرجل الذي تعيش معه، فانها تحب أن تسمع لصوت قلبها، لا لنداء المصرف الذي تمتلكه!!

وعلم محمد بن عبد الله أن خويلد يعترض، ويعتل بأنه انما اتفق على الخطبة وهو سكران!

ما هذه الخمر أيضاً!! كيف يمكن أن تفسد الخمر ارادة الرجال الى هذا الحد؟!

على أن خديجة استطاعت أن تقنع أباها آخر الأمر..

أقيمت وليمة الزواج.. وملأها الزبير مرحاً، ورقصت جواري خديجة، ونحرت الابل على باب الدار ليأكل منها الفقراء.. وأباحته خديجة مالها يصنع به ما يشاء كما يشاء.

وتصدق من مالها على كثيرين في تلك الليلة.

وفي غمرة الفرح، تذكر محمد أمه..

وبحث عن حليمة التي أرضعته فأرسل اليها أربعين رأساً من الضأن، ترعاها في ديار قومها، وتستغني بها الى آخر ما قدر لها من العمر.

أما هو فقد بات وأصبح عند خديجة..

وانتقل تماماً بكل وجدانه وشبابه وحياته وأحلامه وتأملاته.. الى بيت الطاهرة.

٤

غريب أنت يا ولدي في هذا التيه الضاري الذي يتنفس باللعنة والأكذوبة والمنكر! شارد، حزين، لا تنفك تتأمل في السموات والأرض، ووجوه الرجال والنساء والأطفال.

ما تكاد تضحك مستمتعاً بحياتك الجديدة المطمئنة مع المرأة الجميلة النقية الحكيمة التي اختارتك للحياة والموت، حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم، فاذا ابتسامتك الأسرة تفيض على شفتيك واذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوحان في السكون.. وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضيء ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نوراً من الغيب يغشاك، فيبدو وجهك المتورد معذباً، مضنى على الرغم من كل شيء..!

أشاعر أنت يا بني، يأتيك هاجس من الخفاء؟..

ولكنك لم تقل الشعر أبداً، وما يظن أحد أنك ستقول شعراً بعد..!

ما أروعك حالماً، ومتألماً، وحزيناً!

ولكن الحياة تروق لك وتحلو، ففيم كل هذا الحزن!؟

لقد كنت فقيراً تحمل الحجر، وترعى أغنام الآخرين تحت شمس لا ترحم وتضرب في الأرض لحساب غيرك، وتصنع الكثير لتنبش على قوتك. فها أنت ذا اليوم تملك ما يحسدك عليه كل فتيان قريش: عملاً مطمئناً يعطيك أكثر من الحاجة، وزوجة تؤثرك بالحب وترعاك حاضراً وغائباً ولأنت كل دنياها وكبريائها ورونق حياتها.. وهي في النهاية تعصم شبابك وتغنيه وتحفظ سمعتك.

وانها لتمنحك من حنان الأمومة ما افتقدته منذ الطفولة وتعطيك من متاع الحياة ما يروي ظمأ الفتوة فيك وتهدي اليك ما يرضي زهو الأبوة منك.

هي عوض عن أحزان الطفولة، وشبع وري لحاجات الرجولة.

ها أنت ذا بعد طول الطواف تحت الشمس تنعم ببيت يملأه الخير والولد يا أبا القاسم، فراشك فيه عامر بالطاهرة، ما يهجس في قلبها غير ارضائك.

فمن أي أعماقك إذاً ينبع هذا القلق الغامض الذي يفيض على وجهك بالشحوب في كثير من الأحايين؟

لقد زادت ثروة خديجة على يديك، واتسع رزقك على يديها.. وأصبحت أباً لبنات وأولاد، وغدوت تسلك في الشراء والبيع كما تريد... لا نقص في الكيل ولا خسران في الميزان، وانما هو الصدق والأمانة حتى لقد سماك قومك «الأمين».. واقتدى بك منهم نفر غير قليل.

ولكن الحياة ليست هي البيت الذي يعيش فيه الرجل. ليست هي - فحسب - الزوجة المحبة الصالحة الحسناء، ولا الأولاد الذين يملأون القلب بالرضا..!

ان الأمن ليعمر البيت، هذا حق، ولكن الحياة من خارج بابه، تضطرم بما يمزق القلب المطمئن!

وبعد أعوام طويلة من الزواج، أصبح لك ركن هادىء تعمره مسرات الحياة. زوجة جميلة طيبة حانية، وأبناء صغار تطيب النفس لمرآهم.. ولكن عالمك العريض الذي تعيش فيه، لا هدوء فيه بعد، ولا شيء منه تطيب له النفس.. أي تناقض ممزق بين بيتك والعالم!

ولكن حياتك في بيتك تمنحك القوة على مواجهة هذا العالم الذي تعشش فيه الأكذوبة وتنمو، وتفرخ.. وكلما مر عام على زواجك رسخت فى قلبك مكانة خديجة.. لقد واجهتما الزيف والخديعة معاً، وقاومتما معاً، وربحتما الصدق معاً.. فقدتما معاً بعض الولد.. اختلط منكما العرق والدمع معاً.. بكت هي على كتفك، عندما مات ابنكما القاسم، لم تستكبر أنت فبكيت على كتفها.. ومسحت دموعك يا محمد.. ومنحتك أولاداً آخرين.

والسادة في قريش يحتقرون الذكاء والعمل، ولكنها ترعى ذكاءك وعملك، وتتنزه بك على دنس الحياة الآثمة من البطالة واللهو والمغامرة والغزل.

وأنت الآن لا تريد أن تشق عليها يا أبا القاسم بما يضنيك بعد أن فقدتما ولدكما القاسم. لتدع السيدة الجليلة في ثكلها.. فما أثقل حملها!
وما أثقل حملك أنت يا ولدي!..
ماذا تريد بعد؟..
تحدث مع صديقك أبي بكر.

وأبو بكر بن أبي قحافة، هو الوحيد بين فتيان قريش، من يخلص لك الود فتستطيع أن تفتح له قلبك.. وهو مثلك يا بن عبد الله يعنيه البحث عن الخلاص.. وانه ليرى في أصنام الكعبة أحجاراً لا تضر ولا تنفع، ولقد حدثك هو عنها، ورأيت أنه لا يسجد لها، وهو ما زال يردد بين فتيان مثله من الذين لم تعد تقنعهم هذه الأصنام، قصة أول لقاء له معها: أخذه أبوه وهو صغير فقال له: «هذه آلهتك الشم العوالي»، ثم تركه وانصرف، فلما خلا الصغير أبو بكر الى آلهته، تقدم من أحد الأصنام فقال له: «اني جائع فأطعمني» فلم يجبه الصنم فقال الصغير للصنم: «اني عار فاكسني» واذ لم يجبه الصنم، ألقى الصغير عليه صخرة، فخر الصنم على وجهه.. ومنذ رأى الصغير أحد الآلهة يخر على الأرض، رفض هو أن يخر ساجداً لمثل هذا الاله الأصم الضعيف الذي تسقطه دفعة من يد طفل!..

ولكن أبا بكر لم يعد صغيراً ولا جائعاً، ولا عارياً، فهو الآن يا محمد قد جاوز الثلاثين مثلك، وقد خرج معك في كل رحلاتك يتاجر بماله، وقد أصبح الآن على حداثة سنه أحد سراة مكة. ما برح يتاجر بماله ويقتدي بك في البيع والشراء، فهو أيضاً لا ينقص كيلا ولا يخسر الميزان، ولا يحتال بالكذب. ولقد طالما سخطتما معاً على ما يصنعه سادة قريش، وتمنيتما معاً لو أن العالم ساده العدل فلم يفتك كبير بفقير، ولم يهن المدين على الدائن، ولم يخن الرجل عهده ولم يبطش الأقوياء بالمستضعفين!.. لو أن للمرأة عند الرجل مكانة أخرى غير مكانة الشيء الذي يستمتع به!.

أدركتما كل شيء معاً، وضقتما معاً بأسلوب الحياة في مكة، ومضيت أنت تتأمل،

ولكن أبا بكر مضى يقرأ فيما انتهى اليه من كتب الأولين! . ما أسعده فقد أتاحت له الحياة أن يتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر، على عكسك أنت. . وما زال أبو بكر يقرأ ويحفظ كل ما ينتهي اليه، ويحول رحلاته التجارية الى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة. . . وانك لفخور به!

لقد أدركتما معاً أن حياة قريش وطرق التعامل فيها، هي التي تسمح بوجود الأصنام في الكعبة، فسادة قريش الذين فرضوا عليها هذا الأسلوب الجائر من الحياة، هم الذين يحمون أصنام الكعبة!. . وانها لتبارك هذه الأوضاع ولن تسمح بغيرها. . وهي بعد تجلب آلاف العرب من كل مكان ليحجوا اليها وليدفعوا لسادة قريش، وليعمروا مواسم الحج بالمبادلات التجارية، فيثرى السادة عاماً بعد عام! .

ومع كل هذا فان من قريش نفسها لتتصاعد نداءات ضد علاقات الأثرياء بغيرهم وضد الأصنام التي تحمي هذه الأوضاع . .

لقد أصبحت ثروة مكة في يد عشرات قليلة بينما عشرات الآلاف. . يعانون! وأصنام الكعبة راضية عن هذا كله!

ان دوران الحياة في مكة واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة، وألقى بمعظم السكان بين أظفار الحرمان والخوف، حتى لقد سئمت القلوب مما تعاني وأدرك الناس أن هذا كله باطل!

لم تعد أصنام الكعبة قادرة على أن تملأ وجدان الناس وتشبع حياتهم الروحية، ولم يعد أسلوب العلاقات القائمة بين الدائن والمدين أو بين من يملك ومن لا يملك، ولا بين الغني والفقير. . ولم يعد أسلوب العلاقات هذا صالحاً للزمن بعد. . فقد أدرك الذين لا يملكون من أهل مكة أن ما يعيشون فيه لهو الظلم، وأن الآلهة العديدة التي تحمي هذا الظلم، ويسمح قيامها بأن يزدادوا فقراً ويزداد الأغنياء ثراء، انما هي آلهة ظالمة. . وهي باطل أيضاً. . !

الفقراء والمستضعفون يشعرون في أعماقهم بأنهم في حاجة الى أسلوب ينظم علاقة الناس ببعضهم؛ وفي حاجة الى قيم روحية جديدة تعكس تطور هذا المجتمع الذي يشكلونه، فلو أنهم لم يعلموا لما غني السادة، ومع ذلك فقد كتب عليهم الحرمان

والهوان كما تكتب اللعنة. لا بد من شيء جديد يقيم الموازين والحساب!

ولكن سادة قريش لن يسمحوا بهذا.. وان الرجل منهم ليتخلى عما يجب أن يعرف عنه من فضائل، ليقاوم أي احتجاج، وليطمس أي شعاع يبرز في ذلك الحائط المنصوب من الظلمات!

لقد تخلى الخطاب بن نفيل عما أحب أن يعرف عنه من حماية الجار والقبيلة ونبذ ابن أخيه زيد بن عمرو بن نفيل.. لأن زيداً هاجم القيم الروحية التي يتمسك بها سادة قريش، هاجم الأصنام، والوثنية وتعدد الألهة وأسلوب العلاقات بين الناس في مكة، وطالب بالعدل، وبقيم روحية جديدة تشبع الحاجات الواقعية لتطور مجتمع مكة..

وهكذا ألقي زيد في التيه، ليموت وحيداً غريباً، ضائعاً، بعد أن عذبه السفهاء.

لكم بكيت عليه يا محمد.. وبكى عليه ورقة بن نوفل قريب زوجتك الطاهرة خديجة وراعيها ولكم بكاه معك صديقك أبو بكر التاجر الغني الذي رق قلبه وصفا، وزادته الثقافة صفاء ورقة!

وأمية بن أبي الصلت هو الآخر، ينبذ الأصنام ومظالم قومه، ويعلن أن آلهة الكعبة لم تعد تملأ الفراغ الذي تستشعره روحه.. ولكنه لكي يعيش يعود فيمدح أغنياء قومه ثقيف بالطائف، وأغنياء قريش في مكة.. نفس الأغنياء الذين أطلق ضدهم في شعره صرخات احتجاج صادقة.

وآخرون.. وآخرون.. ومن قبلهم نادى «خالد بن سنان» قومه بأن يتركوا الحياة الدنسة، وأن يتعاونوا فيما بينهم وألا يضصهدوا الضعفاء والمحتاجين وبشرهم بملكوت السماء لو أنهم هجروا أصنامهم وعبدوا الهاً واحداً له ما في السماء وما في الأرض.. ولكن قومه أضاعوه!.

سخروا منه أول الأمر ثم وجدوا من يستجيب له، فعذبوه حتى الموت وسألوه أن يستعين بهذا الاله الواحد الذي يدعو اليه ليخلصه منهم!

وهكذا أغمض خالد بن سنان عينيه الداميتين على حلم بعالم أفضل يسوده العدل، والقيم الروحية المرتجاة!

ان كبار المرابين والتجار وهم كل حكومة مكة لينطلقوا كالسمكات المتوحشة تبتلع الصغار، وتنهش منهم اللحم الحي، ويغريها الدم بمزيد من الدماء!

غير أن هؤلاء المبشرين العظام جميعاً كانوا يحاولون ترقيع ثوب مهلهل لا جدوى منه.. كانوا يحاولون ترميم بناء يتداعى.. بناء لا بد أن يهدم كله ليبنى من جديد.. كانوا يحاولون اصلاح قومهم، وقومهم في حاجة الى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أساليب جديدة وعلاقات جديدة، وقيما أخرى.. يجب أن يخلى بين الانسان وما بين ما يعبد! يجب ألا يكون لبشر سلطان روحي على الآخرين. ويجب أن تزول الأصنام بمن يخدمونها وبمن يتسلطون باسمها على مصائر غيرهم!

ليس للانسان أن يستشفع بأحد.. فالكائن وعمله. وما ينبغي أن يتنازل الرجل عن عمله لأحد يدبر عنه أمره.. فلكل انسان قلب يفقه به وعين تبصر واذن تسمع وعقل يتدبر.. يجب أن تصان نفس الانسان من الهوان وأن يصان بدنه من الأذى.. يجب أن يحترم الانسان عهده وحق أخيه الانسان.. لكل انسان الحق في أن يعيش حراً..

ومن أجل ذلك يرفض محمد بن عبد الله أن يكون له عبيد ويغري زوجته أن تعامل جواريها كما لو كن حرائر، ويحملها على أن تسمي من تملكهم بالفتيان والفتيات بدلاً من الجواري أو العبيد أو الخدم..

واذ تشتري خديجة غلاماً صغيراً اسمه زيد بن حارثة يدفع لها محمد ثمنه.. ويحرره ويتبناه ويقيم عنده كأنما هو أحد ولده، حتى ليأبى زيد بن حارثة أن يعود إلى أهله، عندما يجده أبوه الحقيقي، ويخيره في العودة الى أهله أو البقاء مع متبنيه فيختار متبنيه..

لا بد إذاً من خلق مجتمع يسوده الوفاء، وينبذ فيه الغادر.. مجتمع تحكمه الأمانة ورعاية حق كل الناس على السواء بلا تفريق: السود والبيض، السادة والعبيد، الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء..

يجب أن يصان هذا المجتمع الجديد فيفضح السارق ويعاقب ويجزي من خان الأمانة بما أثم، ويقتل من قتل، مهما يختلف حظ القاتل والمقتول من الغنى والفقر.. والجروح قصاص.

يجب أن تصان الأسرة فيعاقب من يزني وتصان كرامة المرأة التي هي أم وزوجة وشريكة حياة وفلذة كبد، فلا تعطى للرجل ليستمتع بها لبعض الوقت ثم ينبذها ولا تمنح لعدة رجال في وقت واحد؟.. يجب أن يحترم كبرياؤها فلا تتزوج الا من ترضاه، وأن تقيم معه شريكة له نفساً انسانية كريمة، تعاونه، لا محظية يستمتع بها.. يجب أن تنكس هذه الرايات التي ينصبها بعض النساء على بيوتهن ليستقبلن الرجال فاذا حملت احداهن ألحقت ولدها بمن يشبه!

كل هذا شائن وزري ومهين.. ويجب أن ينبو عنه المجتمع كل هذا لا ينفع فيه ترميم أو اصلاح وانما يجب أن يهدم كله دفعة واحدة، ليبنى من جديد.

لا بد من ثورة جائحة تجتث الربا، والهوان، والزراية، والبغاء، وصلف المتكبرين والمتسلطين.. ثورة تقيم العدالة، وتحرر الانسان من السيطرة والخوف وتحرر العقول والقلوب من الاذعان لأصنام الكعبة ولقوى الخفاء، وتضع أساساً للتعامل بين الرجل والمرأة؛ بين الانسان والانسان.

ولكن كيف السبيل؟

لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبي بكر، قحافة، في هذا كله، ولقد رحلا معاً، وعانيا معاً وشاهدا الرهبان والكهان في بلاد بعيدة، وسمعا معا من الأخبار.. واعتزلا الأصنام معاً، وسلكا بالعدل والصدق والامانة، وبكيا معاً على ما لاقاه المبشرون الأوائل.. ونأيا عن الرجال والنساء يطوفون عراة حول الكعبة ويلتصقون ببعضهم في البيت الحرام.. وحلما طويلاً بالخلاص.

ولقوافل تمضي من مكة الى بلاد الروم واليمن.. وفي أسواق مكة يجتمع تجار من مصر والهند والشام وأواسط آسيا.. وتسري في الأسواق حكايات كثيرة غريبة.. فتجار مصر يحكون عن أستاذة في الاسكندرية كانت تعلم في جامعتها الحكمة وتدعو الناس الى أن يفكروا بعقولهم.

فالتف حولها الطلاب مكبرين دعوتها وسيرتها، وهي اذ ذاك في الخامسة والأربعين جميلة أنيقة وحيدة.. ولكن الكهنة والقساوسة الذين يثرون من سلطانهم على القلوب، ادركوا أن هذه الأستاذة الجميلة تريد أن تحطم سلطانهم وتسخر من وساطتهم لتحرمهم

. مصدر غناهم فلن يبقى لهم جاه ولا مال ان انطلقت العقول تفكر وتحدد خطوات الرجال والنساء.

وحاول الكهنة أن يشوهوها وان يؤذوها في شرفها فلم يستطيعوا فقد كانت على جمالها الباهر، عفيفة جداً، في مجتمع تندر العفة فيه، يقظة لكل دسيسة.. ففشلوا في الكيد لها.

واذ لم يستطيعوا عليها سبيلاً اقتحموا دارها فقتلوها.

هكذا يخمد صوت العقل في مصر التي تدين باله واحد، وتؤمن بالمسيح وتحمل تراث مبشر قديم نادى بالتوحيد واقام لالهه الواحد مدينة أسماها أخناتون!

وفي بلاد أخرى كان من يحمل في رأسه أفكاراً يحكم عليه بالعذاب أو بالضياع في الصحراء.

ومن بلاد الروم يروي القادمون عن ظهور مبشرين قد عثروا على دعوة عندهم فأحيوها، وكانت الدعوة تقول ان العالم واحد متحد، وهو قديم أزلي لم يخلقه انسان ولا اله من الألهة، وقد كان هذا العالم وسيظل الى الأبد شعلة حية تتقد وتنطفىء حسب قانون معين. وأن على العقل أن يكتشف هذا القانون.

وفي بلاد الفرس يلقى الى النار من يدعو الى اله غير النار.

وهنا في الكعبة يحكم بالموت أو بالتيه أو بالهوان على من يقاوم سلطان المستفيدين من أصنام الكعبة.. والذين يملكون هذا الفضاء عشرة أو عشرون من كبار المرابين في قريش. وما بينهم واحد لا يعيش في الخطيئة.. وهم يقضون في مصائر عشرات الألاف من الرجال والنساء والأطفال.

ما جدوى الاصلاح في مثل هذا العالم إذاً. لا بد من طفرة.. ثورة عارمة تبنيه من جديد وقد تهيأت لها الآن قلوب الجميع.. الا الذين يفيدون من فساد الأوضاع، وهم قليل.

ومحمد اذ ذاك في قومه رجل حسن السمعة، لم يعرف عنه أحد من سوء.. أمين صادق حتى لو انه صرخ في الناس أن خيلاً قادمة وهم لا يرون شيئاً، لكذبوا أعينهم وصدقوه!

وهو بعد يقف الى جوار المظلوم، فقد استنهض عمه الزبير بن عبد المطلب ليجير تاجراً غريباً كان أحد سراة مكة قد حبس عنه حقه ووقف التاجر المظلوم يصرخ حول الكعبة:

يـا آل فـهـر لـمـظلوم بـضـاعـتـه ببـطن مكـة نـائي الـدار والـنـفـر

وردت الى التاجر حقوقه.

واستطاع أن يجعل بعض الأسر من قريش تتعاهد بقيادة بني هاشم ألا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها أو من الغرباء الا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتى يرد اليه حقه..

ومحمد بن عبد الله - الى هذا كله - حكيم.. استطاع أن ينقذ الناس من الفتنة حين أوشكت أن تضطرم فقد رأت قريش أن تبني الكعبة بعد أن اندلعت فيها النار، وكانت قد ظلت تحفر حتى وجدت حجراً قديماً كتب عليه بلغة لا يعرفونها، فدفعوه الى من طاف بلاد الأرض وعلم علم اللغات فقرأ: «من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة، تعملون السيئات، وتجزون الحسنات!.. أجل.. كما لا يجنى من الشوك العنب».

فنصحهم محمد أن يعتبروا بما كتب على هذا الحجر، فقد حمل اليهم تجربة أجيال من قبلهم، فليذكروها وليتعظوا بها، ان كانوا يعقلون!.

ثم ان قريشاً بلغوا في البناء موضع الحجر الأسود.. فاختصموا فيه أي من أهلها يرفعه الى موضعه.. وأوشكت القبائل من قريش أن تحارب بعضها بعضاً واذ بأكبرهم سناً يقول: «اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل».

وكان أول من دخل هو أبو القاسم محمد بن عبد الله. فلما رأوه قالوا جميعاً «رضينا.. هذا الأمين.. هذا محمد». وأخبروه بما كان من خلافهم فقال لهم: «هلم الي ثوبا» وجاءوا بالثوب فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ثم قال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب».

وهكذا انقض الخصام.. وارتضى الكبار الأثرياء، ما رآه لهم الشاب الفقير..

ان قومه ليكبرون حكمه وينزلون عند رأيه، يعتزون بصدقه وأمانته، على الرغم من

كل ما هم فيه.. ليتهم اذن يطعمون الجائع وينصفون الضعيف ولا يظلمون أحداً.. ليتهم يحتفظون بمخادعهم مطهرة، ويعطون السائل، ولا يقهرون اليتامى، ولا يأكلون أموال الفقراء والمحتاجين.. ليتهم يعون ما حفظه لهم الحجر: ان الانسان لا يجني من الشوك العنب!

لكم تثقل الحياة عليه الآن.. لكم يشعر بكل شيء يفقد بهجته ورونقه كأنما ينتظر ماء حياة جديدة تدب فيه.

لقد روى له صديقه أبو بكر ما شهده قديماً من لقاء أمية بن أبي الصلت مع زيد بن عمرو بن نفيل.. كان ذلك بفناء الكعبة، وزيد بن عمرو اذ ذاك ما زال يتأمل قبل أن يجابه قومه بترك ما هم فيه، وجاءه أمية فقال له: «كيف أصبحت يا باغي الخير؟» فرد عليه زيد: «بخير»، فقال أمية: «هل وجدت؟» فقال زيد: «لا وآل من طلب، ان هذا الذي ينتظر هو منا أو منكم أو من أهل فلسطين».

ان الحياة والظروف كلها لتتهيأ الآن لاستقبال منقذ آخر..

المبشرون الأوائل كلهم يطلقون صرخاتهم المحتجة ولكنهم في أعماقهم كانوا يؤمنون بأن رجلاً آخر يجب أن يقول الكلمة الحاسمة التي تضيء بها الظلمات ويتغير وجه الأرض.. لم يقدم واحد منهم للبسطاء ما يؤمنون به ويتحركون تحت رايته.. كانوا كلهم يبحثون في طيبة ولهفة لا تنتهي عن الحل، ولكن أحداً منهم لم يقدم الحل الذي يعتنقه المعذبون، فيفرضونه!

وعلى الرغم من كل شيء، فما زال صوت الظلم هو الذي يرتفع، وقيم الحاكمين هي السائدة.. ما زال الرجل يمتهن، والمرأة تبتذل والأسرة مفككة.. ما زال الرجل يرث عن أبيه الزوجة، والمرأة تباح لعدة رجال، ولا حرمة لشيء بعد.. الانسان يستعبد ويعامل كالفريسة!.. القوة العضلية هي الشريعة، أما العقل فلا حاجة لأحد به.!

وماذا بعد..

وها أنت ذا يا ولدي حزين غريب في هذا التيه يتنفس بالأكذوبة واللعنة والهوان والمنكر.

وانك يا أبا القاسم لتعتزل هذا كله وتترك أهلك لتخلص الى نفسك في «حراء»

كما فعل قبلك مخلصون، غلوا واضطرموا لبعض الوقت ثم لم يعد أحد يسمع عنهم بعد ذلك شيئاً.

ما سكوتك على كل هـذه إلضلالات، ومـا اعتزالـك طول شهـر رمضان. قـل كلمتك.. لقد عودك قومك أن يحترموها.

ذهبت عنك حدة الشباب.. فقم فبشر.. قم فواجه أعداء الانـسان.. قم، فأنذر!

٥

لم تكن الجزيرة وحدها هي التي تعنيه، فقد طاف بالشمال والجنوب وعرف كثيراً عما يحدث في بلاد الفرس والروم.. وفكر في هذا كله.. ففي كل مكان يهدر الانسان ويسيطر الغيظ أحياناً، حتى لتمتد يد المرأة الحنون الى قلب خصمها بعد أن يقتل، فتأكل منه القلب الحي.. وتلعق الدم!.

وما زال الملاك الكبار في بلاد الروم يصنعون بالرجال والنساء ما يصنعه المرابون التجار الكبار في مكة، والرؤساء والدهاقين في بلاد الفرس..

وهنا وهناك يقضى على الانسان ما يقضى باسم قوى الخفاء التي لا تقاوم ولا ترد وهي قوى لا تشبع من دم الضعفاء، وتقتات بالهوان..

وهي في مكة تتخذ اسم الأصنام وفي بلاد الفرس تتخذ اسم الآلهة وفي بلاد الروم تتخذ اسم الأحبار ورجال الكهنوت.

لقد هان كل شيء حتى لقد وثبت امرأة من أرصفة القسطنطينية الى الملك.

ونقلت صناعاتها من الحانات، الى عرش الامبراطورية الرومانية، وكانت مولعة بالشذوذ فراق لها أن تمارس علاقاتها وهي بالتاج الامبراطوري، وحولت الكنائس الى أوكار للمؤامرات والمذابح، وأشاعت في كل مكان جواً من الفوضى والظلمات والانحلال.. فكان الصناع الفقراء يؤمرون بتحويل فنونهم الى ما يشبع شذوذها ونهمها فان رفضوا أو ترددوا قتلوا بالمئات.. وكانت مزارع الفلاحين مباحة للنهب بأمرها.. وتحولت الامبراطورية الشامخة الى سوق واسع للرقيق الأبيض.. يحكمه النخاسون.. وتحول كل ما هو مقدس، الى مخدع..!

وفي بلاد الفرس ظهرت مذاهب أخرى غريبة، وتجردت الأساطير الدينية من روحها القديمة، وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوماً بعد يوم منذ أصبح الكهان هم ملاك الأرض والتجارة. فقد استهواهم المتاع الحسي، حتى لقد ظهرت عبادة جسد المرأة. . وأصبح جسد المرأة الهاً يتقرب منه الكهان، ويستنفدون طاقتهم البدنية تفانياً في عبادته. . وامتلأت الأناشيد المقدسة بالألفاظ الفاضحة التي تتغزل في بدن المرأة العارية وتصفه بكل تفاصيله بلا حياء. . وأصبح من حسن حظ الفتاة قبل أن تزف إلى زوجها أن يقع عليها اختيار كبار الكهنة، لتقيم عندهم أسبوعاً كاملاً، يتعبدونها بالتبادل وليجتلبوا لها البركات. . وهم عراة مخمورون.

وحتى القيم الروحية القديمة في المسيحية واليهودية، لم تعد على حالها بعد. . فقد تحولت الى عبادة لصور القديسين والشهداء. . وتحولت سلطة الرب الى القساوسة والكهان. . هم وحدهم الذين يفتحون أبواب الجنة وأبواب النار.

وهكذا تحول الاعتراف الذي يكفر به الخاطئون والخاطئات عن الذنوب الى طريقة لابتزاز المال تحت ضغط التهديد باذاعة سر الاعتراف. . وكان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لابتزاز المال أو لاجتناء المتاع. .

الفساد يشيع في العالم كله لا في مكة وحدها. . ومحمد بن عبد الله، يعلم هذا من زملائه وأسفاره العديدة. . ومما روى أصدقاؤه الذين يرحلون.

ولقد تعود عندما يأتي شهر رمضان من كل عام أن يعتزل الناس الى خارج مكة. .

وكان محمد يترك زوجته الحانية خديجة أياماً طوالاً من هذا الشهر. . ويظل يتأمل كما تعود الباحثون عن الحقيقة من قبله. . بعيداً عن صخب مكة ولهوها واصطكاك المصالح الفاسدة فيها. . ولقد بات في حراء بعض ليالي شهر رمضان.

واذا يغيب عن خديجة أكثر مما تحمل ز جة محبة فقد تعودت أن ترسل اليه من يبلغه شوق أهله. . فيعود. . وكانت في بعض الأحايين تخرج معه، ويضرب لها خباء على مقربة من مكان نسكه بدلاً من أن تكبده مشقة العودة إلى بيتها في مكة.

ولقد أصبح محمد الآن في الأربعين وهي السن التي تعترف فيها قريش لفتيانها بأنهم لم يعودوا صغاراً بعد، فمن حق الواحد منهم أن يكون عضواً في حكومة قريش. .

اذا كان على حال من الغنى تسمح له بهذا الشرف.. ولكن ظروف الحياة في قريش لم تتح لمحمد أن يكون عضواً في هذه الحكومة أبداً... فقد كان في قريش عشرة بطون يمثل كل بطن منهم في حكومة مكة رجل واحد.. وكان رهط محمد هم بنو هاشم وقد مثلهم في الندوة من قبل جده عبد المطلب، ويمثلهم اليوم عمه العباس بن عبد المطلب وهو من أيسر تجار قريش على أن محمداً كان يملك في هذه الحكومة أعز أصدقائه عليه، وهو أبو بكر بن أبي قحافة، وكان مختصاً بالقضاء في الدية والغرامات.. وهو أيضاً تاجر غني.

وكان محمد يعجب من رجال الحكومة بعمر بن الخطاب، وكان اليه أمر السفارة.. فهو الذي ينطق باسم قريش في علاقاتها الخارجية مع المدن والقبائل الأخرى..

وكان محمد يقيم اذ ذاك مع خديجة وولده منها، ميسور الحال، ولكنه دائماً قلق مضنى تغشاه بعد تأملاته الطويلة أحلام كثيرة.

كان ما زال يبحث عن حل كامل حاسم للفوضى التي يعيش فيها العالم كله.. لا مكة وحدها..

لكنه لم يكن مأخوذاً بهذه التأملات ولا الأحلام فهو يحيا حياة الناس اذا انقضى شهر نسكه.. ينهض كل صباح ليحلب عنزته بيده ويرفض أن يدع أحداً من خدم خديجة يساعده.. كان يؤثر أن يحيا كالبسطاء.. كما كان قبل أن يصيب الغنى من تجارته لخديجة. وهو ينزل الى السوق بنفسه ليشتري ما عسى أن يحتاجوا اليه من طعام..

وكان في طريقه الى السوق يمر بصبيان يلعبون في الطريق فيبتسم لهم ويتحدث اليهم على عكس ما تعود الكبار في مثل سنه.. وكان أحياناً يصطحب معه ابن عمه علي بن أبي طالب.. وكان محمد قد أخذ علياً يربيه بين ولده تخفيفاً عن عمه أبي طالب، وعرفاناً للجميل.. فقد تحدث الى عمه العباس ذات يوم: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الأزمة فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه وتأخذ أنت..» وانطلقا حتى أتيا أبا طالب فحدثاه في الأمر. وعاد محمد بعلي، وعاد العباس بجعفر..

وأقام معه علي منذ ذلك اليوم، وهو الآن في الثامنة، يخلص أحياناً الى الغلمان

في مثل سنه ليلعب في طرقات مكة فيحدثهم عن ابن عمه محمد الذي يبتسم لهم من دون الرجال، وعن زوجته الطاهرة ان محمداً هذا يكره العبيد والجواري. وفي بيته ألغيت كلمتا «العبد والجارية» وأحل مكانهما «فتاي، فتاتي».. وهو يصبر على الخدم، فما يقول لأحد منهم «أف» مهما يخطىء.. وعلى الرغم من أن زوجته الطاهرة تحنو عليهم وتهش لهم، فما زال بها يوصيها الليل والنهار أن تطعمهم مما يطعم أهل البيت، وتكسوهم من نفس لباس أهل البيت، وألا تشق على هؤلاء الخدم بعمل وأن تساعدهم، ولا تكلفهم ما لا طاقة لهم به..

وكان هذا الذي يحكيه علي عن ابن عمه محمد يملأ قلوب الغلمان بالحيرة.. فهم يعرفون ما يمتلىء به بدنه من قوة وما في قلبه من الشجاعة.. وهو مع ذلك يملك كل هذه الرقة مع الخدم وكل هذا اللطف معهم هم الصغار!.. انهم يعرفون شجعاناً آخرين من قريش ولكنهم يمرون بالغلمان فيمسك الغلمان عن الحديث خوفاً منهم.. عمر بن الخطاب.. حمزة بن عبد المطلب.. عمرو بن هشام، ولكن أبا القاسم هذا هو أكثرهم شجاعة وأعظمهم فتوة وهو مع ذلك أكثرهم رقة..

والصغار والكبار، ما زالوا يذكرون اقدامه الجسور على فحل من الابل كان قد جمح وتوحش وأصبح كالكواسر الضارية، حتى لقد فر الشجعان من أمامه.. على أن محمداً اقتحم عليه وجذبه بكل قوته فأخضعه وكبح جماحه..

لم تكن قريش قد تعودت من قبل مثل هذا الاقدام في مواجهة الخطر من أجل الآخرين.. لم تكن قد عرفت بعد شجاعاً ـ قبل محمد بن عبد الله ـ يواجه بمثل هذا الهدوء والاستبسال، قوى صماء شرسة تخلع القلوب من الرعب!.

وهكذا كان الصغار والكبار يحبونه ويعجبون به، الكبار والصغار.. الرجال والنساء..

ان سيرته بينهم تعكس أفكاره وتأملاته.

لم يصنع شيئاً أنكره.. لم يصخب مرة في سوق، لأنه كان ينكر الصخب.. لم يكن يسمح لنفسه بأن يبيت شبعاناً وله جار جائع.. لم يبتدر انساناً باساءة.. وهو يكره الكذب والزيف، فلا يسكت على أكذوبة، ولا يزيف أبداً ليكسب.. يفضل ألا يبيع على

أن يكسب بالتلاعب.. يقول الحق ولو آذاه... الوعد عنده مقدس.. ولأنه لم يكن يرتكب ما ينفر منه، ولأن خطواته في الحياة كانت تعكس تأملاته عن الخلاص وعن عالم أفضل، فقد أحبه حتى الذين غرقوا في الدنس الى الاذقان.. أحبه التجار والمرابون واحترموه على الرغم من أن أمانته وعدله ورقته كانت تشكل احتجاجاً صارخاً على أساليبهم.

ولم يحفل أحد بخروجه كلما جاء رمضان ليتعبد في حراء.. لقد كان بعض الفتيان والشيوخ يصنع هذا أيضاً.. يرفض الخمر، وينبذ دور اللهو، ويكتفي بالزواج، ولا يعبث بالكيل أو الميزان، ويتجنب الطواف بالكعبة عارياً وسط رجال ونساء عراة، حتى اذا جاء شهر رمضان خرج هذا الفتى أو ذاك الشيخ ليعتزل صخب الحياة على جبل حراء، غير بعيد من مكة..

ولكنه عاد من حراء ذات ليلة من رمضان، شاحباً، يرتعد.. وكان قد أطال الغياب في حراء حتى قلقت عليه خديجة فأرسلت اليه تتعجل عودته.. وكانت في خبائها تنتظره، وحسبته عاد الى مكة فبعثت من يبحث عنه هناك.

واذ وافى خديجة، راعها شحوبه والعرق الذي يتصبب منه والرعدة التي أخذته..

كان عائداً من حراء.. لم يبرحه الى مكة.. ولكنه كان نائماً في الغار وخلال نومه حدث شيء هائل.. غريب..

وخشيت عليه من طول التأمل في غار حراء.

وقال لها: يا خديجة لقد خشيت أن أكون كاهناً، أو يكون بي جن..

فقالت له: «كلا يا أبا القاسم.. لا تقل مثل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً.. انك تصدق الحديث ولا تجزي السيئة بالسيئة، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وان خلقك لكريم، ولست بصاخب في الأسواق».

انه لا يعرف بعد!!

انه لم يسيء الى أحد قط، ولم يؤذ أحداً في ماله ولا في نفسه وانه ليطعم المسكين وابن السبيل. وما امتهن جسده مع خليلة، وما أباح عقله للسكر.. وكم من رجال غيره اعتزلوا في حراء فلم يحدث لهم هذا الذي حدث له..

لقد كان يشعر في السنوات الأخيرة كلما خرج الى حراء، أن ما حوله من صخر وسماء ورمال وصمت كأنما يغيب في لغز رهيب. . ولقد حدث صاحبه أبا بكر بهذا فما أفاده. . وحدث زوجته خديجة فما انتفع بما قالته. . ولكنه في هذا العام قد هجر تجارته، ولم يعد شيء أحب اليه من أن يخلو وحده. . وظل يحلم وهو نائم. . يحلم بأشياء رهيبة حقاً. . كأن أصنام الكعبة تسقط ودولة الطغيان تتقوض بكل دعارتها وترفها المستبد من أقصى بلاد الروم والفرس. . وكأن الناس قد تحولوا الى بشر آخرين، لا يرفع أحدهم السيف في وجه أخيه، ولا تمتد يد العدوان على أحد. . كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعاً لا حصر لها من رجال شرفاء ونساء فاضلات، وأطفال سعداء يحلمون بالمستقبل. . لم يعد الانسان مهدراً ممزقاً. . لقد تغير هذا الجبل الذي يشرع ضروسه وأسنانه لأكل المساكين والفقراء. . تغير تماماً. . وتخلت الذلة عن وجوه المساكين والضعفاء!

لقد طالما حلم وهو نائم. . أنه يعيش في عالم أفضل. . يبتدر فيه الرجل أخاه بالاساءة، فيعفو من أسيء اليه، واذا بالرجلين يتعانقان. تخفي المرأة زينتها فلا تبيحها الا لزوجها صاحب الحق فيها. . يعين الانسان أخاه المحتاج ويرفض أن يتقاضى ربحاً عن قرضه. . عالم آخر تماماً ملأ أحلامه أثناء النوم، عالم انطلق فيه العبيد بشراً آخرين ينشدون للحياة، ويتولون مناصب ـ كالسادة ـ في حكومة مكة وبلاد الروم والفرس. . فهم ليسوا عبيداً بعد. . وانما هم بشر أفضلهم بين الناس هو أحسنهم سيرة.

ولكنه في تلك الليلة من رمضان، أغفى قليلاً، فنام. . فرأى من يعرض عليه كتاباً ويطلب منه أن يقرأ. . فقال له «ما أنا بقارىء». . ولكنه ألح عليه أن يقرأ، فسأله «ماذا أقرأ» فقال له: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. . خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم». . وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه في النوم. . ولهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتاً من بعيد يقول له: «يا محمد. . أنت رسول الله وأنا جبريل».

ما كل هذا. . .؟!

انه ليخشى أن يكون كاهناً أو يكون به مس من جن. . من يصدقه. .

ماذا يريد جبريل هذا؟. . وهو رسول الله الى من. .؟ وماذا يحمل الى الناس؟ ان

جبريل هذا لم يحدثه عن شيء مما يفكر فيه.. لم يحدثه عن المعذبين ولا عن العالم المضطرب الذي ينشد خلاصه..؟

ولكن خديجة الزوجة البارة الحانية التي لم يختلف ودها أبداً، ظلت تدخل الطمأنينة الى قلبه وتؤكد له أن الأذى لا يمكن أن يصيبه لأنه لم يصنع أذى لأحد.. وكان قريبها ورقة بن نوفل قد حدثها كثيراً عن المسيحية التي آمن بها.. وعن الرب وملكوت الرب.. ورسالة عيسى وموسى من قبل.

وخرج محمد وترك خديجة حائرة لا تعرف كيف تبدد هموم زوجها.. انها لتصدقه.. ولقد سعى اليها الغلام الصغير علي، وسمع ما كان يقوله ابن عمه فصدقه هو الآخر.. وسمع زيد بن حارثة بما كان من أمر محمد متبنيه.. فصدقه.

الثلاثة يصدقون الرجل ولكنهم لا يفهمون الأمر.. انهم ليثقون به ويؤمنون بكل ما يمكن أن يقول..

فلقد عرفوه دائماً أميناً صادقاً حكيماً صائب النظر رقيق القلب.

وأقبل أبو بكر بن أبي قحافة يسأل عن صديقه محمد بن عبد الله، واستقبلته خديجة وروت له ما كان من أمر صديقه.. ونقلت له مخاوفه أن تكون قد أصابته حمى الكهانة أو مسة الجن.. ونصحت له أن يذهب إلى ورقة بن نوفل، فقد يكون فيما لديه من العلم تفسير لهذا الذي وقع لمحمد في نومه..

وانطلق أبو بكر الى ورقة يروي له ما حدث لمحمد؟! أهو مبشر جديد إذاً مثل زيد بن عمرو؟.. ولكن زيد بن عمرو لم ير في الحلم شيئاً كهذا، ولم يقل له أحد إنه رسول الله..

وأخذ محمد يطوف بالكعبة على عادته كلما عاد من حراء فتقدم اليه ورقة بن نوفل فقال له: لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.. ثم قبل رأسه واستطرد «وانك لنبي هذه الأمة».

وحذره أنه سيكذب ويعذب ويؤذى وينفى من دياره ويقاتل..

هكذا تماماً كما حدث للمبشرين الأوائل!..

وماذا بعد؟...

أجل ماذا بعد! . .

لقد صدقته خديجة زوجته، وابن عمه علي، ومولاه زيد بن حارثة، وصديقه أبو بكر . .

وبشره الرجل الصالح ورقة بن نوفل . . سيعذب ويؤذى ويقاتل .

ولكن ماذا بعد؟ . . على أي شيء صدقه هؤلاء جميعاً وبم يبشره وينذره ورقة؟

لقد قال زيد بن عمرو للناس أشياء كثيرة، وخالد بن سنان قال أيضاً أشياء كثيرة، وغيرهم . . وغيرهم . . وكلهم طرد، وعذب، وأوذي . ثم قوتل وقتل .

أما هو فأية أشياء يقول؟ . . ان نفس الأشياء التي قالها الآخرون لا تجدي أبداً لأن هذا العالم المنهار المتشابك الفساد يجب أن يهدم ليبنى من جديد . .

كان هذا هو اقتناعه! .

وبعد شهور وشهور من التأمل والضنى خرج محمد ليعلن أن هذا القضاء الغاشم الذي فرضته الآلهة والكهنة والأصنام في أقطار الأرض انما هو أكذوبة ومصيدة للضعفاء والفقراء والذين لا يملكون من الأمر شيئاً . .

فكل نفس بما كسبت رهينة . .

وهكذا انطلق، وقد أدرك دوره حقاً لأول مرة، منذ تلك الليلة في رمضان .

٦

أعدت الحياة له مكاناً . . وانتظرته .

هيأت الظروف الاجتماعية محله، فكان من الضروري أن يقبل ليملأ مكانه المرتقب، مسلحاً بفهم كامل لطبيعة دوره، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت، وبادراك كامل لحاجات البشر المعذبين: حاجتهم الى أسلوب في العلاقات أكثر عدلاً وانسانية، وحاجة وجدانهم الى قيم روحية جديدة . .

وهكذا أقبل أبو القاسم محمد بن عبد الله من أغوار تأملاته . . من قاع مجتمعه، طيباً متواضعاً كالمساكين . . وهو يملك مع ذلك من الصرامة والشجاعة والقدرة المبدعة، ما يفرض هيبته على الذين يضربون في الأرض بصلفهم ويتشامخون بمالهم ونفرهم، ولو أنهم على أية حال لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً .

كانت قوة التجار والمرابين الأغنياء قد ألصقتهم بأصنام الكعبة، وكان التصاقهم بهذه الأصنام يمنحهم مزيداً من القوة والغنى . . فهي تحمي الآخرين واليها يحج العرب كافة ثلاثة أشهر من كل عام: يقدمون الهدايا والقلائد والأموال الى الأصنام، أي الى الذين يحكمون باسم الأصنام .

وخلال هذه الأشهر يستثمر هؤلاء الأغنياء أموالهم في البيع والشراء والربا . فيربحون ويربحون . . وهذه الأصنام بعد هي التي تمنح الملاك كل سلطانهم على الأجراء والمعدمين والعبيد وأبناء السبيل . .

وواجه محمد هذا كله بأن الأصنام ضلال . . وأنها لن تغني شيئاً . . وأنها لا تملك للانسان نفعاً ولا ضراً . . وأن الأمر كله لإلـه واحد . . لا يحتاج الى وسطاء . . اله واحد أحد . . خالداً أبداً، لم يلد ولم يولد . . وليس شيء كفئاً له ولا أحد!

وهذا الاله أكبر من أن يحده مكان كالكعبة، ولا حتى مكة نفسها فهو في كل مكان.

ليست له صورة وهو الذي خلق كل شيء، وهو وحده الجدير بأن يعبد.
يستوي عنده العبيد والأشراف.. الفقراء والأغنياء.. الرجال والنساء..

هو الذي يحيي ويميت، وسيبعث الناس في يوم معلوم بعد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا في الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا الا لهو ومتاع وغرور.. وهي الى زوال.
وهذا الاله الواحد لا يرضى الزنا، ولا الربا، ولا القتل، ولا كبرياء سائر الأشياء..

وهو يلعن الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الفقراء، وسيحمي على هذه الكنوز ـ في النار ـ عندما يبعث الناس بعد الموت، فيكوي بها جباه الذين كنزوها وجنوبهم وظهورهم.. وسيحرق أجساد الذين يعبثون بحقوق الآخرين ويستضعفونهم فإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون.

أما المساكين الذين يمتهنون اليوم فلهم شأن آخر بعد الموت، فقد أعدت لهم جنات فيها حدائق وأعناب وكواعب أتراب اذا هم هجروا الفاحشة، ولم يسرقوا ولم يكذبوا ولم يقتلوا واذا هم أدوا الأمانات الى أهلها ولم يكرهوا فتياتهم على البغاء وفاء لديون المرابين، واذا هم نبذوا الأصنام وتحرروا من سلطانهم على قلوبهم وعبدوا الاله الواحد الأحد الذي ليست له صورة، ولا يحده مكان أو زمان.. والذي بعث محمداً رسولاً الى كل الناس، بشيراً بجنة خالدة ونذيراً بنار خالدة.

انه اله غير ما عرفوا، فاله محمد لا يريد وساطة ولا مالاً ولا قلائد، ولا سبيل اليه بحسب أو بغنى. فما الانسان عنده غير سيرته الصالحة.. غير صدقه وشجاعته وحسن معاملته وغير فضائله.. ذلك أنه غني عن العالمين وأنه ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى.

بهذا التصور الجديد للحياة والموت، وبهذه القيم الروحية الجديدة واجه محمد ضلالات قومه.

واهتزت الحياة المتموجة في مكة.

من يصدقه الآن؟.

لقد صدقته زوجته عندما روى لها عما حدث في تلك الليلة في رمضان، وهو على جبل حراء. . ولكن أتراها تؤمن بما يقوله اليوم.

كانت تتفانى في حبه، وتستعذب كل عناء لتمنحه لحظات من الراحة، ولتعمر قلبه بالثقة.

ولقد صدقه ابن عمه علي بن أبي طالب في نبأ حراء أيضاً.

وصدقه ابنه بالتبني زيد بن حارثة.

وصدقه أبو بكر بن أبي قحافة صديقه الذي شاركه تأملاته وقلقه، والاغتراب.

كلهم صدقوه عندما جاءهم في تلك الليلة من رمضان منذ ثلاثة أعوام يروي لهم نبأ حراء.

ولكنه اليوم يواجههم بشيء جديد. ويطالبهم بأن يؤمنوا به، وبأن يحفظوا الكلام الذي يدفعه اليهم. . وبأن يناضلوا اذا اقتضى الأمر لكي يكون ما يجيء به هو القانون الذي يسود.

لكم يبدو هذا كله شاقاً ورهيباً؟.

لئن كانت أصنام الكعبة ضلالاً حقاً، فسينصرف العرب عن زيارة الكعبة خلال الأشهر الثلاثة الحرم، وسيحرم الأغنياء مصدراً كبيراً للغنى. . وسيفقدون بسقوط الأصنام كل هيبتهم وسلطانهم.

سيبذلون كل ما يملكون ليكذبوه ويعذبوه ولينفوه هو من الأرض، قبل أن ينفي عنهم مبرر بقائهم سادة أغنياء.

أو لم يتوقع ورقة بن نوفل هذا كله!.

سيكذبونه. أجل، وسيعذبونه ويطردونه الى التيه كما حدث لخالد بن سنان، وزيد بن عمرو!.

لن يرحموه. .

ولكن الذي يقوله محمد شيء جديد لم يقله خالد ولا زيد. . وهو مستعد لأن يناضل حتى الموت في سبيل دعوته. . انه يعد الضعفاء الذين يرفضون الظلم جنة عرضها السموات والأرض. . وينذر الظالمين بالنار. . وهو يهيىء للعبد مكاناً الى جوار السيد وللمرأة مكاناً الى جوار الرجل.

مهما تكن المشقة، فمحمد الأمين لا يكذب، والفضائل التي يدعو اليها هي وحدها الجديرة بأن تحكم علاقات البشر.. وعلى الزوجة التي أخلصت له وملأت حياته بالأمن أن تثق دائماً به.

وهكذا آمنت خديجة بكل ما يدعو اليه.. وقلبها يتجه الى الله الذي يدعو له محمد، أن يضن به على الأذى، وأن ينصره، ويحميه من الذين يملكون المال والسلطان.

آمن علي بن أبي طالبٌ بما يدعو اليه محمد، وتمنى بكل فتوته الجديدة لو أنه استل سيفا في وجه قوى الخفاء نفسها ليفرض على كل القلوب تعاليم ابن عمه. ومضى يلوح بيديه في الفضاء.

وآمن زيد بن حارثة..

وخرج محمد الى الكعبة يحدث الناس عن الهه.. في رفق، كمن يتحسس طريقه بينهم.

وكان في الكعبة بعض فتيان ورجال يكبرون محمداً ويعرفون فيه الصدق والشجاعة ويحترمون استعلاءه عما يأخذون فيه. وكانوا يعرفون أيضاً صداقته لأبي بكر بن أبي قحافة، وحرص الصديقين معاً على أن يعاملا الناس بالحق والصدق والعدل..

وعجبوا لما يدعو اليه محمد.. ما هو هذا الاله الواحد الذي يتحدث عنه؟ أيكون إيثاره للخلوة قد أثر عليه؟. انه لعاقل وحكيم، فما من حقه أن يدعو الى غير ما يعبده قومه.. أين حكمته؟. أنسي مصير خالد بن سنان، وزيد بن عمرو؟.

وأشفق عليه نفر منهم فقاموا ينصحونه ولكنهم رأوا اصراره، فآثروا أن يرسلوا إلى أبي بكر أحب أصدقائه اليه وأكرمهم عنده.. فأبو بكر بن أبي قحافة تاجر غني يكسب من الأشهر الثلاثة التي يحج فيها الناس إلى آلهة الكعبة وسيبور جزء من تجارته لا ريب، ان شاعت دعوة صديقه محمد بن عبدالله فشك العرب في آلهة الكعبة، واتجهوا الى هذا الاله الواحد الذي لا يحده مكان.. وأبو بكر بعد هو واحد من عشرة رجال يحكمون مكة.. وله في قلب محمد منزلة خاصة، فلعله يستطيع أن يرجعه عما أخذ فيه.

وانطلق العقلاء منهم جزعين إلى أبي بكر فقالوا له: «يا أبا بكر ان صاحبك..»

فقاطعهم في قلق: «وما شأنه؟» قالوا «هو ذاك في المسجد يدعو إلى عبادة اله واحد. . ويزعم أنه نبي». . ففكر أبو بكر قليلاً قبل أن يسألهم «أقال ذاك». قالوا. «نعم». وانصرفوا مشفقين.

اندفع أبو بكر بجسده النحيل ووجهه المعروف الأبيض وعينيه الغائـرتين. . لم يكلم أحداً ولم يلتفت الى أحد على طول الطريق الى الكعبة حتى أتى محمداً. فقال له: «يا أبا القاسم ما الذي بلغني عنك؟» قال: «وما بلغك عني يا أبا بكر؟».

ـ بلغني أنك تدعو الى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله.

ـ نعم يا أبا بكر ان ربي جعلني بشيراً ونذيراً وجعلني دعوة ابراهيم وأرسلني الى الناس جميعاً.

وأبو بكر اذ ذاك هو أكثر رجال قريش علماً بتاريخ العرب واعمقهم ثقافة يعرف الأنساب والسير والديانات التي عاشت في الجزيرة ومن حولها على مدى القرون. .

ولم يتردد أبو بكر. . وقال:

والله ما جربت عليك كذباً، وانك لخليق بالرسالة لعظم امانتك، وصلتك لرحمك وحسن فعالك، مد يدك فاني مبايعك.

وعاد محمد الى خديجة، فرحاً، يذكر لها ما كـان من أمر أبي بكـر. . العزيـز الصديق. .

ومضى أبو بكر يفكر في دعوة محمد، وفيما يمكن أن يقاومها به زملاؤه في حُكومة مكة، من التجار الأغنياء.

على أن دعوة محمد شاعت بين الأجراء المستضعفين والعبيد يوماً بعد يـوم. . أخذوا يعتنقونها، ويستعدون لجعل تعاليم محمد هي دستور العلاقات في مكة. انها تمنح العبد حق الحرية وتلزم السيد بأن يذعن للعبد الذي يريد أن يتحرر يتركه يعمل بأجر ليشتري حريته. . وهي تجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغنى.

وهي تضمن للمرأة حياة أخرى. . الأنثى كالذكر. . خلقهـا نفس الله. . ليست الأنثى إذاً كمـا كانت تـزعم التقاليـد ثمرة الخـطيئة في الأرض، وممثلهـا، ووحيهـا وأداتها. .

وهذه التعاليم تنهي الآباء والأزواج عن اكراه فتياتهم على البغاء.. وهي تكفل للمرأة حياة متكافئة مع زوج يسكن اليها وينفق عليها ويعاشرها بالمعروف ويسرحها باحسان. ويدفع لها مهراً عند الزواج، ونفقة بعد الطلاق..

وهذه التعاليم ترفض كل أنواع العلاقات الأخرى التي تعترف بها شريعة مكة.. ليس للمرأة أن تتخذ أخداناً، وليس لأحد أن يهبها لغيره ويستوهبه بدلاً منها.. كالسلعة.. وليس لزوجها أن يكرهها على أن تعاشر هذا الرجل أو ذاك من أغنياء قريش، ليكون لها ولد من صلب رجل غني عريق.

فتعاليم محمد تطالب الرجال بأن يصونوا أعراضهم وتطالب النساء بأن يصن أعراضهن، والزوجة هي عرض زوجها وشرفه. والرجل هو عرض زوجته وشرفها.. على الرجال والنساء أن يحفظوا أجسادهم مطهرة لبعضهم وألا يسمحوا بتخليط الأنساب، وأن يقيموا علاقاتهم فيما بينهم على أساس بناء أسرة وانجاب أطفال وتكافل في طريق الحياة، لا كما هي الآن.. كأنها دولة الحيوان.

ما من امرأة سمعت هذه التعاليم وآمنت بها الا حملت زوجها على أن يؤمن معها..

وهكذا انتشرت التعاليم الجديدة بين النساء والعبيد والأجراء.

وسادة قريش ينظرون الى محمد مستخفين.. فما اتبعه الا الأراذل. وها هو ذا عمرو بن العاص يلاحق التعاليم الجديدة بسخرياته منذ رأى أحد العبيد يتلو ما جاء به محمد، ومنذ رأى امرأة عرف مخدعها كثيراً، تنكس الراية التي كانت على بيتها، وتطرد الرجال جميعاً، وتتلو ما تعلمته عن محمد وتعلن أنها لن تصنع علاقة أخرى برجل الى رجل الا ان كان زواجاً في حدود تعاليم محمد، وبرجل يؤمن بهذه التعاليم.

ولم يرق هذا لأبي بكر.. من الحق أن هؤلاء قد وجدوا خلاصهم في تعاليم محمد، ولكن مكة مع ذلك حافلة بغير العبيد والبغايا والمستضعفين والأجراء، وما يجب أن يكون كل أعوان محمد من الذين تجوز عليهم سخرية سادة مكة.

ومن سادتها رجال يأنسون الى أبي بكر ويأتونه ويألفونه.

انه لأعلم قريش بقريش، وبما فيها من خير وشر.

وصمم أبو بكر على أن يعزز تعاليم محمد ببعض الصحاب الذين يثقون به ليس كل أغنياء مكة غارقين في الخطايا، فمنهم من يرفض الربا مثله، وينكر مثله أسلوب الحياة في مكة. . والقلب الطيب يتجه الى الخير ويرفض الأذى ويضيق بآلام الآخرين مهما يكن ضغط المصالح المالية، فليست المصلحة دائماً هي التي تحرك الرجال. . على أية حال!.

واتجه الى أعز أصدقائه عليه. . عثمان بن عفان. . وهو من أشراف قريش من كبار أغنيائها. . وحدثه عن محمد وتعاليم محمد. . وسمع عثمان طويلاً. . أليس هو محمد الأمين؟. أليس هو والد رقية. . لقد وقع منها في قلب عثمان شيء ولكن أباها زوجها لابن عمه الغني!.

وخفق قلب عثمان. . ولكنه أخذ يتفتح للتعاليم الجديدة، فلقد طالما ضاق باستكبار أصدقائه الأغنياء وتعنتهم مع الفقراء والمساكين. ولطالما اشمأز من نسق الحياة الآثمة في قريش. .

وآمن عثمان بن عفان. . بعد أن أقنعه أبو بكر. .

وما زال أبو بكر بأصدقائه حتى آمن الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبدالله. . وكلهم تاجر غني يسلك أسلوب الطاهرة في التجارة، ويأنف من الربا والزنا والظلم، وما عرفوا كسراة قومهم مباذل الليل في مكة. . في الحق. . إنهم من كبار الأغنياء والسادة في قريش.

فالزبير بن العوام الذي لا تخطىء العين طوله الملحوظ يملك ملايين الدراهم وعبد الرحمن بن عوف تاجر واسع الغنى، يملك آلاف الدنانير ومئات الابل وحدائق شاسعة في الطائف.

وسعد بن أبي وقاص، شريف في قومه وهو أحد فرسان مكة، وهو ليس أكثر تجار قريش مالاً ولكنه من أعزهم نفراً. .

وطلحة بن عبد الملك تاجر له أموال مستثمرة خارج مكة. . وقد امتد نفوذه المالي حتى العراق. . وله مكانة وحساب. .

كلهم لهم المال والقوة والنفر. . والقلب الناصع. . فلن يسخر أحد منهم، وما من حق أحد بعد أن يسخر بتعاليم محمد. .

فليس الأراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم. . ولكن هناك أيضاً تجار كبار طيبون. . وسادات في قومهم. . ومثقفون كبار مثقفون لم تعرف قريش مثلهم. . كلهم آمنوا بمحمد: هم ونساؤهم بنات الأسر الكبيرة العريقة في قريش.

وفي هدوء الليل الذي لم يكن يعمره من قبل غير صرخات الضائعين في العراء وضحكات الرجال والنساء المختلطة برنين الكؤوس خلف أبواب القصور، في هدوء الليل الذي كان يقبل دائماً على مكة بمتاع جديد للسادة، وشقاء جديد للمساكين، في هدوء الليل بدأت ترتفع همهمات خاشعة تتلو الكلمات التي جاء بها محمد. . كلمات تحمل على أجنحتها الخلاص للقلوب المضناة المثقلة بالمأساة. .

ورأى محمد أن يجمع أسرته من بني عبد المطلب، وأن يدعوهم الى الايمان بما جاء به. فليس أحب اليه من عشيرته الأقربين. .

وأولم لهم في بيته. وسأله عمه الزبير عن الخمر التي سيشربونها، وكان الزبير رجلاً شديد الولع بالشراب والمرح، فقدم لهم محمد أقداحاً. . وصفق الزبير طرباً. . ولكن الأقداح كانت ملآى باللبن. . وشربه الزبير، وبدأ يسمع لابن أخيه وبدأوا كلهم يسمعون لمحمد وهو يحدثهم عما جاء به. .

ولكن أحداً لم يستجب اليه. . الا علي بن أبي طالب. . هو وحده الذي انتفض يؤكد أنه سينصر محمداً بسيفه. .

وضحك من الاستخفاف بعض الكبار. فقد كان علي هذا أصغر الحاضرين. كان اذا ذاك ما يزال فتى صغير السن تتقدم به سنه إلى أول الشباب،ولكن محمداً لم يستخف بحماس علي، فقد قام اليه، فعانقه وبكى.

وعجب محمد لأهله، لم يرفضون كلامه، وكلهم يعرف فضائله وأمانته وأنه صادق لا يدعو الا الى الخير. لكم تمنى لو أنهم آمنوا بتعاليمه كما صنع علي، فقاموا دونه مما يتوقعه من أذى حكام قريش. .

ولكنه لم يهن على أية حال. . سيعاود المحاولة مرة أخرى. .

فليدع بني هاشم كلهم هذه المرة. سيدعوهم بنسائهم وعبيدهم وجواريهم. . سيدعوهم جميعاً. . انه يعرف أن عمه العباس يملك منصباً في حكومة مكة، وهو منصب يمنحه النفوذ الواسع، وما كان له أن يمتلك كل هذا الجاه لو لم تؤمن العرب بأصنام الكعبة.

وهو يعرف أيضاً أن عمه أبا لهب انما يكون ثروته الواسعة من الربا. . وهو كالعباس يملك حدائق في الطائف يزرعها له العبيد، وفي مزارع الطائف ترعى قطعان الخنازير، ومن كرومهما ونخيلهما هناك يتقطر أفخر الخمور!.

وأبو لهب يضاعف ثروته خلال الأشهر الثلاثة الحرم التي يحج فيها العرب إلى أصنام مكة. . وأم جميل زوجة عمه أبي لهب هي أخت أبي سفيان. . أحد أعضاء حكومة مكة وكبار مرابيها. . وهي أيضاً تستثمر مالها في الربا. . ولكن ابنهما عتبة تزوج ابنته رقية، وقد يفتح الله قلوبهم جميعاً لتعاليمه. .

وهو يعلم أيضاً أن عمه الزبير لا تعنيه أصنام ولا آلهة، فلا اهتمام له في الحياة بغير اللهو والطرب والخمر والنساء.

ومع ذلك فمن يدري؟!

وعمه حمزة فتى شجاع، وقد رضع معه في الصغر، وانه ليؤثره بحبه. . ولكنه مشغول بالقنص، والفروسية، وهو حريص على أن ينتزع لنفسه لقب سيد فرسان قريش، وما في قلبه مكان بعد لشيء غير هذا. . عسى أن يتفتح لتعاليم محمد قلب حمزة هو الآخر. . وحمزة فارس يرهبه الجميع. .

وأبو طالب رجل كريم طيب. . وانه ليؤثر العافية وحسن العلاقة مع قومه ولكن عسى أن يقتنع. . نعم من يدري؟! ربما اقتنعوا بالتعاليم، مهما تكن الظروف التي تغلق قلوبهم دون هذه التعاليم.

مهما يكن من شيء. . فلا بد من المحاولة. .

وعلى جبل الصفا خارج مكة وقف محمد ومن حوله بنو هاشم جميعاً. . وبعض الرجال والنساء الذين آمنوا بتعاليمه. .

كان بنو هاشم يتساءلون ماذا يريد محمد. .؟ لأي أمر جمعهم. .

وقال لهم بأعلى صوته من فوق قمة الصفا: «ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً الا أن تقولوا لا إله الا الله».

وانفجر أبو لهب وهو يلوح بيديه في وجه محمد بحنق وفظاظة: «تبا لك سائر يومك. . ألهذا جمعتنا؟».

تبا له. .؟ تبا لمحمد. .؟

ووجم الجميع في انتظار ما يقول محمد. واضطرم الغضب في أعماق علي وأوشك أن يرد على عمه أبي لهب رداً منكراً ولكنه كظم غيظه وانتظر الجميع رد محمد.

أيسكت محمد على أبي لهب واهانته وتلويحه. . بيديه؟ ماذا يمكن أن يحدث بعد، لو نهض رجال كأبي لهب يهدرون كل قيمة حتى حرمة القرابة والدم ويلوحون لرجال أمناء في وجوههم ويشتمونهم علانية؟!.

أيخاف محمد. .؟ ان أبا لهب ذو سطوة في قريش وامرأته هي أخت أبي سفيان أكثر رجال قريش مالاً وجاهاً وسلطاناً.

أيسكت محمد على هذه الاهانة اشفاقاً من أبي لهب وزوجته.؟ أم عسى أن يجاملها لأن ابنهما زوج لابنته رقية.

ولكن لا!!

لا مهادنة بعد!!

وما كان لمن يريد أن يفرض الحق على الفوضى. . ما كان له أن يسكت على اهانة، أو أن يهادن.

ان هيبة التعاليم لتمتحن الآن. . أتراه يخشى صلف أبي لهب وسطوة أبي سفيان.

ماذا تقول يا أبا لهب؟ اسمع إذاً، لن يسكت محمد بعد على من يرفضه، لن يقبل من أحد حتى من عمه هذا الازدراء عليه وعلى ما جاء به من تعاليمه. سيخوض غمرات الصراع مع كل المستكبرين. . فاسمع يا أبا لهب. . اسمع إذاً، سمعت الرعد. . تبا لك أنت!! تبا لك سائر يومك، وسائر حياتك!! تبت يدا أبي لهب. . وتب!

٧

جاء الزمن الذي يوثق الانسان فيه، ويلقى به الى الجوع والحقد والألم والنسيان. !

مرة أخرى يقبل عهد الشهداء والمستبسلين، فاذا الذين يحملون في رؤوسهم الأفكار، ويحلمون بالاخاء والعدالة والمستقبل، ويشرون وجدانهم بالثقة في انتصار الخير. اذا بهؤلاء الذين يمنحهم الايمان كل قوتهم، يطالبون بأن يواجهوا الغيظ، والمهانة والتشفي، والضرب حتى الموت، والزراية، وكل ما هو متوحش ومفترس وقمىء!

فالملأ من مكة ينتفضون الآن بكل ذعرهم، وانحلاهم، وذهبهم وسطوتهم، ليقاوموا مد طوفان يزحف بطاقة المد ليجتاح كل شيء عند هذا الملأ: منابع الثروة، ومراتع الملذات، والمناصب التي تمنحهم الجاه والغنى والنفوذ وتملأ قلوبهم بالكبرياء.

انهم ليصنعون كل شيء، وأي شيء ليوقفواهذا الطوفان البشري المتموج. . ولا يتعظون أبداً بمصير الجبابرة الأولين!

كانوا أقوى منهم وأعز نفراً، وكانت لهم خزائن الأرض، ولقد طغوا في البلاد ولكنهم سقطوا فجأة. . هووا من عليائهم أمام زحف المستضعفين الذين التقوا تحت راية الكلمة المضيئة المبشرة ليمسكوا بأزمة المصير، وموازين الحساب.

فما بال هذا الملأ من مكة لا يتعظون؟. ما لهم لا تنفعهم الذكرى؟. ما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً؟.

ان كل أهوال التعذيب لا تقوى على أن تطفىء النور الذي اشتعل في القلب، ولا تستطيع أن تنتزع الأفكار من تلافيف الدماغ.. وسيأتي الوقت الذي يطيح فيه المستضعفون بهذا الملأ من أوج صلفهم..

ولكن الملأ لا يفهمون طاقة الموج البشري الذي يتدفق به مجرى الزمن. انهم لا يفهمون حركة التاريخ.. ولا يشعرون بعد باللعنة التي تنفجر من أعماق المعذبين.

فليمض أبو لهب في الكيد لمحمد ولمن اتبعه.. فستطارده لعنة ضحاياه، وسيصلى ناراً ذات لهب!..

لقد ملأ هذا الوعيد قلوب أنصار محمد بالثقة فقد رأوا فيه تضحية جديدة بمستقبل ابنته رقية، ورأوا فيه شاهداً جديداً على اقدام محمد، فهو يؤذن بأنه لن يسكت على من يمتهن دعوته.. انه يملك أن يلعن الرافضين والعادين عليه مهما تكن قرابتهم اليه، ومكانتهم في ملأ قريش..

وعجب الكبار لمحمد..

لقد رأوه صغيراً يتيماً في شوارع مكة.. يحمل الحجر، ورأوه يافعاً مسكيناً يقضي نهاره تحت الشمس في شعاب الجبل يرعى غنم السادة وينبش على لقمة العيش فما باله يحاول أن يسودهم، وأن يجردهم من كل ما أصبحوا به سادة..؟

لقد بدأ الصراع إذاً: الأغنياء يدافعون عن وجودهم، والفقراء عن حقهم في الحياة الكريمة وعن أحلامهم في عالم أفضل..

وعاد محمد الى بيته ذات مساء وقلبه مثقل بما يعانيه الذين اتبعوه، وفي أعماقه على الرغم من كل شيء تتقد شعلة الاصرار التي يجب ألا تنطفىء أبداً..

انه ليعرف أن عمه أبا لهب سيكسب الى صفه كل بني هاشم.. فلئن خذله بنو هاشم وتخلوا عن نصرته، لأصبح نهباً لأنياب الكواسر من سادة قريش.. ولكن أبا بكر يكسب في كل يوم نصيراً جديداً من هؤلاء السادة، وها هو ذا يجيء بعثمان بن مظعون وابي عبيدة بن الجراح.. كل هذا رائع.. ولكن من ذا يجيء بحمزة بن عبد المطلب سيد فرسان قريش؟ أيمكن أن يدفعه أخوه أبو لهب الى ايذاء محمد..؟

وفجأة فتح الباب، وأقبلت رقية بنت محمد إلى أمها خديجة، باكية.. لقد طلقها عتبة بن أبي لهب، واعتدى عليه أبو لهب فضربها، ومزقت امرأته ثيابها، وأقسموا جميعاً ألا تبقى في بيتهم ما دام أبوها يسلك من قريش ومن أبي لهب هذا السلوك.. وأقسموا أنهم سيمنعون الرجال عن الزواج بها.

وواست خديجة ابنتها التي أصبحت الآن امرأة صغيرة.. طريدة.. ومسح أبوها دموعها..

وخرج الى صديقه أبي بكر..

ولهو في الطريق اذا به يعثر بالأشواك أمامه، وغير بعيدة تقف أم جميل امرأة ابي لهب متبرجة تطارده بنظراتها الشامتة. واذ جاوز محمد أشواك الطريق أمرت أم جميل احدى جواريها فقذفت عليه بعض الأوساخ، ووقفت هي تضحك وتتثنى والى جوارها زوجها أبو لهب.. وهما يشيران الى محمد، سخرية. هذا اليتيم الفقير. الذي يريد أن يقتلع السادة من عليائهم..!

وشكا محمد الى صديقه وصفيه أبي بكر ما يصنعه آل أبي لهب به وما صنعوه بابنته.. فروى له أبو بكر أن عثمان بن عفان، كان قد دخلته الحسرة لأن عتبة بن أبي لهب سبقه الى رقية، وأن عثمان ليرنو اليها.

وما هي الا أيام حتى تزوجها عثمان بن عفان.. التاجر الثري ذو الخلق الطيب.

وما زالت امرأة أبي لهب بمحمد تقذف في طريقه الأشواك، وتحرض العبيد والجواري أن يقذفوه بالنفايات، ومحمد يلقى أذاها بالصبر.. فهي امرأة!.. لكنها لم تفهم حقيقة صبره عليها فبالغت في ايذائه حتى لقد تربصت له ببعض جواريها وهن يحملن أحجاراً يلقينها عليه حين يمر.

تبا لها أيضاً، كما تبت يدا ابي لهب.. «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد».

وأقبلت على أبي بكر وهو في المسجد فتثنت أمامه قائلة:

«ما شأن صاحبك ينشد في الشعر».

فقال لها أبو بكر: «والله ما صاحبي بشاعر».

فقالت: «أليس قد قال: في جيدها حبل من مسـد».

وتحسست جيدها وصدرها واستمرت تتثنى: فما يدريه ما جيدها؟.

وغض أبو بكر من بصره ولم يجبها.. فقـد كانت على تبـرجها تتـأود وتتراقص وتتضاحك..

وتولت وهي تقول: «قد علمت قريش أني ابنة سيدها».

وعادت تغري العبيد والجواري بمحمد!.. الجواري والعبيد الذين يطالب لهم محمد بحياة أكثر انسانية، ويكابد في سبيلهم، ويلقى أذى أبي لهب وامرأته. حمالـة الحطب!

وشجع موقف أبي لهب من محمد سادة آخرين في قريش، كانوا يتهيبون غضب بني هاشم، لو أنهم تعرضوا له بالأذى.

غير أن أبا طالب شيخ بني هاشم، وقف الى جوار محمد وأعلن قومه أنه سيمنع ابن أخيه منهم جميعاً.. حتى من أخيه لهب بن عبد المطلب!..

ومضى الى محمد يسأله ان يرجع عما أخذ فيه ايثاراً للعافية والسلامـة، فضاق صدر محمد بكلام عمه، وخشي ان يكون عمه قد سعى اليه لأنه عجز عن حمايته فهو يريد أن يتخلى عنه ويسلمه.. فطلب اليه أن يتركه ورسالته فهو لن يتخلى عن دوره أو يموت دونه..

وأقسم له عمه انه لن يسلمه لشيء أبداً.. فليقل إذاً كما أحب!..

وحاول الملأ من قريش أن يغروا أبا طالب ليخلي بينهم وبين ابن أخيهْ فذهبوا اليه ومعهم عمارة بن الوليد، وهو أعذب فتيان قريش فقالوا له: «هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى في قريش وأجملهم فخذه فلك عقله وبصره فاتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فانما هو رجل برجل».

وغضب أبو طالب، وصاح فيهم. «لبئس ما تسومونى.. أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني لتقتلوه؟.. هذا والله ما لا يكون أبداً».

فقال قائل منهم: «يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً».

فرد عليه أبو طالب: «والله ما انصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك».

لا جدوى إذاً من جدال ابي طالب!. انه بموقفه هذا يقسم بني هاشم.

بعض يؤيده هو وابن أخيه محمد، وبعض يؤيد أبا لهب.. فلينضم فقراء بني هاشم إلى أبي طالب، أما أغنياؤهم فسيتحركون وراء أبي لهب بلا ريب..

ومع ذلك فلا بد من عمل حاسم سريع، يقعد محمداً عن السعي لنشر دعوته الخطرة، ويفرض هيبة حكومة قريش على الذين يفكرون في اتباع محمد..

واجتمع الملأ من مكة برئاسة أبي سفيان: فأصدروا قراراً بتحريم تعاليم محمد..

وقررت حكومة قريش أن تقتل العبيد والموالي الذين يؤمنون بمحمد، وأن تكسد تجارة أتباعه الأغنياء وتضع شرفهم وتهلك مالهم.

وأخذ رجالها وفرسانها يمنعون الناس عن محمد..

ولكن التعاليم كانت تنشر على الرغم من هذا القانون، وعلى الرغم من كل انذار وتهديد تصدره حكومة مكة التي هي أعلى من قريش!.

وتحركت حكومة مكة وأصحاب المصلحة فيها لمقاومة الدعوة وللبطش بالذين آمنوا بمحمد.. وشرعوا يضربون الضعفاء ضربات تنخلع لها قلوب الشجعان..

فلتبدأ حكومة مكة بتعذيب الذين اتبعوا محمداً من العبيد والأجراء.. فسيشفق الاتباع الأغنياء من تنفيذ حكومة مكة انذارها، فتكسد تجارتهم ويسقط شأنهم.

وكان بلال بن رباح هو أعلى الموالي صوتاً..

كان عبداً لأمية بن خلف الجحمي، وقد طالبه سيده بأن يعلن نبذه لتعاليم محمد، فأبى..

وأمر أمية أن يؤخذ بلال كلما حميت الشمس، فيطرح عارياً على الرمضاء، وتوضع

الصخرة العظيمة عليه، ويجلد ويضرب. . وكان يمر به وهو على حاله تلك فيقول له: «لا تزال هكذا يا عبد السوء حتى تموت وتكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى». .

ولقد مر ورقة بن نوفل ببلال وهو يعذب، فتذكر شهداء المسيحية الأول وأقسم لأمية لو أن عبده بلالاً هذا مات وهو يعذب من أجل ما يؤمن به، ليجعلن له قبراً كقبور القديسين!. .

واذ رأى سادة قريش ما يصنعه أمية في عبده بلال انقضوا على عبيدهم الذين آمنوا بمحمد، يطرحونهم عراة على الرمال الساخنة تحت وهج الشمس، ويلبسونهم دروع الحديد، ويكوونهم بالنار، ويجلدونهم حتى يفقد الواحد منهم وعيه. . وأشرف بعضهم على الموت فأذن لهم محمد أن يقولوا بألسنتهم ما ينقذهم من هذا العذاب وما دام سادتهم يتكاثرون عليهم. . وبعد غد سينتصر الحق، وسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً. .

ولكن قليلاً منهم ارتضى لنفسه هذا. . وحرص معظمهم على أن يبدو قوياً صامداً وأن يحتمل من أجل ما يؤمن به، ما لا يحتمله جسد انسان. .

ومضى أقاربهم يشكون الى محمد. . فقال لهم. . «صبراً».

صبراً. . حتى الموت. .

وهكذا ماتت سمية أم عمار. .

كانت امرأة جميلة، وجدت خلاصها في التعاليم الجديدة، ونبذت كل من فتن بها من الرجال واختارت زوجاً يؤمن مثلها بمحمد. وأخذت تدعو النساء ومن تعرفهم من الرجال الى تعاليم محمد.

وكان أبو جهل من الذين فتنوا بها وعذبهم صدودها منذ آمنت. .

وهو تاجر غني من سادة قريش وأكثرهم سطوة ومنعة وقوة، وحاول أن يثنيها عما أخذت فيه، فنهرته. . وانطلقت تدعو مثيلاتها باندفاع لا يوقفه شيء.

وجذبها السادة من عشاقها القدامى الى الطريق فطرحوها على الأرض وأمروا بها فضربت. . وضربت حتى فقدت الوعي، وصبروا عليها هي المرأة الرقيقة التي تعودت

غزل الرجال ولينهم معها.. وطلبوا منها أن تعلن كفرها بمحمد، فما تعود بدنها الجميل مثل هذا الألم.. ولكنها رفضتهم بقوة وهي في أظفارهم.. وحدثتهم عن فضل محمد عليهم جميعاً وأعلنت أنها لن تهجر تعاليمه أبداً. واذ ذاك انقض عليها أبو جهل بكل حنقه وفحشه الهمجي وهو يقول: «ما آمنت بمحمد الا لأنك عشقته لجماله».

ثم غرس حربته في ملمس العفة منها وظل يطعنها بوحشية في ذلك المكان ايغالاً منه في الزراية عليها.. لحتى ماتت.. أول شهيدة للتعاليم الجديدة..!

انه لاغراء للسادة جميعاً ألا يبقوا على ظهر مكة أحداً ممن آمنوا بمحمد مهما يحمل له القلب من ود. فما كان أحد أحب الى أحد. من سمية الى أبي جهل.. ومع ذلك فقد قتلها بيديه..!

وخشي محمد أن يجن الملأ بدم الذين اتبعوه، وأن يغريهم صبره الصامد بمزيد من الدماء..

ربما خشي الناس بعد هذا أن يؤمنوا به..

وتشاور مع خديجة ومع صديقه أبي بكر..

ما جدوى المال إذاً ان لم يستطع أن يصنع شيئاً لهؤلاء المعذبين.

ان بلال بن رباح ليوشك أن يموت هو الآخر كما ماتت سمية.. ومضى أبو بكر وعثمان بن عفان، وسائر الأغنياء الذين آمنوا بالتعاليم الجديدة ليخلصوا العبيد من أيدي السادة..

ذهب أبو بكر الى أمية بن الجمحي فسأله أن يشفق على بلال ولكن أمية رد على أبي بكر: «أنت أفسدته فانقذه مما ترى».

وعرض أبو بكر على أمية أن يشتري بلال بن رباح بخمس أوقيات من الذهب. ودفعها أبو بكر، فرفعت الحجارة عن بلال، فقال أمية: «يا أبا بكر لو أبيت الا أوقية لبعناك» فرد عليه أبو بكر «لو أبيتم الا مائة أوقية لأخذته».

وهكذا اشتراه أبو بكر وأعتقه واستخدمه عنده..

ومضى يصنع نفس الشيء مع آخرين وأخريات حتى بلغوا ستاً كانت آخرهم

جارية يعذبها عمر بن الخطاب ويظل يضربها حتى يتعب هو فيستريح ثم يعاود الضرب. .

وسخرت قريش من أبي بكر الذي يضيع ماله في شراء جوار وعبيد ضعاف لن يمنعوا صاحبه. . غير أن اقدام أبي بكر على هذا شجع صحبه الاغنياء الذين اقتنعوا بالدعوة الجديدة فقاموا بدورهم يحررون العبيد الذين آمنوا. . وشجع هذا كثيراً من العبيد والأجراء والمستضعفين. . فلن يخلى بينهم وبين المتسلطين من قريش بعد. . وسيتقدم أحد أصحاب محمد للنجدة، لو أنهم تعرضوا لأذى السادة!

وما زال أبو بكر بصحبه من مثقفي مكة وسادتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون وهو من حكماء قريش وكبار أغنيائها واقتنع الأرقم بن أبي الأرقم. .

وبلغ عدد الذين اقتنعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلاً وامرأة. منهم العبيد والأجراء والصعاليك والبغايا والجواري والضعيفات والذين طحنتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة. . والمثقفون وبعض التجار الأغنياء. .

ولم يعد بيت محمد صالحاً للاجتماعات. . فهو لا يتسع لكل هذا العدد. .

واقترح الأرقم أن يجتمعوا عنده في دار له على الصفا تتسع لهم جميعاً وهي بعد ليست على مرأى عيون حكومة قريش. . ولن يزعجهم فيها أحد. .

وفتحت دار الأرقم أبوابها لهم. . يجتمعون عنده كل ليلة فيقرأ لهم محمد ما جاء به ويشرح لهم دعوته.

وتزايد عددهم يوماً بعد يوم. .

وقد زايل الخوف الآن قلوب بعض التجار منذ أعلن محمد لأتباعه أن ما جاء به لن يغلق مكة أمام القوافل. . ولن يغير من مواسم الحج. فسيظل الناس يأتون الى الحج من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم. . كل ما في الأمر أنهم لن يسجدوا لأصنام الكعبة، ولن يباح لهم أن يعطوا الهدايا والقلائد لسادة قريش. وأنه اذا جاء الحج، فلا تبذل ولا حفلات خليعة، ولا ربح من تجارة الأجساد، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج. . !

وهكذا اطمأنت نفوس بعض التجار الذين كانوا يقاومون التعاليم الجديدة خشية أن تغلق الكعبة أمام الحجاج.. انهم هم ليسوا تجار رقيق، ولا مصلحة لهم فيما يقدمه الحجاج من هدايا وقلائد.. كل ما يعنيهم أن يظل موسم الحج موسماً للبيع والشراء..

وشعرت حكومة مكة أنه لا بد من اجراءات أخرى حاسمة..

ان العبيد من أتباع محمد ليتخلى عنهم أصحابهم بيسر أمام اغراء المال الذي يدفعه أمثال أبي بكر.. وحكومة مكة لا تستطيع أن تدفع هي وتتزايد لتستبقي العبيد الخارجين عليها ـ ثم تقتلهم لترهب الآخرين!..

لقد عذبوا فما نفع التعذيب.. وقتلت سمية، فما خافت النساء.

لا بد إذاً من ضربة توجه الى محمد نفسه.. فليضربها رجل ذو سطوة وقبيل يخشاه أتباع محمد من بني هاشم..

ان أبا طالب قد طعن في السن فلن يحمل سلاحاً.. وابنه علي لا يستطيع بعد.. وما في بني هاشم كلهم غير حمزة وهو لا يأبه لمحمد.. انه عمه.. هذا حق، وأخوه في الرضاعة أيضاً، ولكنه لا يحفل بتعاليم محمد، ولديه حياته ولهوه وقنصه وكل ما يشغله عن محمد!..

وتناجى رجال من قريش فرأوا أن أكفأهم لضرب محمد وأنهضهم لهذا انما هو أبو جهل ثم عمر بن الخطاب.. فكلاهما فارس قوي مكين يخشاه الآخرون.

ولن يستطيع أحد من أصحاب محمد أن يتعرض لأيهما.. لا أبو بكر ولا عثمان ولا سعد ولا أبو عبيدة.. ولا أحد على الاطلاق..

ولئن ضرب محمد ولم يثأر له أحد، لقد انتهى كل شيء إذاً.. وستسقط هيبته.. ويسهل على سادة مكة بعد هذا أن يضربوا كل صحابه..

فليغروا به السفهاء أولاً: يلقونه في الطريق فيصيحون به «كذاب.. مجنون.. ساحر».

وهكذا تسقط هيبته، فيهون على الناس.

ومضى محمد في بعض طرقات مكة.. فما لقيه أحد الا صاح فيه: «كذاب..

مجنـون.. ساحـر».. حتى بعض العبيد.. وبعض النسـاء اللواتي يدعـو محمد الى انقاذهن.. وبعض الأجراء.. والصبيان والذين تطحنهم الأوضاع الاجتماعيةِ التي يثور عليها محمد!.

وعاد محمد مثقلاً من هذا كله.. يفكر ويروض نفسـه على الصبر والسلوان.. واستلقى الى حجر تحت ظل، وهو يجهد ليحبس دمعه.. فما يشق عليه شيء مثل أن يبادره بالأذى هؤلاء الذين يدعو لتحريرهم ويعاني من أجل خلاصهم!.

ولهو في وحدته اذ بأبي جهل يقبل عليه فيشتمه، والسفهاء يتضاحكون.

ونظر محمد طويلاً الى أبي جهل وأدار بصره الى الذين يستهزئون به.. هؤلاء الذين يشقى من أجلهم..

ولم يقل شيئاً..

ورق قلب إحدى الجواري لمحمد، وعز عليها أن يلقى هذا كله.. وكانت لم تؤمن به بعد، وما زالت تدير تعاليمه في رأسها.

ورأت حمزة بن عبد المطلب، مقبلاً بكل شموخه من رحلة صيد، قوسه في يده، والناس يتهامسون باسمه منذ أقبل، في اكبار واعجاب.. لماذا يزهو بنفسه هكذا بينما ابن أخيه يمتهن ويشتم..؟ يشتمه سيد عشيرة أخرى تنافس بني هاشم..؟ أهو حقاً أعز فتى في قريش وأقوى شكيمة.. فما صبره إذاً على ما يلقاه بعض بني هاشم من الاهانة..؟

أقبلت عليه الجارية تقول له: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد..

وروت له كل ما شاهدته.. وقالت له ان أبا جهل بعد أن أهان محمداً أتى الكعبة مزهواً يروي لأصدقائه..

فانطلق حمزة مغضباً لا يكلم أحداً ولا يسلم على أحد، حتى أقبل على أبي جهل وهو جالس بين القوم في رحاب الكعبة..

وانقض حمزة على أبي جهل قائلاً: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فرد ذلك عليّ ان استطعت».. وضرب أبا جهل بقوسه حتى شجه شجة منكرة.

وقام رجال الى حمزة لينصروا أبا جهل.. ويدرك أبو جهل ان حمزة لن يتركه..

سيقتله بلا ريب. . وحمزة قادر على أن يقهر هؤلاء الرجال جميعاً. . ورأى أبو جهل أن يحتمل ضربة حمزة لكيلا يوجه اليه حمزة ضربة أخرى قاتلة. . وكظم أبو جهل غيظه، وكتم الجرح وقال لمن معه: «دعوه. . فاني قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً».

وابتعد الرجال. .

ومضى حمزة مزهواً الى محمد بعد أن قهر أبا جهل. . وقال له: انه يصدقه وسينصره. . وعانقه محمد. . ودمعت العيون. .

هو ذا اذاً سيد فرسان قريش. .

من يجرؤ بعد اليوم على أن يتعرض لمحمد؟

ان انضمام مائة آخرين لم يمنح أتباع محمد شعوراً بالعزة والمنعة والقوة مثلما منحهم انضمام حمزة بن عبد المطلب.

ولامت قريش أبا جهل، فقد كان يجب أن يشتبك مع حمزة.

وسينصره من فرسانها الكثير. . ما زال هناك عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد. .

ووضعت قريش أملها في عمر بن الخطاب بعد أن تخاذل أبو جهل أمام حمزة!. . عمر هو الذي يستطيع أن يحقق أمل قريش الآن بعد أن أعلن حمزة أنه ينصر ابن أخيه.

ولكن أيجرؤ عمر بن الخطاب على أن يتعرض لمحمد بعد. . ؟

ان الذي يمنعه الآن لهو حمزة بن عبد المطلب. . سيد فرسان قريش!. .

٨

لم يكن في مكة كلها شيء يستطيع أن يثني عمر بن الخطاب عن اندفاعه الرهيب المحنق. . لا الفتيات اللاتي تغامزن فرحات لطلعته وهو يمر أمام أبواب الخمارات، ولا السامر الذي انعقد في بعض الرحاب، ولا دقات الدفوف التي تقرع وراء بيوت يعمرها المتاع. . لا شيء على الاطلاق.

كان قد سمع ما كان من أمر حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام، وعجب لبطش حمزة بأبي جهل واستخذاء أبي جهل أمام حمزة، وأدرك أن سادة قريش الذين تعودوا أن يرهبوا حمزة، سيتضاعف خوفهم منه منذ اليوم، ما دام حمزة هذا قد قهر أحد فرسانهم الصناديد عنوة. . وسيشمخ أتباع محمد ويتعاظمون وينتصرون بحمزة.

وأقسم عمر أن يمضي الى بيته فيمتشق حسامه وعدة الحرب، ويمضي الى دار الارقم على الصفا فيقتحمها ويذبح محمد بن عبدالله أمام حمزة بن عبد المطلب. . فيريح مكة ويستريح. .

وإذاً فقد جاء الزمن الذي يواجه فيه عمر بن الخطاب صديقه حمزة بن عبد المطلب. .

لم صنعت هذا يا أبا القاسم وقد كنت حبيباً الينا، عزيزاً علينا؟؟. .

لم خرجت علينا يا بن عبدالله بتعاليمك التي تجعل صديقاً يشهر سيفه في وجه صديقه؟ لقد فرقت الجماعة وسفهت الأحلام وألقيت العداوة بين الأخ وأخيه، وأفسدت علينا العبيد والعشيقات. . !

وأنت يا حمزة ما أغراك بصديقك أبي جهل بن هشام. .؟ ألم نرفع نحن الثلاثة ومعنا خالد بن الوليد ذكر قريش بين القبائل. .؟ ألم تصبح مكة أعز أرض بنا نحن الأربعة. .؟ قبائل العرب تحسد قريش على فرسانها، وتعدل الواحد منا بجيش بأسره، فلماذا يصبح من المحتم علينا نحن الذين خضنا المكاره معاً، أن نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا. .؟ نحن جعلنا هذا البلد آمناً، وملأناه بأشواقنا ومرحنا، وأقمنا فيه منارة للعرب أجمعين. . كل هذا صنعناه بأيدينا يا حمزة. . فما فتنك عن صحبك، ومنذ متى شغلت بتعاليم أبي القاسم. .

وأنت يا أبا القاسم ماذا تريد بعد. .؟

لقد أدرت رؤوس الفقراء والأجراء والعبيد والنساء، وفرضت لهم على السادة حقوقاً، ها أنت ذا تفتن التجار منذ أعلنت أن تعاليمك لن تلغي الحج والطواف بالكعبة، وانك انما تدعو الناس الى الحج ليعبدوا الهك لا الأصنام، وليشهدوا منافع لهم، فتقام الأسواق والندوات، ولكن بلا فسوق في الحج. .!! لقد سمعتك يوماً تتلو تعاليمك فأخذني من تلاوتك شيء، ولكني زجرت نفسي، وانصرفت الى الخمارة. . أساحر أنت. . منذ متى تعلمت السحر؟.

أتباعك من التجار الأغنياء على ندرتهم يبذلون أموالهم من أجل ما تدعو اليه، في اندفاع عجيب. . وكأنهم يتنافسون: يحرر أبو بكر ستاً من الجواري والعبيد فيحرر عبد الرحمن بن عوف ثلاثين. . وآخرون وآخرون. . وها أنت ذا تدعو صحابك الذين تخاف عليهم غضب قريش أن يهاجروا الى أرض الحبشة حيث يحكم ملك تقول عنه انه عادل لا يظلم عنده أحد. . فيهاجر الضعفاء ثم يتبعهم عبدالله بن مسعود، وعثمان بن عفان وزوجته، والزبير بن العوام، وجعفر بن أبي طالب وامرأته، وعبد الرحمن بن عوف. . ما منهم أحد يبالي بما سيحدث لتجارته الواسعة بعد هذه الهجرة، أكسدت أم راجت.

بأي سحر يا أبا القاسم تسيطر على هذه القلوب؟! لقد يصبح الواحد منا ذات يوم فيجد مكة خاوية، وينفق النهار والليل بلا صديق. . لقد حرم السامر من أبي بكر، منذ تبعك. . لم يعد بعد يروي لنا أخبار الذين غبروا.

وأخيراً فها هو ذا حمزة يتبعك.. ما أفرغ ليالٍ لا تعمرها صحبة حمزة.. كم ذا ستهون قريش على أعدائها بعد أن انسلخ عنها حمزة..

ألا يرق قلبك يا أبا القاسم لهؤلاء الذين هجروا مكة الى بلاد الحبشة، وتركوا فيها التراب الذي أحبوه، والأهل الذين ألفوهم.. ان لك فيهم لفلذة كبد.. رقية زوج عثمان بن عفان!؟.

لن يشفي قلوبنا من وجائع الفراق يا أبا القاسم، ومن كل تلك الفتنة التي تجتاح مكة منذ جئت بتعاليمك.. الا أن أزيلك منها.. أقتلك فأريح مكة.. وأستريح.

وعندما أوشك عمر أن يبلغ باب داره قابلته في الطريق جارة له كدست متاعها أمام بيتها ووقفت تنتظر ولداً لها، لينطلقا معاً الى أرض الحبشة مع فوج جديد من المهاجرين، تاركين مكة تحت جنح الليل.. كانت امرأة طيبة قد ارتفع بها السن، وكان عمر يعطف عليها ويودها ولكنها لقيت منه الأذى منذ اتبعت تعاليم محمد.. وخشيت المرأة أن يبطش بها، فاختفت وراء متاعها خوفاً من عمر، تحبس أنفاسها وتتحسس دقات القلب.. وجاءها عمر فقال:

«انه للانطلاق يا أم عبدالله».

لم يكن في صوته نذير بالعدوان كما ألفت منذ حين..

فأجابته: «نعم والله آذيتمونا وقهرتمونا، فلنخرجن في أرض الله.. حتى يجعل الله لنا مخرجاً».

ويسكت عمر لحظة.. ها هي ذي جارته أيضاً تخرج من مكة.. لقد طالما ألفها.. ألف العطف عليها. ثم ألف البطش بها.. وسينتهي كل هذا فجأة.. ودبت الرقة في صوت عمر وهو يرى المرأة العجوز وراء متاعها تترك كل شيء لتعيش في بلاد غريبة، نازحة عن كل حياتها في مكة. وقال بصوت يخالجه اللين: «صحبكم الله»..

وعجبت المرأة لرقته فحكت لولدها وهما يلقيان آخر نظرة على مكة..

قالت له: «لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا».

فقال لها وهو يستقبل الطريق الطويل الى المجهول: «أطمعت في اسلامه فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب».

أما عمر بن الخطاب فقد خرج من داره بعد قليل متوشحاً سيفه. . الى بيت الأرقم عند الصفا. . حيث يلقى محمداً فيقتله أمام أتباعه. . وأمام عيني حمزة بن عبد المطلب. . فليبارزه حمزة بعد هذا. . فليقتل هو حمزة، أو فليقتله حمزة. . فهذا شيء لا يجب أن يفكر فيه. .

المهم هو أن يقتل أبا القاسم محمد بن عبدالله!.

كان ما برح يفكر فيما صنعه محمد. والالم المبهم يزحف الى قلبه وصورة جارته العجوز التي رحلت تختلط بصور الذين هجروا مكة، وتزحف على حلقه بشعور غامض حزين. . كالغصة التي تسد الحلق فجأة. .

ولقيه أحد أصدقائه. . فسأله أين يمضي متوشحاً سيفه. .

فأجابه عمر «أريد محمداً، هذا الصابيء، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وسب آلهتها فأقتله».

فقال له صاحبه وهو يحاوره: «والله لقد غرتك نفسك عن نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم. .؟» فقال عمر مباغتاً: «وأي أهل بيتي» فقال صاحبه: «ابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد تابعا محمداً، فعليك بهما».

وهرول عمر الى بيت أخته وزوجها. . سيصنع مع ابن زيد بن عمرو ما صنعه أبوه الخطاب مع زيد بن عمرو. . والد سعيد بن زيد هذا. .

وأتى عمر دار أخته وزوجها سعيد. . يقرع الباب. .

وقف يسمع ترتيلاً غريباً بصوت رجل غريب، ويتلو فترد عليه فاطمة وسعيد «طه. . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى».

وانتظر حتى انتهوا ثم دق الباب. . (فلما سمعوا حس عمر، اختبأ الرجل الغريب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة التي كان يقرأ منها فجعلتها تحت فخذها) وفتح سعيد الباب.

فلما دخل عمر سألها بغضب: «ما هذه الهينمة التي سمعت».

فأجاباه: «ما سمعت شيئاً».

فصرخ: «بلى لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً..».

وضرب سعيداً بمقبض سيفه فسال دمه، فقامت فاطمة تكف أخاها عن زوجها فبطش بها عمر وشج رأسها.. وسال دم أخته على يديه..

ها هو ذا دم أختك أيضاً يسيل على يديك يا عمر.. دم أحب الناس اليك، الفتاة، التي كنت لها دائماً أخاً حانياً وأباً رفيقاً..

وانتفضت أخته التي لم ترفع رأسها في وجهه من قبل وصرخت متحدية: «نعم.. فاصنع ما بدا لك».

كان من الواضح أنها مستعدة لكل شيء.. حتى الموت.. وفتحت ذراعيها وتهيأت لطعنة من سيف عمر.

وتخاذلت قوة عمر.. وغلبه حنانه.. ونظر طويلاً الى الدم الذي يسيل من رأس أخته، وابن عمه ملقى على الأرض.. فطلب منها عمر أن تطلعه على الصحيفة التي كانوا يقرأونها لينظر ما جاء به محمد.. ولكنها أبت عليه هذا؛ فهو نجس..

بأية قوة تتحدث هذه المرأة الضعيفة، وبأي استبسال تتحداه..؟

وقام عمر فاغتسل وأخذت عليه موثوقاً ألا يمزق الصحيفة.. وبدأ عمر يقرأ الصحيفة، وقرأ جزءاً كبيراً منها ثم أعادها الى أخته قائلاً: «ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه».

فلما سمع الرجل المختبيء ما قاله عمر عن القرآن اندفع من مخبئه قائلاً:

«يا عمر إني لارجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فاني سمعته أمس يقول اللهم أيد الاسلام بأحد العمرين: أبى جهل عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر».

وخرج عمر من فوره الى دار الأرقم على الصفا.. فقرع الباب بلهفة وعنف وقام رجل ينظر من الطارق من خلل الباب المغلق، قبل أن يفتح، ولكنه ارتد فزعاً يقول: «هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف».

فقال حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمد: «ائذن له. فان كان جاء يريد خيراً بذلناه له وان كان يريد شراً قتلناه بسيفه».

وتحسس حمزة مقبض سيفه وتهيأ لقتال عمر.. صديقه..

ولكن محمداً أسر في نفسه أن يقهر هو بنفسه عمر بن الخطاب هذا فلا يستعلي بعد اليوم بقوته.. لقد قهر حمزة أبا جهل، وسيقهر محمد عمراً..

وما دخل عمر حتى نهض محمد للقائه.. فأخذ بخناقه، وجذبه جذبة شديدة تطوح لها عمر.. وقال له: ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله، ما أراك تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.».

رد عمر بصوت خافت: «يا رسول الله..».

وبهت الجميع.. بينما عمر يكمل: «جئتك لأومن بالله وبرسوله»..

وانطلق من فم محمد دعاء طرب متهلل: «الله أكبر» وتبعه حمزة يكبر أيضاً وظل محمد يمسح على صدر عمر ويدعو له بالثبات، في فرح هائل حقاً..

وارتجفتدار الأرقم بالهتاف، وهزت النشوة أوصال الجميع..

حمزة وعمر - أشجع فارسين في قريش - ينضمان إليهم في يوم واحد.. سينتصفون بهما معاً ويمتنعون بهما معاً.

وتركهم عمر بعد قليل، وانصرف.. وفي الطريق الى داره. مر على دار أبي جهل عمرو بن هشام فقرع الباب فخرج اليه أبو جهل.. وقال له: «مرحباً وأهلاً يا ابن أختي، ما جاء بك؟» فأجابه عمر: «جئت لأخبرك أني قد صدقت بما جاء به محمد» فضرب أبو جهل الباب في وجهه صارخاً: «قبحك الله وقبح ما جئت به».. وما ترك عمر أحداً يستطيع أن يخبره الا أخبره.

في اليوم التالي خرج محمد يمشي في طرقات مكة عن يمينه حمزة، وعن يساره عمر. .والناس يتأملونهم في ذهول..

وانسلخ عمر بن الخطاب وحده وذهب الى الكعبة فأعلن في الناس أنه قد آمن بمحمد.. فثاروا اليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه.. حتى غابت الشمس.

أقبل حمزة وعمر على تعاليم محمد بكل ما يمتلكان من طاقة وحمية ايضاً. وقال بعض الذين أرادوا أن يزروا على حمزة وعمر، انهما قد تخليا عن شجاعتهما وتبعا تعاليم تقضي على الانسان أن (يستسلم لقوى الخفاء)، وان يتخلى عن متاع الحياة ليسلك طريق المساكين..

وما زال حمزة وعمر يقرآن ويسألان محمداً حتى اطمأن منهما القلب الى أن التعاليم الجديدة تطلب من الانسان ألا يستسلم في مصيره لآلهة الكعبة، وأن عليه أن يسلم وجهه لاله واحد، وهو بعد هذا يسعى في حياته مسؤولاً عن كل ما يعمله، حراً يختار الطريق الذي يرضيه، يصنع قدره بيده. وله ما كسب..

انه ليس الإستسلام إذاً.. ولكنه الاسلام..

وليس من الحق أن هذا الاسلام يطالب الرجل بأن يرمي سيفه، بل انه ليحضه أن يحشد كل همته دفاعاً عن العدل وكرامة انسانيته وحقه في الحياة.. على الانسان ان ينصف المظلوم ويعطي المحتاج ويبر الاقربين، وليتمتع بالطيبات بعد هذا: ليتخذ زينته، ليطعم، ويتزوج النساء، غير عاد ولا باغ..

وهذا الاسلام لا يحرم التجارة التي تقوم عليها حياة مكة وتنمو عن طريقها الثروات، انه ليحل البيع والشراء. منفعة بمنفعة ولكنه يحرم الربا الذي يقوم على استغلال الحاجة لكسب مال لم يجهد صاحبه ليكسبه، بل انتزعه منه بغير الحق..

وهو يضع الى جوار الربح، قيماً أخرى.. هي الحب والاخاء والتعاون.. والاتحاد. فليست الحياة أموالاً تكدس، وكنوز المودة أثمن من كنوز الذهب والفضة..

وهذا الاسلام يدعو الى العدل في الميزان، والى تمجيد العمل.. فالانسان يعلو بعمله لا بماله الذي لا يعرف أحد كيف اكتسبه.

العمل الصالح هو قيمة الرجل أو المرأة لا رصيده في مصارف مكة، ولا رصيدها من العشاق، ولا صلاته بأصحاب السلطان. فالسلطان لا يتنزل على فئة بالذات لأن الأصنام راضية عنها، وانما يلي الأمر من يختاره الجمهور!.

وهذا الاسلام يدعو الناس الى نبذ الشقاق فيما بينهم، الى أن يتحدوا فيصبحوا اخواناً بدلاً من أن يتفرقوا فتفشل ريحهم.

والملأ من قريش حائرون.. لقد خرج منهم أبو بكر منذ حين، وها هـو ذا عمر يخرج عليهم آخر الأمر وينضم الى حمزة متبعين اسلام محمد.. وما من رجل أسلم الا ونزل عن بعض ماله ليشتري العبيد والجواري الذين أسلموا.. ثم يعتقهم ليتحولوا الى أحرار يتطاولـون على السادة ويصـدفون أنهم أفضـل من ملأ قـريش الذين لم يتبعـوا محمداً، وأن مكانتهم لا يحددها الا عملهم. وحده!!

ولقد هاجر منهم الى الحبشة نفر كثير.. كانوا ثمانية وبلغوا الآن نحو الثمانين من الرجال والنساء، كلهم لقي من ملك الحبشة حسن الضيافة.

ولقد أرسلت اليه قريش تحذره ـ وله مصالح مشتركة مع قريش ـ ولكنه لم يأبه.. وعاد المبعوثون يحملون معهم عار فضيحة غريبة جعلت المسلمين يهزأون بهم جميعاً.

فقد أرسلت قريش فيمن أرسلت الى النجاشي عمرو بن العـاص وابن الوليـد؛ الفتى القرشي الجميل الشجاع الذي حاولت أن تعطيه لأبي طالب في مقابل ابن أخيه محمد.. وصحب عمرو بن العاص في رحلته زوجة دخل عليها منذ قليل.. وهي امرأة جميلة فاتنة للألباب لعوب، لم يكن عمرو يـطيق أن يبتعد عنهـا.. وفي الطريق الى النجاشي، رأت المرأة ابن الوليد وتحدثت اليه.. فشغفها حباً.. وذات ليلة هجـرت زوجها عمرو بن العاص، وارتمت في فراش ابن الوليد..

ولم تعد الى عمرو الا بشرط أن تتردد بينه وبين ابن الوليد..

وسبقت أنبـاء هذه الفضيحـة الى النجاشي والى المهـاجـرين، فلم تنفـع حيلة لعمـرو بن العاص، ورد النجـاشي الرسـل الى قريش خـائبين وظل على كـرمـه مـع المهاجرين اليه.. أما المسلمون في قريش فقد تلقوا عمرو بن العاص بالسخرية وعلموه أن الاسلام وحده هو الذي كان يمكن ان يعصم امرأته ويعصمه من مثل هذا الهوان!..

لقد بدأ المسلمون الآن يظهرون في الأسواق ويقرأون ما جاء به محمد في العلن ويحاجون خصومهم، مستنصرين بعددهم المتزايد، وبحمزة وعمر بن الخطاب.

وأجمعت قريش أن تفاوض محمداً.. فليضموه الى المـلأ، أو فليجعلوه رئيساً لحكـومة مكـة عساه أن يسكت، فـلا يفسـد عليهم مـا بقي من الأمـر.. لا حـل الا المفاوضة. وأرسلوا اليه..

وأقبل محمد فرحاً . . فلعل ما أقنع حمزة ثم عمر يكون قد أقنعهم هم أيضاً . . كانوا كلهم مجتمعين . . من بينهم أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، وأبو لهب، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف . . قال له واحد منهم . «قد بلغنا انما يعلمك رجل من اليمامة اسمه مسيلمة ويقال له الرحمن ولن تؤمن قريش لرجل من اليمامة أبداً . .

وغام وجه محمد من الضيق . . ألهذا دعوه فجاءهم . . ؟

غير أن أحد عقلائهم لحظ ضيقه وخشي فشل المفاوضة فبادره متلطفاً «أيا أبا القاسم لقد عز علينا ما أنت فيه من عنت فما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثلما أدخلت أنت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين والآلهة وسفهت الأحلام وخرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت قد جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا» .

فأطرق محمد قليلاً . ألهذا اجتمع أشراف قومه . . ! لقد جئتهم فرحاً يا أبا القاسم وفي قلبك أحلام . . كم ذا تحلم يا ابن عبدالله . . ؟

ورد عليهم «ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً . . فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .

وما زال أبو القاسم يحدثهم عن الهه . . وعن الآخرة وعن أمر هذا الله وحكمه . . وبعد، وبعد يا أبا القاسم . . ؟

وسأله أحدهم أن يكف عن آلهتهم، وسيكفون هم عن سب الهه . .

لكم هذا يا معشر قريش . لن تسب آلهتكم بعد . ولتكفوا أنتم أيضاً .

وشجع هذا رجلاً منهم فقال لمحمد . فلنشترك نحن وانت في الأمر، فان كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وان كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه» . .

فلتعبد آلهتنا وتتمثل لها، وسنعبد الهك، ونتمثل له . .

ولكن لا . . لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين . .
لا حيلة إذاً . . !

فلتدبر قريش أمرها قبل أن يستفحل خطر هذا الاسلام الذي جاء به محمد. فقد بدأت القبائل من خارج مكة تسمع عنه. وستسقط أصنام الكعبة بكل ما تجره من ثمرات وأرباح . .

وعدد المسلمين يتزايد . . والارقام يرفعون الرؤوس معتمدين على أصحاب محمد الأغنياء . .

ولم يعد منهم أحد يلقى العذاب حتى يخف اليه أحد أصحاب محمد فيشتريه ويعتقه.

لقد بلغ عدد الذين أعتقوا عدة مئات . . ومن الممكن أن يبلغوا عدة آلاف ويوضع في يدهم السلاح، فتعلن الثورة المسلحة!.

ومنذ أسلم حمزة وعمر لم يعد في فرسان قريش من تخشاه قريش غير خالد بن الوليد وأبو جهل وعمرو بن هشام . .
لا بد إذاً من أسلوب جديد يقهر محمداً وأتباعه . .

لم ينفعهم أبو طالب في شيء، وما زال يصر على أن ينصر ابن أخيه . . والمسلمون منذ انضم اليهم حمزة وعمر يمشون بلا وجل. ويتلون ما جاء به محمد جهرة . .

ولكن بني هاشم هم المسؤولون . . فلو أنهم زجروا محمداً لما تمادى . . وإذاً فليتفق كل أشراف مكة على أن يقاطعوا بني هاشم . . فلتكسد كل تجارتهم وليموتوا من الجوع حتى يخلعوا محمد بن عبدالله ! .

واجتمع الملأ من قريش واتفق معهم أبو لهب فكتبوا بينهم صحيفة ألا يزوجوا أحداً من بني هاشم وألا يتزوجوا منهم، ولا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً . . وعلقوا الصحيفة على الكعبة . .

واستثارت هذه الصحيفة بني هاشم جميعاً . . فانضموا الى أبي طالب وحمزة

منتصرين لمحمد. حتى الذين لم يؤمنوا بتعاليمه.. كان قرار حكومة قريش بحصار بني هاشم استفزازاً لنخوة كل بني هاشم.

وبدأت حكومة قريش تنفيذ هذا القرار بالحصار مستعينة بجندها.. وكان رجال الحكومة أنفسهم يباشرون تنفيذ القرار حتى لقد لقي أبو جهل غلاماً يحمل قمحاً وطعاماً يريد به عمته خديجة زوجة محمد.. فضربه أبو جهل ومنع القمح والطعام وأقسم ألا يسمح بدخول طعام الى بيت محمد. فتعرض له رُجل بالطريق قائلاً: «أفتمنعه أن يأتي عمته بطعامها؟» وصمم الرجل على أن يطلق أبو جهل سراح الغلام وتشبث أبو جهل فاقتتلا، حتى أوشك أحدهما ان يقتل الآخر.

حصار من الجوع أيضاً حول بيتك يا محمد، وبيت عشيرتك الأقربين فما يصل اليكم الطعام الا على جثة أحد من الضحايا..؟

فلتنطلق كلمتك على الرغم من كل شيء.. لتجلجل في طرقات مكة وشعابها كما لم تجلجل من قبل، فعلى وهج الكلمة المضيئة، تذوب قضبان الحديد.. وانطلق الآن فالعن أعداءك كما لم تلعنهم من قبل، وبشر الصابرين.

٩

وانفجرت الاحقاد العصبية ضد بني هاشم . . فأقسمت العشائر التي كظمت غيظها من بني هاشم طويلاً ألا تدعهم، حتى يهلكوا من الجوع، ويشتكوا من الوحدة والذل . .

لا طعام لبني هاشم، ولا بيع ولا شراء . .

والعشائر تسترد بناتها من بيوت الأزواج الهاشميين، وتطرد النساء الهاشميات من مخادع الأزواج، وتنتزع الأولاد من أحضان الأمهات . .

وهكذا ردت الى محمد بنته أم كلثوم منبوذة من بيت زوجها قتيبة بن أبي لهب، كما طردت أخت لها من قبل من نفس هذا البيت . .

وشعر محمد بأنه يجر على بني هاشم كثيراً من البلاء، وليسوا كلهم بالقادرين على أن يحتملوا، وما منهم الا قليل قد اتبعه، فهو يستعذب الألم في سبيل ما يؤمن به . .

وأشار عليهم شيخهم أبو طالب أن يخرجوا الى شعاب مكة، ليتجنبوا أحقاد القبائل الأخرى . .

ليلزموا بعض الحصون المهجورة على تلك الشعاب، وليلفقوا العيش يوماً بعد يوم . . الجوع على أية حال خير لهم من أن تعيرهم القبائل غداً أو بعد غد بأنهم خلعوا واحداً منهم وأسلموه الى سيوف الأعداء . .

وكان أبو سفيان وأبو جهل يقودان حملة الحقد والحصار . ويشددان النكير على من يحاول أن يتسرب الى بني هاشم وهم في وحدتهم النائية المضنية، خلف جدران القطيعة . .

على أن الأمر لم يدم طويلاً، فقد كشف تعنت أبي سفيان وأبي جهل وقبيلهما عن كثير من الأمور.

ليست المسألة إذاً هي مسألة خلع محمد ولا تسليمه، ولكنها مسألة اذلال بني هاشم واهلاكهم، ليرث أبو سفيان وأبو جهل وقبيلهما تجارة بني هاشم وما لهم ومناصبهم في حكومة قريش..

تكشفت هذه البغضاء لقلوب كثير من الطيبين في قريش، ممن لم يحملوا لبني هاشم من قبل شيئاً من حسد أو ضغينة..

وان منهم لمن له قرابة ورحم لبني هاشم أخوال وأبناء خالات وعمات..

وكان هؤلاء قد وقعوا الصحيفة من قبل، عندما خيل اليهم أن الأمر لا يعدو الضغط على بني هاشم ليتخلوا عن محمد..

ولكنهم منذ أدركوا أن القطيعة انما يراد بها هلاك بني هاشم وزوالهم جميعاً عن مكة.. منذ أدركوا هذا أخذتهم الرقة على هؤلاء الأقارب.

ثم دفعهم الى التفكير في نقض الصحيفة، ما بان من طمع أعداء بني هاشم فيما يملكه بنو هاشم.

ومضى هشام بن عمرو بن ربيعة، يحمل الابل بالطعام ويدفعها الى بني هاشم في شعاب الجبل، تحت ستار الليل..

ولم يكتف بهذا؛ بل انه مشى الى زهير بن أبي أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له:

«أرضيت أن تأكل وتلبس الثياب وتتزوج النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا يتزوجون ولا يتزوج منهم؟ أما أنهم لو كانوا أخوال أبي جهل عمرو بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً».

وشق على زهير بن عاتكة بنت عبد المطلب ما يسمعه، وتفجر من قلبه الحزن على ما يلقاه أخواله أبو طالب وحمزة والعباس، وبقية الأخوال من بني عبد المطلب، وأبناء

الأخوال، وعشيرة أمه جميعاً.. فقرر أن ينقض الصحيفة التي تعاهد فيها مع بقية الرجال على مقاطعة بني هاشم.

وما زال هشام بن عمرو بن ربيعة، يحدث رجالاً آخرين حتى ضم اليه المطعم بن عدي، وأبا البحتري بن هشام، وزمعة بن الأسود. وكلهم غني واسع الغنى؛ ذو مكانة في قومه..

وتواعدوا أن يذهبوا الى الكعبة من غدهم ليعلنوا نقض صحيفة المقاطعة التي وقعها سادة قريش وعلقوها على الكعبة..

وفي اليوم التالي ذهب الى الكعبة، زهير بن أبي أمية «ابن عاتكة بنت عبد المطلب» يقول للمجتمعين حول الكعبة:

«يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونشرب الشراب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى أشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة»..

وكان أبو طالب في تلك اللحظة قد جاء من شعاب الجبل وجلس الى الكعبة وحيداً منبوذاً، وأبو جهل يجلس في أحد الأركان متخايلاً بين الرجال فهب أبو جهل يرد على زهير بن أبي أمية:

«كذبت.. لن تشق هذه الصحيفة».

فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل:

«أنت أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت».

وأيده أبو البحتري: «ولا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به».

وأيدهما مطعم بن عدي:

«صدقتما وكذب من قال غير ذلك؟ اننا لنبرأ من هذه الصحيفة ومما كتب فيها».

وأيدهم هشام بن عمرو..

وأبو طالب، يجلس بعيداً، صامتاً في وحدته..

وانتفض أبو جهل يعلن أنها لمؤامرة على الصحيفة، ويحاول أن يدفع عنها ولكن الرجال الخمسة الذين كانوا قد اتفقوا على رفع الحصار عن بني هاشم، قاموا معاً فمزقوا الصحيفة.

اضطرم غضب أبي جهل وأبي سفيان ومن معهما.. ولكن موقف الرجال الخمسة شجع آخرين.. وأيقن أبو طالب وهو جالس يرقب، أن المقاطعة لن تفيد بعد، وأن الأسوار التي أقامتها قريش قد امتلأت بالثغرات.. فسيجد بنو هاشم من يبيعهم ويبتاع لهم ومن يسترد الزوجات الطريدات، ومن يرد اليهم نساءهم اللواتي انتزعن منهم..

وعاد أبو طالب الى شعاب الجبل يؤذن في بني هاشم أن يعودوا الى بيوتهم وحياتهم في مكة..

وحرص بنو هاشم أن يعودوا كما كانوا فلا يظهر أحد من قريش على ما صنعته المقاطعة بهم.

غير ان متاعب الحصار تركت آثاراً لا يمكن أن تخفى في أبي طالب الشيخ وفي خديجة التي جاوزت الآن ستين عاماً، قضت السنوات الأخيرة منها في آلام متصلة، وفي قلق على مصير زوجها محمد تحبس عنه ألمها لما يعاني، وتطالعه بوجه مبتسم، وفي قلبها الدموع.

أما محمد، فقد عاد أقوى مما خرج الى شعاب مكة.. يسخر مما يلقى، ويتحدى أعداءه، ويمشي كما كان بين حمزة وعمر..

وقد قرر الآن ألا يصبر على الأذى، فما تستطيع قريش بعد أن تصنع به أكثر مما صنعت..

ويلقاه أمية بن خلف في بعض الطريق..

وأمية رجل شرس مولع بالعدوان لا يخاف أحداً، وهو يستخف في مجالسه بانضمام حمزة وعمر الى محمد ويقسم أنه سيقتل محمداً بيديه على الرغم من كل شيء، ويواجه أمية محمداً بهذا ليرهبه.. يقول أمية: «اني أعلف هذا الفرس لأقتلك من عليه» فيجيبه محمد: «بل أنا أقتلك باذن الله»..

وهكذا مضى محمد يتلقى التحدي بالتحدي ويسخر ممن يسخرون به، ويواجههم بما يسقط هيبتهم التي اعتزوا بها طويلاً وهو خلال هذا كله، يلقي بتعاليمه ويصر عليها ويطالب الناس بأن يتبعوه.. ويقتحم ولا يبالي.

ويعجب البسطاء بجسارته يوماً بعد يوم. . ويشعر بعضهم أنه لو انضم الى محمد الآن، فلن يمتهن ويعذب كما حدث لمن سبق. . ذلك أن محمداً يواجه قريشاً بجسارة تؤكد لمن يريد أن يتبعه، أنه سيكون في منعة من الأذى والعدوان.

ولقد خشيت قريش أن يفتن به الغرباء الذين يزورون مكة للتجارة ويجتمعون فيها أيام الحج. . فقررت حكومتها أن تعلن أن محمداً خارج على القانون وأن من سمع اليه، فانما يتحدى حكومة مكة، وستحل حكومة مكة لنفسها ان تعامله بما تقتضيها صيانة مصالحها.

وكانت مكة تخشى الشعراء بصفة خاصة. . . . لأن القبائل تفخر بشعرائها وتعتد بكلماتهم، فلو أن أحد الشعراء اتبع تعاليم محمد فمدحها، لشاعت هذه التعاليم في قبيلة ذلك الشاعر، ولراج ما جاء به محمد خارج مكة، ولاستقبل الناس هذه التعاليم التي يمتدحها الشعراء بنفس الاحترام الذي يحملونه للكلمة المنظومة.

وهكذا رصدت حكومة مكة من يصد الشعراء من الوفود على محمد، ومن يذيع في حكماء هذه الوفود أن محمداً ليس غير مجنون يستهزىء به قومه.

ولكن محمداً حاول أن يقتحم الى هؤلاء الشعراء الحكماء. .

وعندما كانوا يجلسون حول الكعبة كان محمد يدخل عليهم، ويشرح لهم تعاليمه، متحدياً أصوات المستهزئين التي تغمر صوته، وقد حدث في أحد هذه المجالس أن وقف رجل غريب يستصرخ الناس:

«يا معشر قريش. . هل من رجل يعينني على أخذ حقي من عمرو بن هشام فاني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حق». .

فأشار له بعض أهل قريش على محمد وهم يضمرون السخرية به!

وكانوا يعلمون أن أحداً لا يستطيع أن يغدو على أبي الحكم عمرو بن هشام أبي جهل فيطالبه. .

وكانوا يعرفون أن محمداً بالذات لا يستطيع، فأبو جهل هو أبطش عدو به.

وصدق الرجل الغريب، وذهب الى محمد يقص عليه أن أبا جهل اشترى منه

بعض الابل، ولم يدفع له الثمن. . وهو لا يريد أن يدفع.

وتعالت ضجة المستهزئين، وأيقنوا أن محمداً سيخيب أمل الرجل فيه. . سيجبن عن نصرته، وتهيأوا لسخرية جديدة بمحمد تسقطه وسط الذين يدعوهم الى تعاليمه. .

ولكن محمداً قام مع الرجل الى عمرو بن هشام. . وكان محمد والمسلمون قد تعودوا أن يسموه أبا جهل. .

قام الى أبي جهل، مخلفاً وراءه حيرة المتغامزين عليه. .

جاء أبا جهل في داره وهو بين عبيده وفرسانه فضرب عليه الباب وطلب أن يخرج اليه أبو جهل هذا.

كان وجه محمد يحمل كل حزمه وكل ما في طاقته من الثورة لهذا المظلوم، ومن التحدي أيضاً. . وخرج أبو جهل مروعاً يستقبل محمداً. . ماذا حدث في مكة حتى يجرؤ محمد على أن يضرب عليه بابه بهذه الصورة. .؟ وقبل أن يفيق أبو جهل من المفاجأة ابتدره محمد في حسم.

ـ أعط هذا الرجل حقه. .

ولم يجب أبو جهل بل دخل، ثم خرج فأدى الى الرجل ثمن الابل!!

وعاد الرجل الغريب يعلن للناس حول الكعبة ان محمداًأخذ له بحقه من ظالم لا يجرؤ عليه أحد. .

ملأت هذه الجسارة قلوب الغرباء باكبار محمد. . وانصرف المستهزئون، يقلبون أكفهم من العجب، والغيظ!.

لتكن الكلمة هي الخطوة إذاً.

لتتحول كلماته الى خطوات. . فقد جاء الزمن الذي يجب فيه أن تعكس خطوات الرجل، كل تعاليمه. . لقد أنفق نحو عشر سنين في مكة يدعو بالكلمة ويصبر على العدوان، ولكن صبره أطمع فيه طغاة قومه. .

لقد شبع من الصبر، فليواجههم اليوم قوة بقوة. . ولن يستطيعوا على أية حال ان يصنعوا به أكثر مما يصنعون.

انه ليطالب الناس بأن يوفوا بالعهود اذا عاهدوا. . هكذا تقول تعاليمه فليتحرك هو نفسه ليحمل المتكبرين على أن يوفوا بالعهود. .

انه ليعلن الظالم ويدعو الى ألا يأكل أحد مال غيره. . فلينتزع هو بنفسه الحق من أظفار المغتصب. . وليفضح الظالم ويقهره. . وليرد الى المظلوم ما ينهب منه. .

ومن خلال هذا السلوك بدأ بعض الغرباء من زوار مكة يهتمون به، وأتاه في بيته شاعر «دوس» وحكيمها الطفيل بن عمرو فقال له: «يا محمد: ان قومك قد قالوا لي فيك ما قالوا، وما برحوا يخوفونني من أمرك حتى سددت أذني لئلا أسمعك، ثم سمعت قولك فوجدته قولاً حسناً فاعرض عليّ أمرك».

ها هو سيد قبيلة بعيدة يسعى اليه. .

وظل محمد يتحدث معه ويشرح له تعاليم الاسلام الذي جاء به. . حتى اقتنع الطفيل بن عمرو، وعاد الى قومه فأقنع أباه وزوجته، وما زال بقومه حتى أقنع منهم سبعين رجلاً وامرأة.

وعلمت قريش نبأ الطفيل، فبدأت تشعر بالخطر حقاً.

لو أن تعاليم محمد خرجت من مكة ووجدت من يناصرها لاستقوى عليهم محمد بجيش من هؤلاء الأنصار الغرباء، ولما وجدوا حرجاً حين يكثرون أن يجتمعوا ليقتحموا عليهم مكة، ويجعلوا محمداً ملكاً عليهم أجمعين. .

ولامت مكة نفسها أنها تركت الطفيل يلقى محمداً. .

لا بد من أسلوب آخر مع هؤلاء الغرباء. . لقد خوفوهم من محمد فلم ينفع هذا. . فلتتحرك القوة اذاً لتمنع مثل هذا اللقاء. .

وأخذ جند مكة يراقبون الغرباء، وملأت حكومة قريش أسواقها ومواسم الحج فيها بالجواسيس، وما يعثرون على رجل يتصل بمحمد حتى يطردوه من مكة، مضروباً معذباً بعد أن يصادروا ماله وتجارته.

ولكن محمداً لم يحفل بهذا. . وظل يقف حول الكعبة كلما جاءت وفود تطوف بها، فيعرض عليهم الاسلام وكان بعض هذه الوفود يصغي ثم ينصرف وبعضهم يخشى عدوان حكومة قريش فيبتعد. .

وعلى أية حال فلم تتح حكومة قريش لأحد منهم أن يتحدث إلى محمد أبداً حتى جاء رجل حكيم من بني غافر، مثقل القلب بصلف السادة الاغنياء.. حالماً بالخلاص من كل المظالم التي يراها..

وذات مساء اضطجع هذا الرجل الغفاري قريباً من الكعبة، فرآه علي بن أبي طالب، ولاحظ أنه وحيد رقيق الحال فسأله:

«كأن الرجل غريب؟».

ثم استضافه علي، فبات الرجل عنده.. ثم أصبح فلم يجده..

وفي المساء عاد الرجل الى بيت علي.. كان وجهه النحيل يحمل ذلك الحزن الغامض الذي يرسمه طول التأمل..

وقال له علي:

«ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد».

فقال الرجل:

«ان أعطيتني عهداً وميثاقاً أن ترشدني فعلت».

وعاهده علي أن يرشده وأن يكتم عليه أمره.

فقال الرجل انه سمع عن محمد فجاء يلتمسه، ولكنه وجد ما تصنعه حكومة قريش بالغرباء الذين يقابلونه فخشي أن يسأل عنه.

فقال علي: «من أنت ومن أين؟».

قال الرجل: «اسمي أبو ذر وقبيلتي غفار»..

وقام علي من فوره ليصحب أبا ذر الغفاري الى محمد وهمس له:

«اتبعني، وادخل حيث أدخل فان رأيت أحداً أخافه عليك دنوت من الحائط كأني أقضي حاجة فامض أنت».

وانطلقا حتى لقيا محمداً.. فشرح محمد تعاليمه لأبي ذر الغفاري.

وزاره أبو ذر في الليلة التالية سالكاً نفس الطريق اليه بصحبة علي..

سأله عن موقف التعاليم الجديدة من العبيد والمرابين والمتكبرين ومن النساء والفقراء والمضطهدين..

وتعود أن يزوره مع علي في الليالي التالية..

سأله عن كل ما يشغله.. من العدل والمساواة، وحق المحروم في مال الغني.. ووجد أبو ذر في التعاليم الجديدة جواباً لكل ما يسأل عنه. هو ذا ما يريد أبو ذر: حرية الانسان أمام الآلهة.؟ لا آلهة بعد.. أما الذين استضعفوا في الأرض فان هذه التعاليم ستجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين.

وأعلن أبو ذر الغفاري أنه ليؤمن بكل هذه التعاليم.. وسيحملها الى قومه بني غفار.

فقال له محمد وهو يودعه:

«يا أبا ذر ارجع الى قومك فاخبرهم واكتم أمرك على أهل مكة فاني أخشاهم عليك».

ولكن أبا ذر خرج الى الكعبة، فوجد حولها رجالاً من قريش، فدعاهم الى الاسلام!.

وانقض الرجال على هذا الغريب الذي يتحدى حكومة قريش وظلوا يضربونه حتى لقد أشرف على الموت، لولا أن العباس بن عبد المطلب صرخ في الناس وهو يدفعهم «ويلكم ألستم تعلمون أنه من بني غفار وأن طريق تجارتكم الى الشام عليهم».. فرفعوا أيديهم عنه خشية أن يموت فيقطع بنو غفار طريق تجارتهم الى الشام ثأراً لأبي ذر..

وانطلق أبو ذر الغفاري الى قومه، يحمل اليهم التعاليم التي حلم بها طويلاً، والدعوة الى العدل والمساواة تملأ الآن كل وجدانه.

ما الحيلة في محمد بعد..؟

ما زال أبو طالب يحميه، وبنو هاشم اذا جد الجد ينتصرون له.. وها هي ذي دعوته تتسلق أسوار مكة وهضابها لتشيع في القبائل الأخرى: دوس، وبني غفار.. ومن يدري ماذا يحدث غداً..

ومحمد يتلو تعاليمه في المسجد ولا يبالي..

ويمضي رجال قريش الى عمه لآخر مرة ليروا معه رأياً في أمر محمد.. ولكن أبا

طالب مريض قد اشتدت عليه العلة.. ومحمد الى جواره يدعوه وهو على فراش الموت أن يؤمن بما جاء به..

ثم مات أبو طالب..

مات فسقط عن أعداء محمد حرج كبير.. فقد كانوا في النهاية يحسبون لأبي طالب بعض الحساب.. ولئن كانوا قد قاطعوه مع سائر بني هاشم، فان حياءهم منه منعهم أن يبلغوا من محمد ما يريدون..

ومضى محمد الى بيته مهموماً يبكي عمه.. فوجد اليد التي تعودت ان تمسح دموعه ترتعد هي الاخرى تحت وطأة الألم..

كانت خديجة مريضة منهكة..

وسقطت ميتة بعد أن مات أبو طالب بأيام..

في أيام قلائل يفقد محمد عمه الذي رباه، وزوجته التي شاركته فرح الحياة وعذابها أكثر من عشرين عاماً.

وشعر محمد أن المسرات تتخلى عنه. وان بهاء الحياة يغيض وكأنما تنهار في أعماقه الضلوع..

وانحنى يبكي على قبر خديجة.. ويبكي..

وعندما أخذه أصحابه وأهله الى البيت،ظل واجماً.. لا يتكلم. الزفرات تتصاعد. والدموع تسيل من عينيه.

ما الذي أعدت له الحياة بعد..؟

لكم عانى عمه من أجله، وكم ذا عانت خديجة..

وها هو ذا يلقى نفسه واحداً آخر الأمر، زايله ظل عمه، وسيأوي من بيته الى فراش بارد، تنوح فيه الذكريات.

ونصحه بعض صحبه أن يتزوج امرأة شابة تعوضه عن فقد خديجة.. ولكنه أبى!!

لقد عاش معها هذه الأعوام جميعها، وكبرت سنها ودهمتها الشيخوخة، فلم يفجعها بضرة على كثرة ما نزعت اليه النساء.

غير أن المهاجرين الى الحبشة عادوا فجأة.

فقد اضطربت الامور بالنجاشي الذي يحميهم، وحملت اليهم الأنباء أن الحال في مكة قد تغير.. عادت ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان.. وعاد صديقه عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير.. كلهم عادوا بزوجاتهم.. الا القليل دفنوا هناك تحت أرض الحبشة.. وعادت من بينهم امرأة وحيدة تركت زوجها تحت التراب هناك، وما برحت تشكو بعده الحاجة والوحدة.. فعرض محمد على غير واحد من صحبه أن يأسو جراحها ويتزوجها ولكن المرأة لم ترق لأحد.. فخطبها هو لنفسه عسى أن يكون في هذا عزاء لها..

ولم تصبر عليه قريش حتى يمسح دموعه.. فما كاد يفجع بأبي طالب وخديجة حتى انقضت مكة على أنصاره الذين عادوا من الحبشة، تطارد تجارتهم وتعذب منهم من يقع في يدها.

من جديد يعود عصر آخر للعذاب!!.

وتمنى محمد لو أنه استطاع أن يجد قبيلة تؤمن بدعوته، وتدعوه اليها هو والذين اتبعوه.. لو ان بني الغفار، أو دوس.. تحتضن هذه التعاليم فستخلصه هو وأتباعه من عذاب الحياة في مكة..

ولكنه لم يظفر بدعوة من غفار ولا دوس..

وأغراه عمه العباس أن يذهب الى الطائف.. فهناك تعيش ثقيف ولعمه صداقة مع بعض ساداتها وله فيها مزارع واسعة من أعناب وزيتون.. وعبيد وأجراء وزراع ونساء ضائعات!

سيجد في الطائف من يسمع له إذاً وسيجد من يمنعه اكراماً لعمه العباس.
وصحب غلامه زيد بن حارثة، وسارا الى الطائف.

ولاح النخيل له ومزارع الكرم، وخضرة الزيتون من بعيد.. ها هي ذي مشارف الطائف، وأسوارها الشاهقة البيضاء.
وامتلأ صدره بعطر الحقول وسط وهج الصحراء..

وأشرق وجهه فجأة وشعر بالطمأنينـة تزحف اليه، وتغمر كل أعماقه.

قد يجد في الطائف ظلاً يعوضه عن وهج الرمضاء، وأنصاراً يعتز بهم وينشرون دعوته.

سيجد هنا الأمن، والراحة التي ينشدها القلب. . هنا في بلاد الكرم.

ومن يدري، ربما ارتفعت من هذه الخضرة، راية تعاليمه الجديدة!!

١٠

طريد أنت يا ولدي، مسكين معذب كالمبشرين الأوائل!.

أيمكن إذاً للجذوة التي اشتعلت في قلبك، أن تنطفىء فجأة، فيضيع كل شيء. ويطويه الدجى المترامي في هذه الصحارى الشاسعة التي يصفر فيها الخواء والكيد والمنكر؟!.

أيمكن ان تسقط تعاليمك وتنطمس تحت الرمال التي تقوم عليها آلهة ذهبية تسطع تحت وهج الشمس، ويظل الانسان مهدراً ممزقاً، يقطع من لحمه بلا حساب، ويبتذل عرقه واباؤه؟!.

أتصبح أنت يا أبا القاسم ذكرى تطوف على قلوب المستضعفين كالحلم السعيد المتبدد ولا تثير غير ابتسامة السخرية على شفاه المتسلطين؟.

أممكن هذا إذاً؟.

ولكنك لسْت كالمبشرين الأوائل المضيعين..

لقد جئت بشيء آخر مختلف واستقبلت عصرك بطريقة أخرى.. لا ابن سنان ولا ابن نقيل ولا أحد على الاطلاق جاء على حين ينتظره الزمن كما جئت أنت بشفاء للنفوس مما نجد، مستجيباً للاحتياجات المادية والوجدانية..

لا أحد من هؤلاء المبشرين الذين يحزنك مصيرهم، وجد من المؤمنين بتعاليمه قدر ما وجدت أنت، ومثل ما وجدت أنت. مؤمنون يستعذبون الألم ولا يحنون الرأس أبداً.. ومع ذلك فما من أحد من هؤلاء المبشرين لقي مثل ما تلقى من الأذى والجحود والعنت..

ولشد ما سخرت به الطائف، وخذلته.

ولشد ما سحقت أحلامه، وأدمته حتى القدمين.

العبيد والأجراء والضعفاء الذين يحمل لهم الخلاص، ويدعوهم الى الحرية، هم الذي يطاردونه بالسخرية والزراية والحجارة!!

لكم هو زهيب ومعذب ومذهل، أن يلقى مثل هذا من الذين جاء لينتشلهم.

وأصدقاء عمه العباس تنكروا له ورفضوه، مجاملة لـلآخرين من تجـار قريش، وحرصاً على استمرار قبضتهم على أعناق العبيد الأجراء..

علموا قبل أن يأتي اليهم أنه يحرم الربا، ويستنكر الخمر، ويحض الناس على كراهية لحم الخنزير.. وكانت أموالهم تتكدس من الربا.. وكانت خير تجارة يكسبون منها هي الخنزير الذي يملأ مراعي الطائف والخمر الذي تنتجه الكروم هناك، وأدركوا أن وجوده بينهم سيغري الضعفاء والفقراء بأن يطالبوا بما يسميه هو حقهم المعلوم في أموال الأغنياء.. فنبذوه وأغروا به العبيد والصنائع يلاحقونه في كل طريق ويسدون آذانهم اذا همّ بأن يتكلم ويقذفونه بالحجارة المسنونة..

وسال دمه.. وظل دمه يسيل على أرض الطائف، وهم يطاردونه بالحجارة.

وأعلن أنه عائد الى مكة، فليكف عنه السادة كلاب الصيد..

واستدار راجعاً الى مكة وهو يناشدهم أن يكتموا عليه ما كان منهم حتى لا يشمت به أعداؤه من قريش ويغرون بايذائه من جديد.

ولكن ثقيفاً أصحاب الطائف أبوا أن يكتموا أمره وأقسموا أن يشهروا به.

وجر قدميه الداميتين، ومن ورائه زيد بن حارثة، يغالب دمعه..

وجلس محمد وفتاه.. تحت ظل جدار يعالج جرحه ويستريح ويريح فتاه..

كانت نظراته التي غام عليهـا الدمـع تقتحم التيه الممتـد أمامـه بصفرة الـرمال كالضياع.

وفي أعماقه يتردد صدى بعيد من كلمات عمه أبي طالب التي أوصى بها سادة قريش وهو على فراش الموت: «أوصيكم بمحمد خيراً فانه الأمين في قريش والصديق

في العرب. . لكأني أنظر الى صعاليك العرب وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصار رؤساء قريش وصناديدها أذناباً وضعفاؤها أرباباً وقد أعطت له العرب قيادها. . دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم. . كونوا له حماة». .

ولكن أبا طالب قد مات، ولم يسمع نصيحته أحد من معشر قريش. .

وأهل البر، والمنضعفون والصعاليك في الطائف، يرفضونه ويؤذونه ويطردونه ويمنعون عنه الطعام. . والماء. . ويقسمون أن يبلغوا سفهاء قريش بكل ما كان ليبتدره السفهاء في وطنه بالأذى مرة أخرى.

ماذا تحمل له الحياة في مكة غداً. .

لقد مات عمه الذي منع عنه كثيراً من الأذى وماتت زوجته خديجة التي حملت عنه كثيراً من الضنى.

وليس لعمه العباس مثل هيبة عمه أبي طالب، وما زوجته الجديدة «سودة» بالتي تستطيع أن تعوضه عن خديجة شيئاً.

وصحابه العائدون من الحبشة يلقون من التعذيب ما لا قبل لهم به. . وحكومة قريش بكل أجهزتها وسلطانها تنطلق الآن كوحش مسعور تبطش بمن اتبعه في مكة وبمن يحاول أن يتصل به من الغرباء. . غير عابئة بحمزة ولا بعمر. . وماذا يستطيع حمزة وعمر وعدة عشرات أن يصنعوا في مواجهة آلاف يلهبهم الخوف على مصالحهم والاحساس الجنوني بالانهيار.

ولم يكد محمد وفتاه يستريحان تحت ظل الجدار وقد توقف انصباب الدم من قدميه، حتى عاوده مطاردوه فانقضوا عليه، وجذبوه، ودفعوا به قسراً فمشى، وهم يرجمونه ويتضاحكون.

والدم ينزف من جديد. . حتى خرج من الطائف كلها، فاستلقى وحيداً أمام أسوارها المنيعة البيضاء تتصاعد الزفرات من حبة قلبه وهمهم يدعو ربه: «الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهمني أم الى عدو ملكته أمري؟. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي».

ثم أخذ بيد فتاه، وانطلقا . .

سيعرض امره على آخرين .

سيقتحم السدود التي أقامتها حكومة قريش بينه وبين الغرباء . . وليتحمل كل ما تمكن أن تصنعه به قريش .

ان ثيابه هو الذي يعطف اليه القلوب ويملأ نفوس أشد المنكرين له، اعجاباً به . .

ومشى بقامته المعتدلة الممتلئة فاقتحم مجلساً حول الكعبة ازدحم ببعض التجار الغرباء . .

كانت أنباء رحلته الى الطائف قد سبقته الى مكة، فاستعد أعداؤه فيها للقائه بألوان من الأذى لم يعرفها من قبل . . ولكنه كان قد قرر ألا يبالي ! . .

وأخذ يشرح تعاليمه للتجار الغرباء ويدعوهم الى الايمان بالاسلام الذي جاء به . . وتركهم يفكرون ثم انصرف . .

وعلم أعداؤه من رجال حكومة قريش بما صنعه فخفوا سراعاً الى الكعبة . . وتشاوروا في أمرهم ثم أقسموا أن ينتظروه من غد .

وفي الغد عاد محمد بكل ثقته واصراره على أن يواجه قريشاً ولا يبالي . .

ومر بهم وهم في مكانهم من الكعبة فتغامزوا عليه وأدرك محمد انهم يدبرون له أمراً .

وكان مقبلاً وحده، وهم عدة عشرات من سادة قريش وفرسانها وسفهائها . . فانقض عليهم قائلاً :

«يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح !»

بالذبح . . !؟ .

باسم ماذا يتحداهم الى هذا الحد . . انه ليقتحم وحده مجلس القوم، وليس الى جواره أحد . . لا حمزة ولا عمر . . ولا أحد يمكن ان يرهب به الآخرين . .

وذهل الجالسون من المفاجأة فلم يتكلموا .

وقال له أبو جهل متلطفاً .

«يا محمد.. ما كنت جهولاً»..

عسى أن يعتذر محمد للسادة أو يقول ما يقنع الغرباء الجالسين أنه انما يعني السفهاء وحدهم..

ولكن محمداً أجابه وهو ينصرف مشمئزاً منه:

«يا أبا جهل.. أنت منهم»..

وصمم سادة قريش على أن يحدثوا به ما يجعله أمثولة أمام الغرباء فلا يستعلي عليهم بعد بشجاعة قلبه، ولا يقوى على أن يواجه أحداً منهم باهانة..

وما لهم لا يصنعون به كما صنعت ثقيف عندما زار الطائف..؟

واحتشدوا بشجعانهم وفرسانهم وسفهائهم.

وأقبل محمد على الكعبة من اليوم التالي كما تعود..

وتركوه حتى اتجه الى المقام فوثبوا عليه وهو قائم يصلي بالمحراب.

وثبوا عليه كلهم دفعة واحدة..

ولف عتبة بن ربيعة رداء محمد حول عنقه الذي كان يجنيه خاشعاً أثناء الصلاة، ثم جذبه فسقط على ركبتيه.. وانهالوا عليه كلهم يكيلون له الضربات.

وتعالي صياح بعض الناس في المسجد وأرسلوا الى حمزة وعمر لينجدا صاحبهما، لكن مكة لم يكن فيها من صحبه غير أبي بكر، فأقبل مسرعاً ينحي المعتدين عن صديقه محمد، ومحمد يدفعهم بيديه..

وحين انفلت محمد من أيديهم أنذرهم مرة أخرى «أنه سيذبحهم أجمعين».

ومضى، وبقي أبو بكر، فوثبوا به وضربوه وظل عتبة يضربه بالنعل على وجهه، حتى أقبل رجال من عشيرة أبي بكر، فاستخلصوه من أيدي المعتدين..

وهكذا أخذت قريش تشرع النعال امعاناً في الزراية والأذى..

فأخذ محمد ينذرهم بعذاب الحريق.. وانه لعذاب غليظ يصهر به ما في بطونهم والجلود..

ولكنه عاد الى بيته في ذلك اليوم بعد أن أوذي هو وصديقه أبو بكر، فاستقبلته احدى بناته باكية..

كانت ثيابه ممزقة، ووجهه المتورد شاحباً موجعاً مما تلقى من الضربات وعلى رأسه تراب قذفه به السفهاء..

وغسلت له ابنته رأسه وضمدت جراحه ورتقت له ثوبه.. وهي تبكي في صمت.
أين يد أمها الحانية..
الزوجة شيء آخر..

واقترحت عليه أن يتخذ له زوجة تعوضه بعض ما فقد، فسودة امرأة مسنة لا حيلة لها..

وعرضت عليه ابنته أن يتزوج عائشة بنت صديقه أبي بكر..

ولكنها صغيرة جداً، هذه الفتاة الجميلة ذات الشعر الأحمر، والحس المرهف..

على أنه خطبها واستبقاها في بيت أبيها حتى تؤذن الظروف بالزواج..

ومضى يعلن أصحابه ببدء مرحلة أخرى من العمل الدائب المستمر..

سيخرج الى أسواق التجارة.. عكاظ وذي المجاز وغيرها ليخطب في الناس كما صنع المبشرون الأوائل وكما يصنع الآن شعراء يتفاخرون ورهبان وكهان..

سيعرض الاسلام على الآخرين كما يعرضون هم أشعارهم وأفكارهم..

ولا بد أن يجد في النهاية قبيلة ينتصر بها، ويقيم عندها.. وتحب دعوته فيجعلها قاعدة مطمئنة يتجه منها الى العرب أجمعين..

وصحب معه أبا بكر، ليتعرف على الوفود وأنسابها. فهو مثقف يعرف كل أخبار العرب..

وفي أحد الأسواق تقدم محمد وأبو بكر الى أحد الوفود واستبق أبو بكر فسلم وسأل:

من القوم؟.

فقال الناطق باسمهم:
من شبان بن ثعلبة؟.

وتعرف عليهم أبو بكر وعدّد لهم كثيراً من مفاخر قومهم، فطربوا.. ثم سألهم:
«كيف الحرب والمتعة فيكم؟».
فقال الناطق باسمهم:
«انا لنؤثر السلاح على اللقاح والجياد على الأولاد».

فعرفهم أبو بكر بمحمد.. وتقدم محمد يعرض عليهم الاسلام.. تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم.. ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق.. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن..
فقال له قائلهم: «والام تدعو أيضاً يا أخا قريش».

فقال لهم انه يدعو الى العدل، والى الاحسان، والى ايتاء ذي القربى والى اجتناب الفواحش والمنكر والبغي.
ونظر الناس فاذا بأبي لهب يقف بينهم في ملابسه الفاخرة ويقول:
«يا أيها الناس لا تسمعوا منه فانه كذاب».
والى جوار أبي لهب يقف عبد له، يحاول أن يرجم محمداً..

وسأل القوم عن الرجل، واذ عرفوا أنه عم محمد يصحب عبده ويحرضه على ابن أخيه، وأنه ما زال يزري به أمام الأغراب، أنكروا في أنفسهم ما يصنعه أبو لهب بابن أخيه، ورأوا في سلوكه نذالة لا تليق بعربي شريف.. فدفعوا العبد عن محمد وهم يقولون:
«لقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك».
فسألهم محمد أن يأووه، وينصروه.. ولكن القوم قالوا له انهم ينزلون في أرض يحكم نصفها كسرى فهم لا يستطيعون أن يأووه في هذا النصف من أرضهم حتى يأذن لهم كسرى.

كسرى..؟ الى متى يظل كسرى يحكم أجزاء من بلاد العرب.؟
والى متى تظل هذه الأرض تحت سيطرة الروم..؟

متى إذا يلقي العرب كل هذه الأغلال ويصبحون أحراراً في أرضهم.. اخواناً يعمر الحب قلوبهم..؟

لو أنه وجدقوماً ينصرونه ويأوونه، فمن الممكن ان تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الاغراب، ويصبح العرب كلهم أمة واحدة يؤمنون بنفس الأشياء، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الأكاسرة والقياصرة..

وقال لهم محمد: «أرأيتم ان لم تلبثوا الا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم؟»..

ولشد ما يبهرهم هذا.. ليتهم يتبعونه.. لقد وعدوه أن يفكروا في الأمر.. وانصرفوا الى ديارهم. أما هو فمضى يحدث كل وفد يلقاه..

وأقبل عليه نساءكن يفدن الى المواسم مع النخاسين ليقمن الليالي الصاخبة ويبعن المتاع.. ولم يعرض عنهن، بل عرض عليهن تعاليمه فبايعنه.. وعاهدنه ألا يزنين ولا يسرقن ولا يأتين ببهتان ولا يتركن أحداً يستمتع بواحدة منهن في غير زواج ولو بقبلة أو لمسة..

وانطلقن هاربات من قيود النخاسين وتجار الرقيق، باحثات عن حياة جديدة حرة في أحضان رجال صالحين من أجل تكوين الأسرة..

وظل يعرض نفسه على وفود القبائل المختلفة التي تتخذ لنفسها آلهة..

فأما كلب وبنو حنيفة فقد ردوه رداً منكراً وأما بنو عامر فقد سألوه:

«أرأيت ان نحن بايعناك وآويناك ثم ظهرت بنا أيكون لنا الأمر من بعدك؟»..

ولكنه لا يدعو الى ملكية يقسم مغانمها منذ اليوم.

وعبثاً حاول أن يشرح لهم.. فقد انصرفوا عنه قائلين:

«أفنجعل نحورنا هدفاً لسهام العرب دونك، فاذا ظهرت كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بك»..

وهكذا. من وفد الى وفد.. كل وفد يعتذر بشيء.. فما يبايعه الا بعض العبيد والنساء والمستضعفين والأجراء.. حتى لقي وفداً من يثرب فسألهم:

«من أنتم؟».

فقالوا:

«نفر من الخزرج».

فقال لهم:

«ألا تجلسون حتى أكلمكم!».

وجلس يكلمهم ويدعوهم الى الاسلام الذي جاء به والى أن يأووه وينصروه فبايعه منهم ستة رجال وامرأة.. وعاهدوه ألا يزنوا وألا يسرقوا وألا يأتوا ببهتان وألا يطغوا في الميزان، وألا يقتلوا أولادهم.

على أنهم عادوا الى يثرب، فدعوا الناس هناك الى أن يتابعوا محمداً وأن يأووه وينتصروا له.. واستجاب لهم كثير من قومهم.. فقد كانوا من الحكماء..

وشاع في يثرب أمر الدعوة التي حملها وفدهم عن محمد، فقامت الأوس تتساءل.. الأوس هي القبيلة الأخرى التي تنافس الخزرج في يثرب.. واقتنع من الاوس.. بعض الرجال.. ثم ذهب وفد كبير منهم الى السوق فلقوا محمداً وتحدثوا اليه.. وبايعوه.

وعرفت مكة ما كان من أمر الأوس والخزرج، فأرسلت اليهم في يثرب من يحذرهم، ولكنهم لم يبالوا..

ولم تستطع حكومة قريش ان تصنع شيئاً مع أهل يثرب فقد كانت في يثرب وحدها تجارة السلاح.. وحي الصناعة.. أسواق الذهب.. وتجارة الطعام. ويثرب ـ على خلاف مكة ـ واحة خصيبة ذات حقول. فجزء كبير من تجارة مكة وغناها على حسن العلاقات بيثرب.

وها هي ذي إذاً آخر المطاف، القلعة التي حلم محمد بأن يمتنع فيها هو وصحبه وينتصر بها وينشر منها دعوته الى العالمين.. الى القبائل المتفرقة في الجزيرة، والى حيث يحكم الفرس والروم، والى كل مكان ما يزال يمتهن فيه الانسان، ويهدر عمله.

وأدركت قريش أن محمداً سيظهر عليهم بأهل يثرب هؤلاء فقرروا أن يعزلوه عن أنصاره في مكة..

وعكفوا على هؤلاء الأتباع يعذبونهم كما لم يعذبوا من قبل، فلا يتركون الواحد منهم حتى يموت أو يعلن أنه تخلى عن محمد. .

وهكذا فتنوا كثيرين. . حتى من الذين كانوا قد هاجروا الى الحبشة وتحملوا العذاب من قبل ثم عناء الغربة والنفي. .

ونصح محمد الذين يخشون العذاب والفتنة ممن اتبعوه، أن يهاجروا من مكة الى يثرب.

ثم ارسل مصعب بن عمير الى أهل يثرب يخبرهم بالهجرة ويهيئهم لاستقبال المهاجرين. .

وقبلت يثرب أن تأوي كل من يريد ان يهاجر اليها. .

وعاد مصعب يحمل النبأ الى محمد ثم جاء رجال من يثرب فتعاهدوا جميعاً على أن يقاتلوا المعتدين جنباً الى جنب. .

وبدأ المهاجرون يخرجون متخفين، ليلقاهم المسلمون الجدد من الأوس والخزرج مرحبين يتنافسون على ايوائهم واكرامهم.

وخرج مصعب الى يثرب مهاجراً، وهو أعز الولد على أبويه. . يكسوانه أجمل الثياب ويمنحانه أزكى العطور. .

جزعت أمه وظلت تبكي وأقسمت ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يعود اليها، وأخذت تقف في الشمس حتى تسقط مغشياً عليها. .

وأرسلت قريش وراء المهاجرين من يحاول أن يردهم بالاغراء أو بالوعيد، ولكنها لم تفلح في رد أحد منهم. . وحتى مصعب الذي كان يحب أمه أكثر من أي شيء آخر، رفض العودة الى مكة على الرغم مما سمعه عن أمه. وقال لمن جاء يستعطفه:

«انها ستأوي الى الظل ان اشتدت عليها رمضاء مكة، وستأكل ان قرصها الجوع».

وحين فشلت قريش في استرداد من هاجر منها، شددت الحصار على من بقي، فأقامت جواسيسها على مخارج مكة. . لتمنع أنصار محمد بالقوة من الهرب الى يثرب. .

وأمر محمد أتباعه أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم وان كان قد طالب الضعفاء منهم بأن يحتالوا للخروج. .

وكان يعرف الآن أنه يستطيع ان يقاتل سادة مكة جميعاً لو أن كل اتباعه من قريش هاجروا وانضموا الى أنصاره الجدد في يثرب. .

وتدافع الناس ارسالاً على يثرب، بعضهم يخرج متخفياً وبعضهم يتهيأ للقتال ان اعترضته احدى سرايا قريش التي جهزت بالسلاح لمنع الهجرة. .
ويوماً بعد يوم كان معظم أصحاب محمد قد هاجروا. .

منهم من ترك الزوجة والأولاد لكيلا يتعرض النساء لأذى جنود قريش ومنهم من صحب أهله، فلقي النساء ما لم يلقينه من قبل أبداً. .

ولم يعد في مكة غير حمزة وعمر وعلي وأبو بكر. . وعدد قليل من أتباع محمد الذين لم يستطيعوا ان يحتالوا للهجرة. . ثم محمد نفسه.

وخرج حمزة مع بعض النفر. . واستحيا أن يخرج متخفياً. . خرج مستعداً للقتال اذا اعتدى عليه أحد. ولكن أحداً لم يجرؤ على أن يسأل الى أين يمضي.

وتقلد عمر بن الخطاب سيفه، ووضع قوسه على كاهله، وأمسك في يديه أسهمها، ومضى الى الكعبة والملأ من قريش في فنائها. .
ووقف على الجالسين قائلاً:

«من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي» فلم يجبه أحد.
وخرج فامتطى راحلته. . ومضى.
فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين.

كانوا يريدون الهجرة ولا يجدون الوسيلة. . فقادهم عمر الى يثرب.

وهكذا لم يعد في مكة من المسلمين غير أبي بكر، وعلي بن أبي طالب. . ومحمد نفسه. .

ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة، حتى لقد سأل أبو بكر صديقه متى

الرحيل فطلب منه أن يصبر وألا يحدثه في هذا الأمر بعد.

ولكن قريشاً أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن أن يفلت منها. . وأن محمداً يبالغ في الكتمان لأنه يدبر أمراً.

ولئن انضم محمد الى صحابه واعتصموا بيثرب. . فستأتي الأيام الشداد إذاً. .

ودبرت قريش أمراً. .

١١

عندما بلغ السن التي يجب ان يستريح فيها الانسان، ويتمتع بثمرات كفاحه الماضي، وكان عليه أن يرحل!..

كان عليه وهو في الثالثة والخمسين أن يترك وطنه، وعشيرته، وذكرياته وكل الاشياء التي خفق لها قلبه ذات يوم، ليبحث عن المستقبل في أرض جديدة، لم تطأها قدماه من قبل.

ومع ذلك، فما أكثر ما يواجهه من سخرية الحياة في وطنه..

إن الحياة لتسلمه اليوم، هو بكل تعاليمه ومصيره، وبدمه نفسه، الى أبطش عدو به، وأبغضهم اليه.. الى عمه أبي لهب..!

فمنذ مات عمه الباسل أبو طالب، أصبح عمه أبو لهب، سيداً للعشيرة فهو بعد أبي طالب أكبر رجالها سناً، وانهم ليمتثلون جميعاً لما يقضي به..
فأي قضاء يمكن أن ينزله به أبو لهب..؟

لئن سكت اليوم عنه، فلن يمضي عام أو بعض عام حتى يخلعه، كما تعودت القبائل ان تخلع سفهاءها.
لكم كابد أبو طالب لكيلا يخذله!.

ابتلي بالجوع، فما استسلم. حاصرته القطيعة وأنهكته قسوة قريش وجحود أخيه أبي لهب، فما تخلى عن محمد. أما أبو لهب خليفته على رئاسة عشيرة محمد، فلن ينصر محمداً أبداً..

على أن عمه العباس يقوم الآن منه مقام عمه الراحل أبي طالب.. انه لم يؤمن به بعد، ولكنه يحرس دمه، بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ في قريش ومهما يكن من فشله مع محمد في الطائف فهو قادر دائماً على أن يحميه في مكة.. وهو من أجل ذلك يخرج معه الى لقاء سري مع وفد يثرب على تل العقبة، ليستوثق أن أهل يثرب جادون وأنهم لن يتخلوا عنه مهما يصيبهم..

ويقول لهم العباس مشفقاً على مستقبل ابن أخيه.

ـ ان محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ولكنه أبى الا الانحياز اليكم واللحاق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه، ومانعوه ممن خالفه، فانتم وما تحملتم في ذلك، وان كنتم ترون أنكم مسلمون وخاذلوه بعد الخروج به اليكم، فدعوه من الآن، فانه في عز ومنعة من قومه وبلده..

وأكد أهل يثرب أنهم مانعوه وأنهم وافون بما دعوه اليه..

وأنهم ليحاربون من عاداه.. وما جاءوا في الحق إلا ليستعجلوه في الخروج اليهم، بعد ما خرج صحبه، ونزلوا منهم في يثرب منزلاً كريماً..

وبدأ محمد يستعد للرحلة.. لقد رحل كل صحبه منذ الصيف. والخريف يقبل الآن على مكة بانسامه الرطيبة والتجار يستعدون لرحلة الشتاء.. ومنهم من يذهب الى محمد في بيته ليودع عنده ما يخاف عليه، كما تعود التجار دائماً أن يصنعوا معه.. فهو على الرغم من كل شيء ما يزال فيهم هو الأمين..

ولم يشأ محمد أن يرد التجار الذين تعودوا أن يلجأوا اليه في كل موسم حتى لا يثير الريب.. ومن يدري؟ فربما عادت رحلة الشتاء قبل أن يلحق هو بصحبه وأنصاره في يثرب..؟

ولكن سادة قريش كانوا في قلق مما يحمله اليهم الغد.. فلقد هاجر كل أصحاب محمد منذ الصيف.. وصفى التجار منهم حسابهم وحملوا أموالاً طائلة الى يثرب.. وقد أحدث سحب كل هذا المال، هزة في ميزان الحياة التجارية القريشية..

لقد حمل كل هذا الغنى الى يثرب لتستعلي بتجارتها بعد علي مكة.

وهكذا يؤلف محمد شيعة من الأغنياء في بلد منافس، ويصيب هناك المنعة..

ومن يدري، فربما هدد تجارتهم وطرق قوافلهم فيما بعد.. وربما أصبحت يثرب هذه هي كعبة التجار العرب، فدالت دولة قريش!.

واجتمع في الكعبة سادة قريش جميعاً فأجمعوا أمرهم: أن يتخلصوا من محمد.

ووافقوا على ما اقترحه أبو جهل: «أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جيداً نسبياً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالدية، فدفعناها لهم».

وبلغ محمداً ماتآمروا به عليه، فخف من فوره الى صديقه أبي بكر وقت الظهيرة في ساعة لم يكن قد تعود أن يزور فيها أحداً..

ودخل فوجد أبا بكر بين ابنتيه أسماء وعائشة..

وقال أبو بكر مترفقاً: «انما هم أهلك»..

غير أن محمداً حرص على ألا يسمع أحد أيا ما يكن ما سيفضي به الى أبي بكر.. حتى عائشة التي عقد عليها وسيدخل بها بعد قليل!

وخرجت عائشة وأسماء، وخلا محمد الى أبي بكر فروى له كل ما بلغه.. واقترح عليه أن يهاجر الليلة..

والتزم أبو بكر بترتيب أمر الهجرة في سرية كاملة، ومضى محمد الى بيته، فطلب من علي بن أبي طالب، أن ينام الليلة في فراشه.. ثم سلمه الودائع التي تركها التجار عنده وكلفه أن يبقى بمكة يسلم الودائع الى أهلها، ثم يلحق به الى يثرب..

أما أبو بكر فقد أعد راحلتين، وخادماً يثق به، ولبث ينتظر صديقه اذا جاء الليل..

وجاء الليل على مكة، فتسلل الشباب الذين اختارهم السادة لقتل محمد وبعدوا عن الحرم حتى لا يثيروا شبهة أحد من عشيرة محمد. ثم دلفوا في دروب كثيرة ليعودوا مرة أخرى إلى جوار الحرم، حيث يقع بيت محمد الذي ورثه عن خديجة.

ووقفوا يحرسون الباب وينتظرون.. فسيخرج محمد الآن بلا ريب، ليصلي في

رحاب الكعبة كما تعود أن يصنع دائماً بعد كل غروب. . سيسلك الزقاق الضيق، حتى ينتهي الى المسجد. .

وسيقضون عليه في الزقاق الخالي، وينتهي كل شيء. .

ولكن محمداً لم يخرج. .

وجاء بعض السادة المتآمرين، ليروا. . فوجدوا الشباب يتربصون بسيوفهم وبيت محمد محكم الاغلاق. . ليس وراء بابه المغلق حركة.

كان علي بن أبي طالب يعرف الدور الذي ينهض به، ولقد استلقى في فراش ابن عمه وجر عليه بردته. . وفي حجرة أخرى من حجرات البيت اضطجعت سودة الزوجة الجديدة التي لم يستطع محمد أبداً أن يحملها الى فراش زوجته الراحلة خديجة وفي الحجرة الثالثة من الحجرات الأربع. . جلست فاطمة، وفي صدرها قلق مبهم. . لم تكن تعرف شيئاً على الاطلاق. . ولكنها لم تستطع أن تنام. . وكانت أختها الكبرى أم كلثوم هي الأخرى تشعر بمثل هذا القلق. . وقد أخذت تسير من حجرتها التي تعودت أن تنام فيها مع أختها فاطمة الى الحجرة التي تعود أبوها أن يخلو فيها الى نفسه أو يلقى فيها ضيفه. . ولحقت بها فاطمة. . فوقفت الأختان في بهو الدار: نبضات القلب تقرع الصمت. . وكل شيء ساكن في الليل الداجي!.

أي شيء غامض يحدث الآن؟. لقد ذهب أبوهما وطلب منهما ألا يسألوه عن شيء فسيفسر لهما على من غده كل شيء. .

وطال الانتظار بالذين يتربصون خارج البيت، ويئسوا من خروج محمد، فاقترح واحد منهم ان يدخلوا الدار، فيقتلوا محمداً في فراشه. . ودفعوا باب الدار، وهمّ بعضهم بأن يتسلق الجدار الخارجي المنخفض، ولكن صرخات الفزع انطلقت من داخل الدار، فجمدوا في أماكنهم. . ربما سمع أحد من عشيرة محمد هذه الصرخات المستنجدة، فأقبلوا مسرعين فلا يتمكن المتآمرون من تنفيذ ما اتفقوا عليه. .

وابتعدوا عن الباب والجدران. . وقال واحد منهم والخجل يجلل صوته:

ـ انها لسبة في العرب أن يقول الناس عنا إننا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا.

وقرروا أن ينتظروا حتى الصباح، فسيفتح محمد باب بيته ليخرج الى الصلاة عند الفجر. .

ولكن الفجر أقبل، ولم يخرج محمد. .

وبدأت شمس الصباح من ذلك الخريف، تلقي بأشعتها على الدرب الضيق ففتح باب البيت. . واقتحم المتآمرون الى الداخل فوجدوا علياً. . هو الذي يرقد في الفراش الآن. .

أين محمد إذاً ؟، كيف خرج. . والى أين مضى؟. . أيكون قد تسلل من كوة في ظهر بيته. .؟ أيكون قد عبر من سطح الى سطح حتى هبط بيت أبي بكر. .؟

وكيف عرف ما أعدوا له؟. أيكون أحد الذين اتفقوا بالمسجد قد رق لمحمد فأبلغه!.

ربما كان أبو البختري هو الذي ذهب الى العباس فحذره، والبختري صديق للعباس، وهو الذي نقض الصحيفة يوم وقعتها قريش وقاطعت بني عبد مناف!.

ان محمداً لمختبىء في دار أبي بكر بلا ريب. .

فليلحقوا به هناك، فيقتلوهما معاً. .

ومضوا يتدافعون الى دار أبي بكر، وشمس الخريف تغمر طرقات مكة.

كانوا متعبين من السهر مجانين من الغيظ!. .

تقدمهم ابو جهل، فقرعوا باب دار أبي بكر. . وخرجت لهم أسماء فسألوها: أين أبوك يا بنت أبي بكر.

فقالت لهم: ما أدري أين أبي. .

فلطمها أبو جهل على خدها لطمة عنيفة طرحت منها قرطها. .

وانصرف. . وانصرفوا وراءه. .

لا بد من محمد قبل أن يلحق هو وصاحبه أبو بكر، بأهل يثرب. .

ومضوا أرتالاً الى خارج مكة يفتشون في الطريق الى يثرب عن أثر محمد وصاحبه. ويسألون الناس أي طريق سلكا. .

أما محمد، فقد خرج به أبو بكر من فجوة في ظهر داره.

تجنبا الباب والطرقات المألوفة. . وأسرعا وحدهما تحت جنح الليل، حتى خرجا من مكة، حيث كان ينتظرهما خادم لأبي بكر بناقتين، ودليل أمين خبير بالطرق المهجورة وبمسالك الصحراء.

لكم يخشى أبو بكر أن تهتدي قريش اليهما. وما أكثر ما تملك قريش من رجال خبراء بالصحراء يعرفون مسالكها والطرق المهجورة فيها. .

ماذا يحدث إذاً لو أنهم عثروا عليهما؟ سيقتلونهما!.

سيقتلونه وسيقتلون صاحبه محمداً. .

أما هو. . فانه لرجل واحد يموت، ولكنهم ان قتلوا محمداً فسيقتلون أمة كاملة. . سيقتلون مستقبلاً بأسره. .

وأفضى أبو بكر الى محمد بمخاوفه وعيونه تدمع. .

فربت محمد على كتفه وسأله ألا يحزن.

ورأى محمد أن يتخفيا في بعض الكهوف حتى تخف حدة قريش في البحث عنهما. . وتيأس من العثور عليهما. .

ولجأ الى كهف قريب. . ودخل أبو بكر أولاً ليتحسس لنفسه ولمحمد. فمن يدري؟ قد ينجوان من سادة قريش فيتلقفهما وحش أو أفعى في هذا الكهف.

وحين اطمأن أبو بكر الى سلامة الكهف أخذ بيد صديقه ودخلا. .

كم من الأيام سيقيمان في هذا الغار! لا أحد يدري بعد. .

يجب ان يظلا هنا حتى تيأس قريش من البحث عنهما. .

وأمر أبو بكر خادمه أن يعود الى ابنه عبدالله فليتحسس من أخبار قريش بعدهما فيوافيهما بالأخبار كلما هبط الليل، وليرتب لهما أمر الطعام. .

وتعود عبدالله بن أبي بكر أن يوافيهما بأخبار مطارديهما وتعودت أسماء بنت أبي بكر أن تحمل الطعام اليهما في الغار وتجعل من نطاقها مائدة لهما. .

وظلوا ثلاثة أيام على هذه الحال حتى اذا يئست قريش من العثور عليهما في كل الدروب والطرق الخفية المؤدية الى يثرب، خرجا معاً، الى الفضاء العريض يخوضان معاً في الصحراء المترامية، الى المصير الغامض.

لكم يشفق ابو بكر على صديقه من هذه الرحلة. . انها حقاً لرحلة المصير.
وان فيما يعرفه من الأخبار القديمة لمآسٍ تمزق الأكباد.

فكم من المبشرين الأوائل أوشكوا أن ينجحوا، وعندما امتدت أيديهم لتمسك بالحقيقة التي نشدوها طويلاً، هبط فجأة سيف غاشم بتار، ليقطع منهم أطراف البنان. .

أيمكن بعد هذه التضحيات أيضاً ان تسقط رأس محمد، وأن يحملها الى آلهة الكعبة، فرسان قريش.

ولكن لا: فمحمد شيء آخر. .

وطالت الرحلة. . عبر دروب خفية صعبة. . والدليل صابر يخوض الرمال وكلما دنا من يثرب، شعر بأنه سيسلك طريقاً مألوفاً. فعدل الى طريق آخر شاق مستخفياً وراء الصخور الشاهقة. .

وانهم لعلى مقربة من يثرب اذ بفرسان من قريش يظهرون فجأة على قمة صخرة بعيدة. وفرح قائد الفرسان. . واندفع بحصانه الى محمد، عبر صخور جرداء وعرة منحدراً الى الاخدود. . ولكن الحصان تعثر به وأوشك أن يطرحه على الصخور فيدق عنقه. . وتشاءم قائد الفرسان. . فعاد من فوره دون أن يخبر أحداً ممن كانوا معه بما رأى!.

وأخيراً دخل محمد وأبو بكر ومعهما الدليل الى مناطق الحلفاء.

من هذه الخيام التي تنتشر خارج يثرب جاء رجال الى مكة ذات يوم فبايعوه. وخرجوا اليه متهللين وطالبوه بأن ينزل عندهم وسيمنعونه كأهل يثرب. . ولكنه شكر لهم حسن استقبالهم وسألهم أن يتركوه ليصل الى يثرب، حيث ينتظره الأنصار من أهلها وصحبه المهاجرون. .

فليتركوا ناقته تنخ حيث تشاء فانها لمأمورة.

ولاحت له يثرب، بنخيلها وأعنابها وحقولها الخضراء وحدائق الليمون والزيتون. .

وتقدم وفود من رجالها ومن صحبه يستقبلونه ودخل يثرب وسط الترحيب كأنما هو فاتح مظفر، لا غريب مهاجر يلتمس الملجأ والعون والأنصار!.

ويثرب مدينة كبيرة نزح اليها اليهود منذ قرون، فأقاموا بها، يزرعون الأرض الخصبة التي تسقيها جداول كثيرة تنحدر من الجبال. .

وهي واحة ضخمة تجود فيها الأرض بكثير من الثمرات. . وقد اختلط اليهود عبر السنين بسكانها ومنهم من أنشأ في يثرب معاصر للخمور ومراعي للخنازير وبيوتاً للهو.

وكان يهود يثرب ينقسمون الى ثلاث عشائر: بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير. أما بنو قينقاع فاستقلوا بحي يثرب هو حي الصاغة. .

وفي حي الصاغة هذا، يتكدس ما تملكه يثرب من الذهب، وتقع المصارف التي تقرض بالربا. . وكان كبار التجار من الجزيرة كلها يلجأون الى هذا الحي ليقترضوا عندما يحتاجون. .

وكانت قبيلة بني قينقاع هذه تملك معظم رؤوس المال التي توظف في صناعة الأسلحة وغيرها من الصناعات وفي تمويل القوافل. وفي تجارة الذهب. . وقد وجد بنو قينقاع هذا الأسلوب من الاستغلال أكثر ربحاً من استغلال الأرض.

أما اليهود الآخرون من بني النضير وبني قريظة، فقد كانوا يقدرون الجاه الذي يمنحه امتلاك الأرض في بلد يعتمد معظم اقتصاده على الزراعة. . ولهذا آثروا أن يختلطوا بالأوس والخزرج، وأن يخرجوا من أحيائهم المستقلة، وأن يوظفوا اموالهم في الزراعة، فامتلكوا الحدائق الواسعة. . وكثيراً من الحقول والمراعي.

وكان بقية سكان يثرب يشتغلون بالزراعة. . السادة من الأوس والخزرج يملكون. . والأجراء يعملون جنباً الى جنب مع عبيد الأرض. .
هنا مجتمع آخر. . أكثر تقدماً من مجتمع مكة.

هنا علاقات اجتماعية أخرى، أكثر قابلية للخضوع لتعاليم محمد. . فالمرابي اليهودي لم يكن يستطيع أن يستعبد دائنه العربي اذا عجز عن الوفاء كما كان يحدث في مكة. . بين الدائن والمدين. . وهو لم يكن له الحق في أخذ فتاة المدين أو امرأته ليكرهها على البغاء استيفاء لدينه، كما كان يحدث في قريش.

والأجير في الأرض مهما يكن حظه كان أعلى درجة من العبد المكي الذي يحرس

القوافل والمصارف. . كان يستطيع ان يختار من يبيعهم عرقه على أية حال، على عكس العبد المكي الذي كان يرسف في قيود التبعة الى الأبد. .

وحتى عبيد الأرض في يثرب، كانوا يلتصقون بالأرض نفسها وينتقلون معها من مالك الى مالك، ولم يكن المالك يملك حياة العبد، كما كان في مكة، فالزراعة في حاجة دائماً الى الأيدي العاملة. . وانما كان يملك عمله. .

يثرب شيء آخر يختلف تماماً عن مكة. . فسكانها عدد متفرق من القبائل لا يجمعون على دين واحد وهم لم يرثوا مكاناً كالكعبة، يستعلون به على العرب ويثرون مما يقدم الى أصنامهم من هدايا ومما يقام تشرفاً بها من أسواق. .

وما في يثرب كلها عشيرتان تجتمعان على شيء واحد. . حتى اليهود. . لكل عشيرة منهم مذهب ولهم فيما بينهم خلاف على تفاصيل يؤمنون بها. . والتنافس على الثروة فيما بينهم يؤجج العداوات.

والعرب من الأوس والخزرج أيضاً تنشب بينهم نفس الخلافات على نفس الأشياء. . وميزان الحياة يضطرب في كل عام يتحالف هذا القبيل مع ذلك ضد قبيل ثالث. . ثم ينقض الحلف، ويتخاصم الحلفاء ويتحالف الأعداء. . وهكذا. . دورة مستمرة لا تنقضي من الخصام والتنافس ولكل معشر حاكم خاص.

وقد أوشك أهل يثرب جميعاً أن يتفقوا للمرة الأولى على اختيار حاكم واحد هو عبدالله بن أبي بن سلول. . وبدأ هو يستعد ويهيىء جبينه لاستقبال التاج حتى كان التقاء اليثربيين بمحمد. . ثم وصول المهاجرين إليهم. . ومن ورائهم محمد. . فتوقف كل شيء. . وأسرها ابن أبي في نفسه. .

وفي هذا الخضم المتموج الزاخر بالخصومات أقبل محمد يحمل الى كل أهل يثرب نداء بالحب والأخاء. . والعدل. .

وما هي الا أيام حتى أقبل علي بن أبي طالب. . وأهل محمد وأبي بكر.

ولم يكد محمد يضع قدميه في أرض يثرب بعد رحلته الطويلة المضنية حتى أعلن أنه سيبني مسجداً.

- سيكون مسجداً ضخماً رائعاً كالذي يقوم حول الكعبة. .

وطلب محمد من كل المهاجرين والانصار ان يعملوا في بناء المسجد. . وتقدم محمد يعمل بنفسه.

واقبل الشباب من المهاجرين على العمل بحماسة يقودهم علي بـن أبي طالب وعمار بن ياسر. .

وتحرج بعض الأغنياء من العمل، ولكنهم رأوا محمداً يعمل فأقبلوا متباطئين ثقالاً كارهين وحاول محمد ان يلقي في قلوبهم احترام العمل اليدوي. . بلا جدوى.

حاول أن يقنعهم أن الثقافة والبراعة في التجارة، وأي عمل عقلي آخر لا يفضل العمل اليدوي أبداً، فلكل عمل شرفه.

وأراد علي بن أبي طالب أن يبعث الحماسة في قلوبهم فأنشد رجزاً أثناء العمل ردده وراءه الآخرون.

وارتفعت جدران المسجد على نشيد العمل. .

ومضى عمار بن ياسر يستحث بعض المتخلفين فأنشد هذا الرجز أمام جماعة منهم فيهم عثمان بن عفان، فسخروا منه ولكن عمار ظل يستحثهم، واذ ذاك برز له عثمان.

وعثمان اذ ذاك هو زوج رقية بنت محمد، وهو من أوائل الذين اتبعوه ومن أقرب صحبه اليه. . وهو فوق كل ذلك تاجر من سادات مكة واسع الغنى ولقد ضحى تجارته بمكة وضحى بالكثير وهاجر وحمل معه أمواله الطائلة ليساند بها محمداً في مهجره.

كبر على عثمان بن عفان أن يستحثه عمار. . ابن سمية التي كانت صاحبة أبي جهل قبل أن تسلم، والتي طعنها أبو جهل بحربته في عورتها حتى ماتت. .

وانقض عثمان بن عفان يهدد عمار بن ياسر بأن يضربه بعصاه على أنفه:

- لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية. . والله اني لأراني سأعـرض هذه العصا على أنفك.

وسمع محمد بما كان بين عثمان وعمار.

لماذا يستعلي ابن عفان على ابن سمية الآن إذاً؟

بم يفضله؟. أبماله، أم بزواجه من رقية. أم بمكانته في قريش؟!.

ان عماراً ليتبع التعاليم كما يتبعها عثمان، ولقد ضحى في سبيلها بأكثر مما ضحى عثمان، وانه اليوم لأفضل منه لأنه يعمل بيديه ويبذل عرقه لكي يقيم مسجداً يجتمع الناس فيه..!

لن يصبر محمد على بقاء هذا الصلف في نفوس رجاله.. انهم ليبرزوا معاً يتحدون الخطر لبناء حياة جديدة، ومن المحتم أن يحمل كل رجل منهم نفس الاحترام لأخيه..

لا يجب أن يشعر واحد منهم أنه يفضل أخاه.. الا بعمله.

ومضى محمد يعنف عثمان بن عفان والذين معه.. واتهمهم بأنهم بعدوانهم على عمار يسلكون سلوك الفئة الباغية.

ولم يجدوا ما يجيبون به محمداً. ومضوا يسترضون ابن سمية. ويقبلون على العمل بأيديهم الناعمة التي لم تعرف خشونة العمل من قبل..

وانتهى بناء المسجد في أيام قلائل.. فأقبل رجال من أهل يثرب يعلنون محمداً أنهم سيسمون يثرب باسم «المدينة». فهي مدينة محمد.. وتهيأ محمد يعقد اجتماعاته في المسجد، مقبلاً على عهد جديد حافل في المدينة.. وقد اطمأنت نفسه الى المصير.

وأخذ يعدهم بأنهم سيقهرون مكة بصلفها وفسادها.. وشرع يتلو عليهم:

«وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم».

١٢

أصبح المسجد الجديد نادياً يتعلم فيه المهاجرون والأنصار قواعد السلوك فيما بينهم، وأصول التعامل مع الحياة في ظل التعاليم الجديدة.. فاذا جاء الليل تحول هذا المسجد الى فندق يبيت فيه فقراء المهاجرين الذين لم يجدوا المأوى بعد..

وكان كل رجل من الأنصار يستضيف الى داره أسرة من المهاجرين.

ولكن دور الأنصار لم تتسع لكل من هاجر، فأذن محمد لمن لم يجد داراً تأويه أن يتخذ من المسجد داراً له..

وتعود الأنصار أن يقاسموا المهاجرين طعامهم..

ولقد آخى محمد بينهم.. عقد عهد الأخوة بين هذا النصير وذاك المهاجر أن يحبه كأخيه، وأن يمنعه مما يمنع منه نفسه، وأن يطعمه ويقاسمه حلو الحياة ومرها..

وارتفعت الهمهمة من قبائل يهود، ان محمداً قد جاء بعدد من الرجال والنساء لا يعملون شيئاً، وانما يثقلون على أهل البلد، ويقاسمونهم الطعام والرزق بلا مقابل..

وحث محمد رجال المهاجرين على العمل.. وفي الحق أنهم جميعاً كانوا لا يعرفون كيف يكسبون القوت في يثرب.. الا في الزراعة غالباً.

وأهل مكة لا عهد لهم بالزراعة.. ولكنهم أخذوا يتعلمون كيف يمسكون الفأس ويضربون بها الأرض ويلقون البذر ويستنبتون الحقول ويجرون فيها الماء.

ووجدوا من فلاحي يثرب عوناً كبيراً.. كانت الحقول خصيبة تتسع لكثير من الأيدي العاملة الجديدة، لتعطي أضعاف ما كانت تعطي..

أما محمد فلم يقم من نفسه ملكاً على يثرب كما أراد له المتحمسون من أنصاره ولم يعف نفسه من العمل ولكنه خرج بنفسه ليتعلم الزراعة بعد أن جاوز الثالثة والخمسين، وهي مهنة جديدة غريبة عليه . .

وطلب محمد من النساء أن يعملن ـ أيضاً ـ كما يعمل الرجال . . فخرج كثير منهن . . حتى اللواتي تعودن أن يعشن في مكة من قبل، ناعمات مستغنيات وراء جدران بيوتهن الحافلة بالغنى .

وكان محمد وهو يعمل في الحقول بين الرجال والنساء، يوصي الرجال دائماً أن يخففوا عن النساء عبء العمل . . ولقد شاهد أسماء بنت أبي بكر، تعمل وتثقل رأسها بما تحمله أثناء العمل في الحقل . . وكان هو عائداً على دابته فطلب منها أن تركب خلفه أو أن ينزل لها عن دابته ولكنها استحيت وأبت . . وعندما حكت لزوجها الذي يغار عليها من كل الناس، أبدى ضيقه بأنها تقوم بأعمال شاقة في الحقول . . وأكد لها ان هذا هو ما يزعجه، لا أن تركب خلف محمد .

ما بال بنت أبي بكر تعمل بيديها وأبوها تاجر واسع الغنى، ولقد حمل معه الى يثرب أربعين ألفاً من العملة المكية، ولكن كل مهاجر قادر على العمل مطالب بأن يكسب عيشه بيديه لكيلا يكون عالة على الأنصار .

على أن المساحة المزروعة من حقول يثرب لم تكن لتكفي كل هذا العدد، فطالب محمد صحبه الأغنياء الذين هاجروا بأموالهم، بأن يشتروا الارض القابلة للزرع فيستصلحوها، لتنتج من الثمرات ما يقيم ميزان الحياة الاقتصادية بعد تدفق عدد كبير من المهاجرين . .

وهكذا وجد عدد آخر من المهاجرين عملاً في الحقول الجديدة، وسالت الأموال تنعش السوق والحياة الاقتصادية في يثرب . .

وكان من بين المهاجرين عدد كبير من التجار الحاذقين الأغنياء . . فاندفعوا يستثمرون أموالهم لا في الأرض وحدها بل في التجارة أيضاً . .

أما أبو بكر فقد وضع الأربعين ألفاً التي هاجر بها تحت تصرف محمد، ليوزعها على الذين لم تتح لهم فرصة العمل، وعلى غير القادرين . .

وحث محمد أصحابه أن يصنعوا كما صنع أبو بكر. . أن يضعوا جزءاً من أموالهم لمحاربة البطالة، والعجز. . وعار عليهم أن يجوع بينهم أخ مسلم أو يشكو الحاجة أو القلق. . وقدم عمر بن الخطاب نصف ثروته، وقدم آخرون ما جادت به النفس.

واندفع الاغنياء من المهاجرين والانصار يرفعون اخوتهم المسلمين الى مستواهم في المعيشة. . فما يليق أن يلبس واحد منهم الخز، وأخوه المسلم في ثياب مهلهلة. . وما يليق أن يأكل واحد منهم للحم والثريد، ومن المسلمين من لا يجد غير التمر. .

وهكذا تقاربت المستويات، في يثرب. . لا جوع ولا عري. . الكل يعمل ويأكل، والذين لا يستطيعون العمل، يجدون حقوقهم المعلومة في أموال اخوتهم المسلمين القادرين.

وشعر أغنياء يثرب ممن لم يدخلوا في الدين الجديد، أن ثمة طبقة من الاغنياء تنافسهم على الثروة، وتفسد عليهم أسلوب العلاقات مع الآخرين. . ان الأسلوب الجديد في العلاقات بين الأغنياء والفقراء ليشكل خطراً مباشراً عليهم أيجب على كل الأغنياء إذاً أن يطعموا الفقراء مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون. .؟ أجاء الزمن الذي يعيش فيه الأجراء كما يعيش الملاك. .؟ فأين إذاً هو الامتياز الذي يمنحه الغني. .؟ أيعطي العمل للأجير حقاً مثل حق المالك الذي يستأجره؟. . انه لانقلاب في كل القيم والموازين. . ولا بد من وقف هذا الطوفان قبل أن يقتحم بالثورة على كل الملاك الأغنياء!.

وكان معظم هؤلاء من اليهود. . فقد دخل العرب جميعاً خزرجهم وأوسهم تحت راية الدعوة الجديدة.

وتناجى أغنياء يهود، ومعهم عبدالله بن أبي بن سلول. الذي حلم طويلاً بتاج يثرب، فحرمه مقدم محمد تاجه، وكل ما تهبه السلطة من هيبة وجاه.

ولكن ما الحيلة؟ ما دام الأغنياء قد قبلوا أن ينزلوا من عليائهم ليعطوا الفقراء فان الفقراء سيحاربون حتى الرمق الأخير دفاعاً عما حصلوا عليه. . سيحارب الفقراء جميعاً من المهاجرين ومن أهل يثرب. . وسيحارب الأغنياء من أتباعه أيضاً، فقد أدخل في روعهم أنهم لا يملكون ما اكتسبوه من مال وانما هو ملك للقضية التي يدافع هو عنها. .

وكان محمد يعرف ما يتناجى به أغنياء اليهود، وعبدالله بن أبي بـن سلول وشيعته من سراة يثرب.

ورأى محمد الا يبادرهم بالعداء، فهو في موقف شديد.

انه لفي حاجة الى أن يتألف قلوب أهل المدينة جميعاً، ولقد نجح في عقد الصلح بين الأوس والخزرج، وتصافوا الى حبة القلب فأصبحوا الآن كأن لم يكن بينهم من قبل دم ولا ثارات. . وهو يشعر ان من واجبه ان يجمع كلمة أهل المدينة التي نزل بها لاجئاً مستنصراً، ليستطيع أن يواجه قريشاً عندما تطارده.

فلو أن قريشاً هاجمته، وفي القاعدة التي يطمئن اليها ثغـرات، لاقتحمت عليه قريش من هذه الثغرات. .

ان أغنياء اليهود، ما زالوا هم سادة الحياة الاقتصادية في يثرب، فلديهم المصارف وصناعة الذهب. . وعبدالله بن أبي، وشيعته سادة في قومهم، لهم نفوذ. . وانهم ليبكون على ما فاتهم من الملك منذ أقبل محمـد. . ومحمد يقـدر هذا الضعف ويـرحمه. . فليحاول أن يطب له. .

ودعا الناس جميعاً الى المسجد. . فحضهم على الوحدة والتعاطف. .

ثم انه اقترح ان تكتب صحيفة يتفق فيها الجميع على ان يتحابوا وعلى أن يكونوا فيمـا بينهم صـادقين وعلى أن يكـونـوا أمـة واحـدة من دون النـاس وعلى أن يعـطوا المحتاجين، وأن يرعوا حق الجار وأن يجيروا قريشاً ولا من نصرها، وأنه لا بغي ولا عدوان ولا اثم، فمن قتل يقتل، ومن جرح غيره او آذاه جوزي بمثل ما صنع، وأن اليهود والمسلمين حلفاء، ان اختار اليهود الاسلام فهو خير، وان بقوا على دينهم، فلهم أموالهم ومعابدهم آمنين عليها، ولكن عليهم جميعاً أن يحاربوا من يهاجم يثرب، وأن ينفقوا من أموالهم على الحرب.

ووقع المجتمعون من اليهود والأنصار والمهاجرين هذه الصحيفة. . وتعاهدوا على أن ينزلوا العقاب بمن يخرج عليها.

ومضى محمد يلاطف اليهود ويترفق بهم على كره من بعض أهل المدينة الذين

تعودوا أن يعاملوا اليهود بطريقة مختلفة. . على أنه استطاع أن يقنع من كره هذا الأسلوب بأن ما جاء به: انما هو الاخاء والرحمة.

واطمأن به المقام، ورأى أن الحائط الذي يستند اليه الآن قد أصبح بلا ثغرات. .

لكن حياته في البيت كانت مضنية حقاً. . فهو يعيش مع امرأة لا يحمل لها غير الاشفاق والعطف. . وقد ارتفعت بها السن ولم تعد صالحة لتدبير حياته في البيت. .

وكانت عائشة قد بلغت الآن مبلغ الأنثى، أنضجتها شمس يثرب. .

وحدثه أبو بكر أن يأخذها الآن، فقد شب جسدها ونضج حتى أصبحت كالنساء وان كانت ما تزال طفلة ترتع وتلعب مع الصغيرات.

واتفق أبوها وزوجها على أن تحمل الى بيت الزوجية فذهب اليها بعض النساء فجذبنها من على الأرجوحة فغسلن وجهها من التراب وحملنها الى بيت الزوج. . وهي ما زالت تنهج من كثرة الجري أثناء اللعب. .

وسكن محمد الى عائشة، وأمر ابنته فاطمة أن تحتفي بها وتتودد إليها. .

وتقدم عمر بن الخطاب يخطب فاطمة. . كانت قد جاوزت السادسة عشرة جميلة ملحوظة الجمال فاعتذر محمد. . وتقدم أبو بكر فاعتذر أيضاً. .

وتقدم عدد من فتيان الأنصار والمهاجرين وقد خشي محمد أن يعطيها لواحد من الأنصار دون الآخر فيغضب. . وتغضب له عشيرته. .

أو أن يؤثر بها أحداً من شباب المهاجرين فيغضب الآخرون، من مهاجرين وأنصار. . وكان كل منهم يمني نفسه بها، وأبوها محمد يخشى أن يستعلي أحد على صحبه بالزواج من فاطمة.

انه ليريد أن يؤكد في كل القلوب دائماً أن القربى منه ليست سبباً للاستعلاء. وأن الانسان بعمله. . حتى لقد عنف عثمان بن عفان، صديقه وزوج ابنته رقية لأنه أغلظ لعمار بن ياسر. . ابن سمية. .

ومضى محمد يستشير صاحبه أبا بكر وعرض عليه أسماء الذين تقدموا الى فاطمة، كلهم فتيان بواسل ليس في أحدهم ما يعاب. . فقال أبو بكر:

أين أنت من علي بن أبي طالب. .؟

فقال محمد: «اني لأكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه».

وكان علي في الثانية والعشرين. . ولكن أبا بكر قال: «متى رعته عينك حفت بهما البركة واسبغت عليهما النعمة».

وما زال به حتى أقنعه، وخطبت فاطمة لعلي. .

ولكن علياً لم يكن يملك بيتاً ليتزوج فيه، فسألت فاطمة أباها أن يمنحها بيتاً. . فزجرها، وتقدم رجل غني من الأنصار يهب الزوجين الشابين بيتاً صغيراً له من بين عدة بيوت يملكها. وتمنع علي وفاطمة ولكن الرجل أقسم ألا يدخل هذا البيت أبداً وظل يلح في هبته حتى أذن محمد لعلي وفاطمة أن يقبلا بيت الرجل. . بيعاً وشراء لا هبة. . وشرع الفتيان والفتيات من المهاجرين يتزاوجون مع الفتيات من الأنصار. .

واستقرت الحياة الجديدة بالمهاجرين. . وقد وجدوا العمل والرزق وزوجات يسكنون اليهن. . ولكنهم لم ينسوا مكة أبداً. .

حتى محمد نفسه لم يستطع أن ينسى مكة. . كان دائماً يذكرها. . وان له هناك تحت التراب، لأعزاء. وله فيها كل ذكرياته. . لكم اضطرمت به الأحلام هناك، وكم شهد من العذاب والضنى، ومع ذلك فما من بلد أحب اليه من مكة وزاره مهاجر أقبل حديثاً من مكة: فسألته عائشة: كيف تركت مكة؟.

ومضى الرجل يصف مكة من بعدهم، وصوته يرتجف بالأسى على فراقها. . وصف بيوتها ورمضاءها وشوارعها وزحام الناس في أسواقها والزهرات البرية المتضوعة العبير في شعابها. . وفاض الحنين بمحمد حتى لقد سال دمعه فقال للرجل «لا تثر أشواقنا. . دع القلوب تستقر». .

وفي الحق أن كل صحابه المهاجرين كانوا يلقون من يوم الى يوم رجلاً يحرك منهم القلب ويثير فيهم الشوق والحنين ولقد تمنوا جميعاً أن يأتي يوم تفتح فيه مكة أبوابها لاستقبالهم. .

ان ما يمنعهم عن مكة لهم فئة من التجار تحكم هناك وتنفيهم عن أرض الذكريات والأمل. . والمستقبل!.

متى إذاً يقودهم محمد فيرميهم على هذه الفئة الظالمة لينفقوا ما بقي لهم من العمر في وطنهم ذاك.

ولكنهم الآن ما زالوا أقل عدداً من أن يحطموا أسوار مكة..

وان منهم لرجالاً يخشون أن يطالبهم محمد الآن بمثل هذا، وقد وجدوا هنا الراحة بعد الشقاء، والكفاية بعد عذاب الحرمان.

ان منهم لمن يطمئن الآن الى حياته الوادعة هنا..

على ان سادة قريش ما كانوا ليتركوهم وادعين.

وقد بدأت الرسل تسعى من حكومة قريش الى كبار التجار الأغنياء اليهود في يثرب تسألهم الحماية حين تمر القوافل في طريقها الى الشام، بصحراء يثرب.. فقد كان تجار قريش يخشون أن يوجه اليهم محمد جيشاً من الفقراء يغير على هذه القوافل.. وان من بين هؤلاء الذين يخشاهم تجار قريش، من استولت قريش على أموالهم وتجارتهم عنوة منذ اتبعوه، ومنهم من صادرت قريش أمواله أو تجارته التي تركها في قريش، واشترطت عليه ان ينزل لها عن كل ممتلكاته لتتركه يهاجر في سلام..

قريش تخشى أن ينقض هؤلاء جميعاً لانتزاع ما اغتصب منهم من قبل وتسلل رسلها الى أثرياء اليهود..

وخشي أغنياء اليهود أن ينقضوا عهد الصحيفة علانية فيبطش بهم مواطنوهم من الأوس والخزرج، وينفذ فيهم محمد ما تضمنته الصحيفة من جزاءات لمن ينقض أحكامها..

فلجأوا إلى أسلوب آخر في تحطيم وحدة المدينة، أشاعوا أن قريشاً في خوفها من انقضاض المهاجرين على تجارتها، ستقطع الطريق على تجارة المدينة..

وهكذا يحمل محمد أهل يثرب ما لا طاقة لهم به، ويعرضهم لعدوان قريش وأنصارها.. ويدفع بهم الى كساد في التجارة، يجلب الأزمة والبأساء على الجميع..

حاولوا أن يملأوا الرؤوس بهذا التفكير.. ومضوا يثيرون الناس ضد محمد ومن أقبلوا معه، بينما كان محمد يجلس في المسجد يتحدث عن السماحة والحب ويطالب

الناس بألا يظلموا وبألا ينكثوا بالعهود وبأن يؤدوا الأمانات ثم ينظر الى بلال معجباً به قائلاً له: «أنت أول ثمار الحبشة».. ثم يلتفت فيجد صهيباً الرومي، الـذي سعى اليه من أقصى بلاد الروم فيطلق ضحكاته على أجنحة الأحلام قائلاً: «وأنت يا صهيب أول ثمار الروم»، ويقع بصره على سلمان الفارسي الذي اندفع اليه بكل قلقه في البحث عن الحقيقة عبر فارس، والموصل، والشام وأنطاكية، حتى ينتهي الى يثرب فيدخل في الاسلام. فيقول محمد لسلمان هذا: «وأنت يا سلمان أول ثمار فارس».

اليهود تكيد، وتحاول أن تصب الفزع في النفوس ومحمد جالس بين أتباعه من العرب، يبتسم لبلال الحبشي، ولصهيب الرومي وسلمان الفارسي.. حالماً بأن ترتفع راية تعاليمه فتظلل هذه البلاد جميعاً، وتجعلها أمة واحدة..

ثم يأتيه من يحدثه عن رجل باليمامة يحرم الخمر، ويدعو الى الزهد، ويحرم الرجال على النساء بعد أن ينجبا أول ولد، ويحض أتباعه على الصدق..

ورجل آخر في حضرموت يطوف بحماره يدعو الناس الى الفضيلة كما كان عيسى بن مريم يركب حماره من الجليل الى القدس يدعو الناس الى العدل والحقيقة مرحى!.. فهو القلق الروحي إذاً في كل مكان!..

في هذه البيئة وحدها ينبت المبشرون ويستطيع هو أن يجد المؤمنين بها ليخوض بهم المعارك الى مكة يقهر المستكبرين من قريش، ويحرر العرب الآخرين من سلطان الفرس والروم، ويرفع راية العدل والمساواة حيث يقيم القساوسة والدهاقنة والعاهرات، دولة سوداء تسحق كرامة الانسان..

ولكن أغنياء اليهود يكيدون.. والحقد الذي ملأ قلوبهم من الطبقة الجديدة المنافسة لا يهدأ.

انهم يريدون أن يستخلصوا يثرب لأنفسهم، يمارسون فيها سلطان رأس المال على مصائر الأجراء والعبيد، فليقيموا عبدالله بن أبي بن سلول ملكاً لهم يحكم بما يريدون ويضع قواعد للتعامل تخدم الاستثمار في مواجهة ما جاء به محمد..

ومحمد في المسجد بين صحابه.. يعلمهم، ويحلم بالمستقبل، واذ بصيحات تأتي من خارج يثرب.. وصراخ بالاستغاثة.

أهي قريش تأخذهم بغتة . .

ويراع الناس، ويضطربون . .

ويسرعون إلى خارج المسجد، ويتقدم محمد ولكنه يدخل الى بيته الملتصق بالمسجد، فيمتشق سيفه ويخرج الى الناس ويجد حصاناً بلا سرج فيمتطيه ويسرع به الى خارج يثرب وحده، شاهراً سيفه هاتفاً في الناس:

ـ لن تراعوا . .

وقبل أن يلحق به أحد . . كان قد خرج وعاد، ليقول للناس انه لم يجد غارة، وانه ما من شيء هنالك يخافونه .

على أنه آثر أن يحتاط حتى لا يدهمهم أحد بعد على غرة . . ولكي يقضي على حرب الأعصاب التي يشهرها اليهود خفية، قرر أن يرسل سرايا من المهاجرين، تطوف حول المدينة والطرق المؤدية اليها .

فليطمئن كل من في المدينة وليأمن . .

ولم يكد يتهيأ لارسال هذه السرايا، حتى دهم المدينة وباء، ومرض عدد كبير من المهاجرين . .

وقيل في المدينة ان المهاجرين حملوا معهم هذا الوباء . فعلى هؤلاء الذين أقبلوا بالوباء أن يعودوا .

أما المهاجرون فقد أيقنوا أن الوباء جاءهم من المدينة، فكرهوها بعد أن اطمأنت حياتهم فيها . .

على أن أثرياء الأنصار بذلوا من أموالهم ليلتمسوا الطب للمرضى من المهاجرين . . والوباء ينتشر رغم ذلك حتى لم يعد في المدينة درب أو زقاق لا يرقد في أحد بيوته مريض يهذي من الحمى .

وألحت الحمى على الناس حتى لقد حسب المهاجرون أنها القاضية . . وتمنى بعضهم لو أنه عاد الى مكة بدلاً من أن يموت غريباً في يثرب! .

ومضى محمد يطوف بهم ويدعو ربه أن يحبب اليهم يثرب كما حبب اليهم مكة .

وعندما خفت حدة الوباء بدأ المسجد يعمر برواده.. ولكنهم كانوا منهكين من أثر الحمى.. حتى لم يكن الواحد منهم يقدر على الوقوف..

وكان أبو بكر من بين الذين مرضوا، واشتدت عليه الحمى حتى لقد كان يهذي.. فأرسل اليه محمد عائشة تخدمه حتى يشفى.. ومرضت رقية، فطلب محمد من زوجها عثمان بن عفان أن يلزمها.

وعندما انقشع الوباء تماماً، كان قد خلف وراءه كثيراً من الضحايا.. وخلف رقية معتلة نحيلة لا تقوى على النهوض..

وهذا الوباء ، ثم الذعر أيضاً!

ها هم أولاء أعداؤه من اليهود قد عادوا يتحدثون عن غارات وهمية..

وكشف عبدالله بن أبي قناعة، فواجه محمد أثناء طوافه بالمرضى بلهجة منكرة أن يلزم بيته، وألا يأتي الناس في دورهم بما يكرهون!

وصبر محمد.. فلم يكن يريد أن يثير فتنة في المدينة. والناس فيها يتساقطون من أثر الوباء صرعى كالأوراق الجافة.. ولزم محمد داره عدة أيام..

ولكن رجالاً من يثرب سمعوا ما قاله ابن أبي لمحمد، فعجلوا اليه يلومونه ويغلظون له، وأقسموا على محمد أن يأتي الناس في دورهم كما كان يفعل. فليس أحب الى الناس من أن يلقوه..

وكان أتباع ابن أبي، يعاملون بعض المهاجرين بنفس الطريقة: يحرجونهم كلما سنحت الفرصة ويحملونهم مسؤولية الوباء ويمنون عليهم أنهم آووهم وأطعموهم. وأنهم يعرضون يثرب الآمنة لغارات قريش وحلفاء قريش!

ونصح محمد صحبه أن يصبروا، ولكن رجالاً من الأنصار غضبوا لما يحدث وحاولوا أن يضربوا من يتعرض للمهاجرين فنهاهم محمد، وطلب منهم أن يصفحوا..

وأن يلقوا الاساءة بالعفو، فما ينبغي أن تحدث فتنة في المدينة، التي يعتبرها مركز انطلاق لدعوته.

وهيأ سرية من ثلاثين رجلاً، كلهم من المهاجرين الذين يحسنون ركوب الخيل

والضرب بالسيف، وجعل حمزة سيد الفرسان أميراً عليهم، وأمرهم أن يخرجوا فيطوفوا في الصحراء خارج يثرب، فليتحسسوا ان كان أحد يدبر غزواً. . وأمر عبيدة بن الحارث وسعد ابن أبي وقاص أن يخرجا على رأس ثمانين من فرسان المهاجرين ليبحثوا في طريق آخر. .

ستطوف السرايا منذ اليوم خارج يثرب. تبحث في كل الطرق المؤدية اليها، لترى ان كان هناك من يهددها، على أن ترجع هذه السرايا بالأخبار دون أن تشتبك في قتال. .

أما سرية عبيدة، فقد لقيت قافلة عظيمة من قريش، فهرب من القافلة ثلاثة رجال لحقوا بالمهاجرين. . واضطرم غيظ عكرمة بن أبي جهل رئيس قافلة قريش فأطلق سهماً على سعد بن أبي وقاص، وضمد سعد جراحه وانتزع السهم دون أن يخوض الحرب. .

عليهم ألا يخوضوا الحرب الآن مهما يلقون. . بهذا أمرهم محمد. .

وكان سعد أول من رمي بالسهم من أصحاب محمد. . سيأتي يوم ترد فيه هذا السهم يا سعد. . فاصبر.

وأما حمزة فقد اختار أن يمضي بسريته الى شاطىء البحر الأحمر؛ فربما اختارت قريش أن تأتيهم عن طريق الشاطىء. . لكن حمزة لم يعثر بغزاة بل قابل قافلة ضخمة يقودها أبو جهل نفسه ومعه. . ثلاثمائة رجل مسلحين يحرسون القافلة. . هو ذا أبو جهل مرة أخرى يا حمزة لكم يغريك منظره بأن تشج رأسه كما صنعت منذ سنوات؟

واستفز أبو جهل غضب حمزة مستنصراً برجاله الثلاثمائة فأوشك حمزة أن يخوض غمرات المعركة برجاله الثمانين ضد الثلاثمائة قريشي. . غيرأن رجلاً حكيماً من قبيلة جهينة التي تقع على شاطىء البحر الأحمر، تدخل في الموضوع وكان موادعاً للفريقين، وكان حمزة وأبو جهل يحرصان على ألا يغضباه. وفرق الجهيني بينهما. . ومضى كل في طريقه. .

عاد حمزة وهو يحس ان الأيام القليلة القادمة تحمل في أطوائها الحرب. .

وحكى لمحمد. كل ما كان.

وبدأ محمد يستعد للمعركة. .

١٣

قال رجال في المدينة لو أنه كان كما يزعم لنا حقاً لما مرضت ابنته وصحبه، ولما فقد بعض أصدقائه ولما دهم مدينته الوباء. .

ومضوا يتهامسون: ان هو الا ساحر كما قالت عنه قريش، وقد بطل هنا سحره!.

وسمع هو ما قاله المرجفون في المدينة لبعض من اتبعه ليفتنوهم عنه. . !

وأدرك أن الشك قد بدأ يغزو قلوب بعض الأتباع. . فلئن كان صادقاً فيما جاء به فلماذا لا يقوى بعد على أن ينشل ابنته رقية من الحمى، ولماذا لم يستطع أن ينقذ حياة بعض أتباعه الذين سقطوا في الوباء!.

ذهب اليه بعض المؤيدين يستنكرون ما يقال في المدينة عنه ويواسونه. . وأخذوا يطرونه. . فرفع اليهم رأسه التي أثقلها الفكر، ليقول لهم في ضيق «لا تطروني».

وتقدم اليه رجل من الأتباع متحدياً المرجفين والمتشككين. . لم لا نطريك وأنت سيدنا جميعاً.

ولكنه نهر الرجل، وثار عليه، وعلى الرجل الذي كان يطريه. . ومضى يحذر السامعين أن يمدحوه مرة أخرى، فيفسد كل شيء إذاً.
يجب أن تتنزه علاقاتهم به عن هذا الاطراء. .

يجب ألا يجعلوا له مقاماً فوقهم، يجب ألا يقدسوه. . فان هو الا بشر مثلهم يخطىء ويصيب في شؤون الحياة فعليهم أن يواجهوه بالرأي الصريح فالأمر كله شورى بينهم. . ولئن سكتوا عنه ولم ترتفع الا أصوات الثناء، فستختنق دعوته الى الحق والخير في ضجيج الطقوس، ورنين الاطراء. .

ان هو الا بشر.. بشر مثلهم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو غيره المرض أو الموت.. وانه ليبكي مثهم ويضحك، ويتعب جسده وينشط.. وينام ويصحو، وانه ليغضب ويرضى.. مثلهم تماماً.. وانه ليجوع ويعطش، ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. ولا يعرف الغيب بما هو بمعجز، فما البشر بمعجزين.. لكن ما في الصدر منه تتأجج الكلمة المضيئة التي يقتحم بها مجاهل الظلمات ليضيء شعاعها كل طرق الانسان الى الحق والعدل والعافية والصدق والخير.. فيتحرر الانسان مما يعاني، وكان الانسان ضعيفاً..

واحتقن وجهه، وغلى دمه، ومرض هو نفسه. فجاء اليه طبيب يعالج المرضى بفصد الدم.. وجرحه الطبيب ليسيل الدم الفاسد منه.. وعندما سال الدم حاول الطبيب أن يلعقه.. ولكن محمداً اشمأز من الطبيب وزجره، ونظر الى من حوله غاضباً: كل الدم حرام.. كل الدم حرام..

وصح من مرضه ليواجه هذه الحالة الغريبة التي تغشى المدينة: أعداؤه من اليهود وحلفاؤهم من شيعة عبدالله بن أبي يشككون فيه، بينما يبالغ أنصاره في تقديره حتى ليوشكوا أن يحولوه الى اله يتعبدون له..

ومضى يؤكد لهم أن ما جاء به ليس هو التقديس لذاته، ولكنه جاء بالاخاء والمساواة والعدل.. جاء لتحرير القلب من سلطان الكهنوت والأوثان وبتحرير الجهد الانساني من الاستغلال وتحرير الرقاب من النخاسين. جاء بتحرير الوجدان من الزراية والهوان والخوف، لتنطلق كل طاقات الانسان تؤكد فوق هذه الأرض نبالة المجهود البشري.

انه ليطالبهم بالعبادات التي جله بها.. لكنه يطالبهم بان يثقفوا عقولهم ويغنوها، أن يتعلموا الكتاب والحكمة.. أن يطلبوا العلم ولو في بلاد بعيدة لا تؤمن بما يؤمنون به.. ولو في الصين!.. فالعلم وحده هو الذي يشعر الانسان بما له من خطر.. هو الذي يؤكد له أن لا فضل لأحد على الآخر الا بالمعرفة التي يزخر بها القلب.. هو الذي يحطم الصلف الزائف، ليدعم في النفس الشعور بالكبرياء الصادقة.. هو الذي يجعل الانسان مهيباً أمام كل القوى الغاشمة كقلعة حصينة الأسوار..

ومن أجل ذلك فهو يقول لهم.. الحق يقول لهم: «فضل العلم خير من فضل العبادة».

ان أصحابه ليسرفون في العبادة: يقومون الليل ويصومون النهار، ومنهم من يعتزل النساء.. ولكنه لم يجىء بهذا.. وانه ليقنعهم أنه هو نفسه يأكل ويشرب ويحيا الحياة ويعاشر النساء ويستمتع بالطيبات من الرزق.. فالدين الذي جاء به هو أسلوب في معاملة الآخرين أيضاً.. لقد قيل له ان فلاناً مؤمن عميق الايمان يكثر من صلاته وصدقته وصيامه غير أنه يؤذي جيرانه، فقطب وجهه قائلاً: هو في النار!.

ولقد دخل ذات مرة على زوجته عائشة فوجد عندها نسوة من صاحباتها، بينهن واحدة لا تخطىء جمالها العين، ولكنها رثة الثياب زرية الهيئة يختفي حسنها في كآبة غامرة.. فسألها ما بال المرأة؟ فقالت له عائشة انها لزوجة أحد أصحابه، ان زوجها يصوم النهار ويقوم الليل!.

ما عسى أن تصنع الزوجات ان شغل عنهن الرجال بالعبادة.. انه لم يجىء بمثل هذا أبداً..

وأرسل الى من يدعو الزوج.

حتى اذا لقيه قال له: «بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فلا تفعل فان لجسدك عليك حقاً ولعينيك حقاً ولزوجتك عليك حقاً».
وانصرف الرجل ممتثلاً للنصيحة..

وفي الصباح التالي كانت زوجته تملأ مجلس عائشة مرحاً، يفوح منها العطر، وقد تورد خداها وجرى ماء الحياة في وجهها.. وسألتها عائشة ما هذا؟.

فقالت الزوجة وجذوة السعادة تتوهج في عينيها الباسمتين: «أصابنا ما أصاب الناس».

وهكذا مضى يكسر حدة الأعداء الشانئين، وحدة الأتباع المتزمتين على السواء..

* * *

والحياة في المدينة بعد ذلك تمتحنه بما لم يواجهه من قبل.. فصحبه المقربون

الذين يعتز بهم، يسلكون على غير ما يرضيه. . حمزة، عمر. . وآخرون. . لقد اعتزت الدعوة بحمزة وعمر. . وقد زلزلت قريش كلها حين انضما اليه. ومع ذلك فقد جاء الزمن الذي يواجه فيه حمزة وعمر وغيرهما بما يكرهون.

وها هو ذا حمزة بعد أن رجع من رحلته التي قابل فيها أبا جهل وفرسان قريش؛ يعود الى حياته القديمة الباهرة من الخمر والغزل.

انه إذاً في الخامسة والخمسين، انقطع طويلاً عن حياة الليل، ولكنه منذ رأى الموت يواجهه فجأة على ساحل البحر عاد الى المدينة يجرع من متاع الحياة بظمأ غريب، لا يرويه شيء. . حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر، مع فاتنتين من بنات اسرائيل، رقصتا له وغنتا ومتعتاه، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالهما ولا يخفي على أحد أنه استمتع بهما، كان يتطوح ويتضاحك وهو يقبل على المسجد، وفي فمه رائحة الخمر، وعلى بدنه ووجهه آثار من عطر الفاتنتين، وكل ذكريات تلك الليلة!.

وأنكره محمد حين رآه، ولكن حمزة الذي كان ما يزال في سكر الليلة الماضية نظر اليه والى من حوله قائلاً باستخفاف «ان أنتم الا عبيد آبائي»:

وانطلق يتهيأ لاستقبال ليلة أخرى ممتعة مع حسان المدينة المغنيات في بيوت يهيئها بعض سراة اليهود لاستقبال الرجال المسلمين!

هذا إذاً هو ما تفعله الخمر ببعض الرجال. .؟ وهكذا تكيد يهود!!
ماذا يفعل الآخرون ان كان حمزة يصنع مثل هذا؟

ومضى محمد يحض أصحابه أن يمتنعوا عن الخمر، فمهما يكن فيها من منافع فان فيها لاثماً كبيراً. .

لكم يحرجه سلوك حمزة. .

على أن حمزة أفاق لنفسه، فأعلن ندمه أمام الجميع، وأقسم ألا يقرب الخمر ولا نساء غير زوجاته. . وظل يبكي من الندم حتى غسل خطيئته بالدمع فأخذ محمد يخفف عنه. .

ولم يكد محمد ينتهي من أمر حمزة حتى سعى اليه أبو بكر يشكو عمر بن الخطاب

فقد اختلفا على شيء فاحتد عليه أبو بكر ولكن عمر بن الخطاب أغلظ له. . وخيل لأبي بكر أنه هو الذي اعتدى على عمر، وحاول أن يعتذر اليه ولكن عمر رفض اعتذاره. .

أيمكن أن يحدث كل هذا بين ألصق الناس به. . ؟

على أن عمر بن الخطاب جاء بعد هذا فقال له محمد وهو ينظر الى الملتفتين من حوله:

«أبو بكر صدقني حين كذبتموني، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟». .

وتصافى عمر وأبو بكر. .

خلافات أخرى كثيرة بين المهاجرين ظلت تشتجر حول حدود الأرض التي استصلحوها في المدينة. . ومحمد يطالبهم بألا يتخاصموا وبألا يتفرقوا وبألا يغرهم متاع الحياة. . فالأموال فتنة.

كل هذا ويهود يثرب يكيدون.

حرب الاشاعات. . وحرب الاحراج. . وأخيراً حرب المال. .

لم يطق يهود يثرب وجود طائفة أخرى من أغنياء المهاجرين ممن أتقنوا التجارة. . وليس أبرع من تاجر قريشي. . ان منهم الآن من يفوق أغنياء اليهود مالاً. . كعبد الرحمن بن عوف مثلاً!.

وضعوا الخطط لضرب الاقتصاد الجديد: صفقات وهمية في سوق بني قينقاع. . ومضاربات ومغامرات لتثير الذعر أو الانهيار في السوق. . وهكذا خسر تجار المهاجرين والأنصار!.

وما في المدينة كلها غير سوق بني قينقاع. . وطلب محمد من التجار المسلمين أن ينشئوا سوقاً جديدة لا يتسرب اليها أحد من مضاربي اليهود أو من شيعة عبدالله بن أبي، فيخرب اقتصادياتهم.

وأنشأوا السوق الجديدة، فنشطت المعاملات فيها، وأقبل التجار الغرباء اليها. .

آثروها على سوق بني قينقاع فقد كانت قواعد التعامل فيها أكثر عدلاً وأوفر ضماناً للبائع والمشتري.

وكان دستور العمل في هذه السوق هي القواعد التي جاء بها محمد: لا ربا، ولا ارهاق، ولا ضرر، ولا ضرار، ولا تعامل على بضاعة لم توجد بعد.

البائع يضمن سلامة ما يبيع ويضمن للمشتري نقاءه من العيوب. العدل واحترام الحقوق المتبادلة دستور هذه السوق الحديثة.

ثم حسن التعامل مع المعسرين.. فقد قال لهم محمد: «من يسر عليّ معسر في الدنيا يسر عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» ثم وعد من يتنازل عن جزء من دينه للمدين المعسر بأن «يظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله» ووعدهم أيضاً أن «من يفرج عن معسر تستجاب دعوته وتفرج كربته».

وفي هذه السوق ارتفعت نداءات المبشرين بالدين الجديد.. ورأى التجار الغرباء أن هذه القواعد الجديدة التي تحكم البيع والشراء، لهي أعدل وأحرى بأن تتبع من كل ما عرفوه، وإذاً فالعقيدة التي تشكل أخلاق المؤمنين بها على هذا النحو، جديرة بأن تعتنقها القلوب.

ودخل في الاسلام عدد من هؤلاء التجار الغرباء.. فأيقن كبار التجار اليهود في المدينة أن هذه العقيدة بتعاليمها في البيع والشراء، يمكن أن تشيع بين القبائل والمدن العربية، وتجذب الناس فتفسد الأمر عليهم، وتهدد مصالحهم تهديداً جدياً..

والتقت مصالح يهود المدينة بمصالح كبار التجار في مكة.. فشرعوا يصدون القبائل الأخرى عن السوق الجديدة، وعن محمد جميعاً..

واهتموا بصد الشعراء من القبائل الأخرى.. وكانت سوق المدينة، قد أخذت تجتذب الشعراء، فقد صمم التجار المسلمون أن ينافسوا بها أسواق مكة.. وأقاموا فيها المنابر، ليلقي عليها الشعراء آخر ما نظموه من قصائد..

والشاعر هو المعبر عن آلام القبيلة ومفاخرها.. هو الذي يرفع ذكرها بين القبائل الأخرى بالكلمة الساحرة التي تبهر، ثم ترسخ في العقول وتتناقلها الأجيال..

لو أن واحداً من هؤلاء الشعراء الفحول أقبل الى سوق المدينة، فاقتنع بتعاليم

محمد، أو أغدق عليه بعض الأغنياء من أتباعه ما يشتهي من مال، فانطلق الشاعر يتغنى بمحمد وتعاليمه، لاشتهرت هذه التعاليم عبر الجزيرة، وأرستها الكلمات الساحرة المنظومة في كل القلوب..

ان محمداً نفسه ليدرك هذا، وقد اصطنع هو بنفسه الشاعر حسان بن ثابت ومحمد في ادراكه لسلطان الكلمة ودورها في الدفاع عن العقيدة يتمنى أن ينضم الى حسان شعراء آخرون من الفحول..

ولكن تجار اليهود وتجار مكة بفهمهم لخطورة الشعراء في المعركة اتفقوا على أن يحولوا بين محمد، وبين هؤلاء المثقفين الرواد ذوي النفوذ الأدبي الكبير..

وخشي اليهود أن يستفزوا غضب محمد.. وهم مواطنون له بالمدينة بينه وبينهم معاهدة مكتوبة في صحيفة: أن يحموه ويحميهم ويمنعهم ويمنعوه!.

لقد صبر محمد كثيراً عليهم ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه.. الا الشعراء!.. فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر، وانه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس اليه حتى أبو بكر.. انه على الأقل يفهم نزواته، ويؤكد له أن كل دوره في الدين الجديد: هو أن يقول الشعر.. ان الدور الذي يؤديه هذا الشعر، ليخفف عن الشاعر كثيراً من الأعباء التي يطالب بأدائها الآخرون، حتى لقد جاء رجل من المسلمين المتشددين يلعن حسان بن ثابت أمامه لأنه يشرب الخمر، فقال محمد: لا تلعنه.. انه يحب الله ورسوله..

وان أصحاب محمد ليعاملون الشاعر باكبار خاص انهم ليعرفون أنه أعلى الأصوات تعبيراً عن الوجدان الجديد.. انه مفخرتهم بين الأمم والقبائل وهم أيضاً يتمنون لو اعتزوا بشعراء آخرين من طراز حسان بن ثابت..

ليتهم يضمون اليهم أمية بن الصلت، ولكنه في الطائف، وما زالت ثقيف منذ طردت محمداً تحمل لهم العداء، ولقد حالفت قريشاً عليهم.

ومالك بن زهير.. ليته يقتنع بالعقيدة الجديدة.

والأعشى.. هذا الرجل الذي تتردد أشعاره كأنغام الصناجات؛ لو أنه أقبل اليهم

أيضاً فستردد الجبال والوديان رجع تعاليمهم وتغنى بها العذارى في الخدور والجواري في بيوت اللهو، وفرسان العرب وهم يخوضون المكاره.

ولم ينتظر أصحاب محمد حتى يسعى اليهم الشعراء، فقد مضوا هم اليهم بينما مضى قريش يصدون هؤلاء الشعراء.. ويغرونهم بالمال الكثير..

على أن من الشعراء من لا يثنيه اغراء المال.. وما من شيء يمكن أن يصده عن السعي الى الحقيقة.. لا المال ولا التهديد بالأذى، فهو يندفع مع أشواقه وقلقه الى المدى..

وكان القلق يغزو قلب أمية بن الصلت، ولكنه لم يحاول أن يسعى الى محمد لأنه وجد نفسه ـ هو الشاعر الفحل ـ أحق من محمد بهذه الدعوة!..

أما مالك بن زهير فقد رفض تعاليم محمد أول الأمر، وبدلاً من أن يكسبه المسلمون الى جوارهم لينتصروا به، انطلق يهجوهم، ويفحش لهم.. وتدفقت عليه الأموال وسبائك الذهب يحملها رسل من أثرياء اليهود وأثرياء مكة.

ولكن الأعشى وجد في التعاليم الجديدة شفاء لبعض قلقه. كان دائماً يبحث عن المجهول.. عن حل لما يراه ويسخطه، فهو أبداً ينتقل من بلد الى بلد، يتغنى بالحياة، ويطرب الناس بشعره، ويحظى بالهدايا والمال من السادة الذين يتنافسون على استقباله واستضافته.. من بلد الى بلد، من فاتنة الى فاتنة أخرى جديدة على أجنحة تصنعها الخمر الفاخرة المعتقة، بحثاً عن الراحة وسعادة القلب.. حتى لقد ألف الخمر والغزل.. وفي بعض هذه الرحلات سمع عن محمد، وعن سوق المدينة، وعن تعاليم الرجل.. فقرر أن يخوض المغامرة وأن يذهب الى محمد هذا الذي يتحدث عنه أصحابه في الأسواق بحماية المستشهدين!.

وأنشأ قصيدة طويلة أقسم فيها ألا يرحم ناقته من السفر «حتى يلاقي محمداً».. وعرفت قريش بالأمر، فهرع اليه رسلها يصدونه.. وحاولوا أن يمسكوا بزمام ناقته فزجرهم وطلب منهم أن يتركوها فان لها في «أهل يثرب موعداً».

وأغروه بالمال فما نفع الاغراء، وأخيراً احتالوا عليه قال له قائلهم متلطفاً.

«يا أبا بصير انه يحرم الزنا» ومضوا يصورون له الحرمان الذي يجب أن يعانيه في

ظل التعاليم الجديدة، لا غزل بعد، ولا انطلاق من عشيقة الى أخرى وانما التزام بالزوجة.

وفكر الأعشى قليلاً في أسلوب حياته الماضية من فاتنة الى فاتنة أخرى.

كان قد شرب كأس المتاع حتى الثمالة فلا بأس بأن يلتزم الآن.. وقال: «فهذا أمر لا أرب لي فيه بعد».

فقال له قائلهم: «فانه يحرم الخمر يا أبا البصير» فبهت الأعشى.. ثم لوى زمام ناقته راجعاً وهو يقول: «أما هذه فان في النفس منها لعلالات ولكني منصرف فأرتوي من الخمر عامي هذا ثم آتيه فأسلم».

غير أن الأعشى لم يأت محمداً أبداً.. ظل يشرب ويشرب، في جنون الاحساس بأنه سيحرم الى الأبد من هذه الخمر التي يحبها، حتى مرض ومات بعد.

وعلم محمد وصحبه بما كان.. ولم تكن الخمر قد حرمت تحريماً قاطعاً بعد، ولكنه كان يحض الناس ألا يشربوها لأن شرها أكثر من نفعها.

وحزن المسلمون لأنهم خسروا عبقرية الأعشى!.

ان قريشاً تفرض عليهم الآن حصاراً جديداً بصدها الشعراء الفحول عنهم، وهي بعد تغري هؤلاء الشعراء ليشهروا بهم..

هذا الأسلوب الخطير من الحرب الباردة يجب أن يقابل بمثله.. ويجب أيضاً أن تشعر قريش بأنهم أصبحوا الآن قوة، فهي لا تستطيع أن تحرض عليهم بعد.. يجب أن تحسب لهم حساباً.

كل هذا الكيد من قريش، وفي الجبهة الداخلية يكيد اليهود وعبدالله بن أبي وشيعته.. ويذيع شعر لمالك بن زهير يهجو به محمداً وصحبه وأنصاره، وينتشر في احياء اليهود بالمدينة شعر آخر ساخر.. صنعته يهودية شاعرة.

ويستفز محمد بيان حسان بن ثابت ويغريه بأن يرد على شعر الأعداء جميعاً، ويرد حسان فيفحش، ويتحرج بعض أصحاب محمد من هذا الشعر الفاحش ولكن محمداً يتركه يقول كما يشاء.. فليكل لهم حسان بنفس الكيل..

والمهاجرون لا يسلكون مع هذا كما يحب لهم محمد. .

لم يعد أحد يشرب الخمر باسراف منذ حادثة حمزة، ولم يعد أحد يخاصم أخاه بغلظة منذ تصالح عمر وأبو بكر ولكن الطمع لم يكن قد هجر القلوب بعد وما برح رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعضهم. .

أحلام الغنى قد بدأت تملأ رؤوس البعض منذ منحهم العمل في الأرض شيئاً من المال. . وان منهم لمن يستمرىء الرواحة الآن بعد أن كافح في مكة وتحمل العذاب هناك وان منهم لمن ينتهز فرصة النعيم الجديد ليستقوي. . وقد أخذ محمد ينظم شؤون المدينة فيقيم فيها المسؤولين عن هذا العمل أو ذاك. . ومع ظهور المناصب، بزغت طائفة تتقرب وتحاول أن تحصل على ما لا تستحقه. . ظهر من يطالبون بالتعويض عما تحملوا في سبيل العقيدة الجديدة. . لقد كافحوا لبعض الوقت وهم يطالبون الآن بالأتعاب وان منهم لمن يحسد أخاه على ما نال. .

الطريق ما زال بعد طويلاً شاقاً، مليئاً بالمتاعب!.
ومحمد ينصح لهم جميعاً ألا يحملوا في قلوبهم غير الحب.
فما يجتمع في جوف عبد الايمان والحسد. .

وانه ليؤكد لهم أن خيرهم هو من يتفانى في سبيل ما يؤمن به، وأن الطمع في متاع الحياة الدنيا يفسد القلب وأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب. .

ثم انه ليأمرهم أن يكون الانسان في عون أخيه، وأن أفضلهم ليس هو أغناهم ولا أعلاهم منصباً، وانما هو أعفهم يداً وأتقاهم قلباً. وأنه ليغريهم بأن يملأوا قلوبهم بقيم الفضيلة لا بالطمع في الغنى والجاه.

وكان لتعاليمه رجع طيب في كثير من القلوب، ولكنه فوجىء ذات يوم على الرغم من كل ما يقوله بأحد المهاجرين يطمع في درعين عند زميل له، فيسرقهما.

السرقة أيضاً. على الرغم من كل النصائح، ومن كل التحذيرات؟!.

وأمر محمد أن تقطع يد السارق ان ثبت عليه أنه سرق. . فهذا هو الحد الذي جاء به. .

فالذين كتموا أحقادهم ليتهم الواحد منهم أخاه بالسرقة، انفجرت المنافسات، واليهود وراء هذا كله يؤججون القلوب بالبغضاء ويلقون العداوة في نفس المسلم ضد أخيه المسلم ليحرجوا محمداً . .

وأعلن محمد أن من شهد زوراً، عوقب على شهادة الزور، ومن اتهم غيره بلا حق عوقب على هذا الاتهام، ون شهر بغيره عوقب على هذا التشهير . .

على من يدعي ضد غيره أن يثبت دعواه وعلى المدعى عليه ألا يكذب فان كذب أخذ بكذبه . .

واهتم محمد بحادثة سرقة الدرعين فأخذ يحققها بنفسه . . ودخل في دوامة عجيبة أغضبته . . هذا الرجل يتهم ذاك ولا يقيم بينة، ويسأل محمد المتهم فيغضب أقاربه ويرون في التحقيق معه اهانة له!.

لقد تألف القلوب المتخاصمة في المدينة. ولكن قلوب الذين هاجروا معه تتنافر الآن، وان من هؤلاء المهاجرين لمن يذكر تضحياته، ويطالب بالقصاص ممن يشهر به، والحقيقة غامضة . . والسارق الحقيقي لا يريد أن يتقدم فيعترف.

ومحمد مصمم على أن يجد السارق الحقيقي فيعاقب ليبين الحق، وتظهر براءة الذين اتهموا . . ولكيلا تكون سرقة بعد.

وخلال هذا الضجيج الذي ثار فجأة هرب السارق الحقيقي . .

عاد الى مكة . . والتجأ الى بيت امرأة كان يعشقها قبل أن يدخل الاسلام اذ لم يجد له في مكة داراً ولا مالاً، فقد صادرت قريش كل شيء له . .

وحركت هذه الفتنة شاعرية حسان فأنشد قصيدة يهجو فيها السارق والذين أججوا البغضاء . . وعرض لهرب السارق الى مكة، وذكر المرأة التي آوته هناك، وشهر بسمعتها . . وذاع الشعر حتى حفظه فتيان من قريش، وأسمعوه لتلك المرأة، فدخلت على صاحبها السارق تشتمه وهي تقول: «انما أهديت لي شعر حسان!!» ثم أخذت رجله وطرحته خارج المنزل . .

على الرغم من هذا كله، فقد كان على محمد أن يحرس المدينة، من العدوان.

كان عليه خلال هذه الدوامات المتموجة أن يواجه قريشاً بكل سلطانها. أن يفرض عليها هيبته.. فلا تصد عنه الذين يريدونه، ولا الشعراء، ولا تغري به من يهجوه، ولا تتآمر ضده مع بعض مواطنيه في المدينة..

كان عليه أن يتابع ارسال السرايا، ليتحسس من أمر قريش، وليؤمن الصحراء من حول المدينة، فلا تفاجئهم قريش بالغزو.. لا قريش ولا احدى القبائل التي تحالفت معها..

كان عليه وسط كل هذه الدوامات المتلاحقة، أن يهيىء للكفاح قلوباً بدأت تأنس اللين وتألفه: بعد أيام الإستبسال الأولى.

اليهود يكيدون، وشيعة عبدالله بن أبي تثير البغضاء، وبعض المهاجرين يشغله جمع المال، ومنهم من ينفس على أخيه مكانته.. وبعض الذين ناضلوا بشجاعة في أول الدعوة، يستنيمون اليوم الى طيب المنام.. وقريش تتأهب للعدوان عليهم جميعاً..!

ومضى محمد يذكرهم بالطريق الطويل الذي يجب عليهم أن يخوضوه معاً، على الرغم من الأشواك والصخور.. وكل شيء..

فليستعدوا إذاً للأيام الصعبة القادمة.. فمن حارب ومات في الحرب دفاعاً عن عقيدته، فسيعوض عن مزرعته حديقة في الحياة الأخرى، وسيكون له بدلاً من بيته قصر ضخم.. وبدلاً من زوجته حوريات أبكار لم تقع العين على مثل جمالهن..

الحياة عرض، سيتركه الانسان ذات يوم.. فكل انسان يموت، ولكن الموت في الحرب شيء.. انهم لن يحاربوا طمعاً في الاستيلاء على قريش ولكنهم سيحاربون دفاعاً عن وجودهم، وعن الأشياء التي يؤمنون بها والتي يحبونها..

انهم سيقاتلون دفاعاً عن المستقبل.

وليذكروا أن الانسان يجب أن يموت ذات يوم.. ويوم يموت تتبعه الى قبره ثلاث: أهله، وماله، وعمله.. ثم يعود الأهل الى سيرتهم، ويتفرق المال ولا يبقى للانسان غير عمله!.

وألح محمد على المهاجرين والأنصار بهذه التعاليم.. فأخذت سبيلها الى

الأعماق يوماً بعد يوم، تحتل مكانها الى جوار الطمع في السلطة والمال والأرض، وامتلأت في بعض القلوب بهذا الايمان، وبدأت تتوثب بين الضلوع في شوق الى يوم تلمع فيه السيوف دفاعاً عن المستقبل.

وبدأ هو يقود السرايا بنفسه ويخرج ثم يعود بالطمأنينة الى أهل المدينة وكان كلما خرج يضع مكانه رجلاً من بسطاء المسلمين. لكيلا يستعلي أحد من السابقين الى الايمان به أو المقربين اليه..

ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد.. وكان من رجال يهود ونسائها من يقوم بأعمال السحر.. وللسحر اذ ذاك سلطان مخيف على بعض العقول وصنعت امرأة يهودية سحراً يقعده من الخروج ويمنعه من النساء.

ولقد ضاق هو بهذا السحر، ولكنه تحداه.. وخرج يقود احدى السرايا، وعاد الى المدينة كما تعود.. ساخراً بهذا السحر..

عير أنه امتنع عن النساء.. فأما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للأمر عدة شهور، وأما عائشة زوجته الجديدة الشابة فقد احتملت هذه الشهور ثم طالبته بأن يصنع شيئاً يبطل به هذا السحر.. وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكىء بذقنها على كتفه أمام الناس، وشعرها يلمس خده، وهي ترى معه ألعاب الأحابيش في ساحة المسجد.

وكان يثق أن اليهود انما يشغلونه بهذا الأمر، في وقت حرج بالنسبة الى دعوته وأنه على أية حال سيشفى؛ فما هذا الوهم الذي ألقوه في نفسه! ولكن عائشة ألحت عليه أن يلتمس الطب، أو ما يبطل هذا السحر، وأن يعاقب الذين صنعوه..

وكان هو لا يريد أن يشغل أحداً بغير الاستعداد لاستقبال قريش وحلفائها ان بدأ العدوان عن المدينة أو تجارتها.. انه في المرحلة الحرجة، ليحرص على أن يسد كل الثغرات في جبهته الداخلية، وأن يشد الصفوف لتتماسك.. فقال لعائشة: «أكره أن أثير على الناس شراً».

ومضى يعد سرية بقيادة عبدالله بن جحش وسبعة آخرين من المهاجرين فيهم سعد بن أبي وقاص..

وأعطى قائد السرية كتاباً وأوصاه بألا يفتحه الا بعد مسيرة يومين.

وعاد الى حياته الطبيعية، وعادت اليه العافية بعد أيام.. فاطمأنت الحياة بعائشة، وغمرتها بشاشتها القديمة.

أما عبدالله بن جحش فقد سار يومين ثم فتح الكتاب فاذا هو أمر منه أن يسيروا الى «نخلة» بالقرب من مكة فيرصدوا منها قريشاً ثم يأتوا المدينة بخبر قريش وفي الكتاب أمر لعبد الله ألا يستكره أحداً ممن معه، فمن شاء فليرجع ومن رغب في الاستشهاد فليتقدم..

وأقام عبدالله بن جحش وصحابه بوادي نحلة، حتى اذا مرت بهم قافلة صغيرة لقريش تحمل جلوداً وزبيباً، هاجموها، وقتلوا رجالها وأسروا اثنين وغنموا البضاعة وعادوا الى المدينة.. وفي أثناء القتال أسرت قريش اثنين من السرية، أحدهما سعد بن أبي وقاص.

وكان ذلك في رجب.. الشهر الذي تعود الحجاج أن يفدوا فيه الى مكة.. الشهر الحرام فلا قتال فيه..

فلما عاد عبدالله بن جحش الى المدينة، دخل على محمد ظافراً منتشياً بما حمل من غنائم وبما أحرزه من انتصار.

ونفر عرق من جبهة محمد وصاح في عبدالله وبقية صحبه «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!».

وطلب ألا يمس أحد شيئاً مما حمله عبدالله بن جحش.

وامتلأت المدينة بالوجوم.. بينما انطلق المرجفون في المدينة يقولون قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.

وانقض المسلمون على عبدالله يعنفونه مغلظين له.. وكل منهم يشعر بخجل كبير، لأن واحداً منهم ارتكب مثل هذا العمل في الشهر الحرام.

وانتظر عبدالله وبقية صحبه.. ما سيحل بهم من عقاب..

أتراهم قد أفسدوا في الأرض..؟

ولم يكلمهم محمد أياماً.

١٤

يجب أن تنتهي ـ على الفور ـ كل هذه المناقشات حول موقف عبدالله، فلن يستفيد منها أحد غير الأعداء..!

ولقد مضى الأعداء يؤججون المناقشات ويثيرون النفوس، وهم يزورون على هذا الدين الجديد الذي يسمح لأتباعه بالعدوان في الشهر الحرام.

وهكذا عاش عبدالله بن جحش أيامه يطارده الاتهام بالغدر، وباهدار المقدسات المتوارثة..

كانت أيامه قاسية مضنية من الشعور الزري بالعار..

فلم يعد عبدالله يستطيع بعد أن يرفع الرأس أمام أحد في المدينة، حتى صحبه المسلمين.

ولكن الندم المعذب الذي استسلم له عبدالله، ليس عقاباً كافياً.. لا بد من عقاب صارخ يعظ ويدوي، ويغمر بصداه رجع أصوات الاستنكار عبر الجزيرة العربية..

أهو النفي من المدينة..؟

النفي ليس عقاباً كافياً أيضاً..

فليقتل عبدالله إذاً، وليغسل دمه عن أتباع الدين الجديد هذا العار الذي يلطخهم حتى الجباه..

غير أن بعض المسلمين السابقين الى الاسلام، ذكروا لعبدالله بلاءه القديم في تلك الأيام الأولى من الدعوة؛ حين كان العقاب الذي تنزله قريش بمن يتبع العقيدة

الجديدة، هو النفي من الأرض، والتعذيب حتى الموت ومصادرة الممتلكات، والهوان، وانتهاك الحرمات. .

والحرمات قصاص.

ومهما تكن خطيئة عبدالله، فان قريشاً قد ارتكبت وما زالت ترتكب خطايا يجب أن ينكرها كل ذي قلب شريف. .

لقد أخطأ عبدالله وضل، ولكن قريشاً شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل.

فما بال رجال المدينة لا يغضبون لأن قريشاً تصد المسلمين عن الحج بالكعبة.
أم يريدون كيداً . .

لقد جاوز عبدالله كل الحدود حين اعتدى على القافلة القريشيةوقاتل في الشهر الحرام . . هذا حق . . ولكن فليذكر مغاضبوه من المهاجرين، بعض ما صنعته قريش بهم هم أنفسهم قبل أن يصبوا كل هذا الغضب على عبدالله المسكين!.

وانها لتصدهم عن المسجد في الشهر الحرام . . وما زالت تفتن من بقي في مكة من أصحابهم المستضعفين، عن دينهم الجديد.

انها لكبيرة أن يقتل عبدالله أحداً في الشهر الحرام، ولكن الفتنة أكبر من القتل. . وصد الناس عن البيت العتيق واخراج أهله منه أكبر. .

وخرج محمد الى الناس ليقضي على هذه المناقشات التي لا تنتهي. .

فلتحسم الأمر يا محمد . . فما تدعو اليه، يحتاج الآن الى أن تحشد كل قواك والى أن تحسن تدعيم الصفوف.

انهم لا يعلمون . . فلتعلمهم أنهم مطالبون الآن بأن يرفعوا السلاح في أي وقت دفاعاً عن المصير. .

انهم ليسألونك عما ستصنعه بعبدالله بن جحش، ولكن جرائم قريش أكبر . . ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير.

لا تتخاذلوا يا أيها الناس أمام من عذبوكم وأخرجوكم من دياركم. وما زالوا يفتنون أصحابكم. قاوموهم . . وأخيفوهم . . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة.

ولم يكد محمد يعلن على أصحابه هذا الموقف، حتى عادت الحياة تـدب من جديد بكل عنفوانها في بدن عبدالله. بعد أن أوشك الندم المعذب أن يمتص رونق شبابه قطرة بعد قطرة.

وخرج عبدالله الى الناس يرفع رأسه، راضياً عن نفسه.. وقال لمحمد: «أنطمع في غزوة أخرى نعطي فيها أجر المجاهدين؟».

انه ليتوق الآن الى الاستشهاد في سبيل ما يؤمن به.. ألم يعلمه محمد ـ كما علم غيره ـ أن من مات في سبيل العقيدة الجديدة، جوزي بعد الموت بجنات تجـري من تحتها الأنهار فيها كل ما تشتهي الأنفس..؟

صبراً يا عبدالله.. فاليوم الذي تصبو اليه أنت وزملاؤك، آت لا ريب فيه، وما كانت قريش تتركهم وادعين..

وبعثت قريش في فداء أسيري عبدالله، فرد محمد.

«لا نفديكموهما حتى يرد صاحبانا».

وأطلقت قريش سراح سعد بن أبي وقاص، وصاحبه، فعادا الى المدينة، أما رجلا قريش الأسيران، فقد أسلم أحدهما ورفض أن يعود، ولحق الآخر بمكة..

وأقبل محمد على حياته التي تعودها في المدينة: النهار للعمل والليل للتأملات والعبادات والنوم.. من بيت سودة الى بيت عائشة. ليلة هنا وليلة هناك، وهو يفكر يتدبر ما عسى أن تصنعه قريش بعد أن أعلن أنه سيقاتل حتى لا تفتن قريش من يؤمن به.. وانه ليستشير أصحابه كلما التقى بهم في المسجد، فيعلم أن قريشاً تصفي خلافـاتها مـع القبائل لتنشىء ضده حلفاً ثم تبدأ العدوان..

وطرب أعداؤه في المدينة لهذه الأنباء.. سيخـرج محمد ذات يـوم مع صحبـه المهاجرين والأنصار، فيلقوا قريشاً.. ستفنيهم قريش، فتموت تعـاليمه في المـدينة، ويغلق السوق الذي أنشأه التجار المسلمون، وتعود العلاقات في المزارع والأسواق بين الملاك والأجراء، كما كانت قبل أن يأتي محمد بتعاليمه التي أثارت مطامع الفقـراء، وقررت في أموال الغني حقوقاً للمحتاجين، وسدت على تجار المدينة كثيراً من الطرق الى الاثراء..

على أن يهود المدينة أرادوا أن يواجهوا محمداً مجتمعين.. فقد لاحظ رؤساؤهم أن من فقراء المدينة من يميل الى محمد.. وأن من أغنيائهم بعض الذين تعجبهم تعاليمه ويكبرون سيرته بينهم، حتى لقد أوشكوا أن يتبعوه.

لكم من تجربة عاناها رؤساء اليهود في المدينة.. كم من مرة نجحوا في اثارة الشكوك حول محمد وصحبه، وكم من مرة نجحوا في القاء الذعر في القلوب، وفي خلق حالة من الضيق بمقدم محمد.. ولكن محمداً كان في النهاية يقضي على الشكوك ويحمل الى القلوب كثيراً من الطمأنينة، فتتفتح له النفوس التي كان يساورها الضيق به!.

على أنه مشغول بالاستعداد لقريش، وهو متعب القلب لمرض ابنته رقية التي لم تستعد عافيتها الأولى منذ دهمها المرض أيام الوباء.

الفرصة سانحة لاثارة الشك فيه من جديد، ولصد بعض اليهود الذين يفكرون في الالتفاف حوله.. لقد جاء بكثير من العقوبات التي لم يتعودها العرب، ولقد هرب منه أحد المهاجرين وعاد الى قريش منذ قرر محمد أن يعاقبه بقطع اليد على سرقة الدرعين.. فلو أن بعض الذين يميلون الى محمد من اليهود امتحنوا بمثل هذا ما تبعه أحد منهم، ولتماسكت قبائل اليهود جميعاً وكونوا حلفاً قوياً ضد محمد.

واجتمع بعض أغنياء يهود وأجمعوا أن يكيدوا لعشيرة منهم كان رئيسها يبدي لمحمد بعض الميل..

كانت له ابنة جميلة اسمها بسرة تعشق رجلاً آخر من سادة عشيرتها.
ودبر بعض كبار تجار يهود المدينة الأمر في احكام..

فضبطت بسرة مع عشيقها.. وذهب زوج بسرة، وزوجة العشيق مع شهود من كبار اليهود يشكون الى محمد ويسألونه أن يقضي بينهم.. وكانوا يعلمون ما يأمر به محمد في مثل هذه الحالة، انما هو الرجم حتى الموت..

وأدرك محمد كل شيء.. انها لمحاولة جديدة لتنفير الناس منه.. فعشيرة بسرة هم أقرب اليهود الى الايمان به. وقال لمن جاءوا يسألونه ان لديهم التوراة.. فليحكموا بما في التوراة.. ولكنهم ألحوا عليه أن يقضي هو بنفسه.. فأصر على أن يعودوا الى التوراة فيحتكموا اليها..

وعاد كبارهم يتدارسون الأمر. . ان محمداً باصراره على تحكيم التوراة، يوشك أن يفسد المكيدة. . وانطلقوا يثيرون الشكوك في المدينة، لماذا يخشى محمد أن يقضي بالرجم حتى الموت على بسرة وعشيقها. .

أيعطل الأحكام التي ينادي بها لأنه يطمع في ضم عشيرة بسرة اليه؟. . أي عدل هذا!

ومحمد مشغول القلب بالاستعداد لقريش! حزين لمرض ابنته رقية. .

ويرجع اليه رؤساء يهود يقولون له ان التوراة تقضي بأن توضع الفتاة وشريكها على حمار، ثم يشهر بهما في الأسواق ويطلى وجهاهما بالقار. . ولكنه كان قد عرف أن ما تقضي به التوراة في مثل هذه الحالة انما هو الرجم حتى الموت. . رجم الرجل والمرأة جميعاً في حفرة واحدة. . وأعلن لهم هو نفسه حكم التوراة. . واستحلفهم أن يعودوا الى التوراة التي يملكونها ويحتكرون الاطلاع عليها فيعلنوا للناس ما فيها. . ولكنهم أكدوا أن التوراة ليس فيها شيء مما يقوله. غير أن شاباً منهم يدرس التوراة انتفض صائحاً. . «يا أبا القاسم انك لصادق ولكنهم يحسدونك ويحرجونك!».

وعلى الرغم من ذلك فقد حزنت عشيرة بسرة وعشيقها، وجزع الجميع من مثل هذا العقاب، فلم يفكروا في الانضمام اليه بعد، لكيلا يكون له سبيل على علاقاتهم فيما بينهم. .

ومضى يهود المدينة جميعاً يحلمون بأن تهب قريش وحلفاؤها فتخلصهم من محمد، ومن تعاليمه التي أفسدت العلاقات بين الملاك والأجراء. . والتي توشك الآن أن تفسد العلاقات الحرة بين النساء والرجال. . متى تهاجمه قريش. . ؟

ولكن محمداً كان قد قرر أن يبدأ الهجوم. . فالهجوم خير وسيلة للدفاع.

كان قد استشار صحبه واستقر رأيهم جميعاً على أن يفسدوا الحلف الذي تسعى قريش لعقده بين القبائل. . سيقومون بعمل يفرض هيبتهم على قريش، وعلى القبائل الأخرى، فلا تفكر قبيلة في أن تتحالف مع قريش ضدهم!.

فلئن سكتوا لاستضعفوهم!. . ومن يدري؟. . ربما اقتحموا عليهم المدينة نفسها فأبادوهم جميعاً!.

وعلم محمد أن قريشاً قد أعدت قافلة ضخمة خرجت في رحلة الصيف الى الشام. . وأن أبا سفيان بنفسه يقود حرس القافلة. . والقافلة الآن في طريق العودة من الشام.

وهي قافلة جهزتها قريش بخمسين ألف دينار، شاركت فيها عشيرة أبي سفيان بأربعين ألفاً.

ولكن هذه الآلاف العديدة قد انتزعها أغنياء قريش من عمل المستضعفين ومن أموالهم المغتصبة!.

ان فيها لأموالاً اغتصبت من هؤلاء المهاجرين الذين نفتهم قريش من أرض وطنهم مكة بعد أن استولت عنوة على ما يملكون!.

لقد جاء الزمن الذي لم يعد فيه هؤلاء المستضعفون، مستضعفين بعد، وعليهم أن يستردوا أموالهم التي اغتصبت منهم من قبل. .

عليهم أن يفرضوا هيبتهم على قريش لكي ينقذوا اخواناً لهم آخرين ما زالوا في مكة يتلقون العذاب، ويفتتنون عن عقائدهم!!.

وجمع محمد المهاجرين وحضهم على أن يخرجوا فيصادروا أموال القافلة.

وأعلن أن ما في القافلة سيوزع على من يغنمونها. . من مهاجرين وأنصار، فمن لقي الموت منهم فهو خير له من أن يموت في فراشه ذات يوم حتف أنفه. انه يموت الآن دفاعاً عن العقيدة في وجه الذين يكيدون لها! على أن الأمر لن يحتمل قتالاً، فما يحرس القافلة غير ثلاثين رجلاً!!.

وخرج محمد الى القافلة في نحو ثلثمائة من المهاجرين والأنصار، بعد أن استخلف على المدينة رجلين من بسطائها. أحدهما يؤم الناس في الصلاة والآخر يقضي بينهم: وأوصى الذي هو قاض بينهم أن يستفتي قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه. .

وأرسلت اليهود الى أبي سفيان تنذره وهو في الطريق. . فأرسل أبو سفيان الى مكة يطلب المدد، ويأمر بوصفه رئيساً لحكومة مكة أن تخرج قريش بكامل فرسانها فليلحقوا

به في وادي بدر، حيث ماء الغدران والظلال التي ستستريح تحتها القافلة، وتستقي!
ولتعجل قريش فتبلغ ماء بدر، قبل أن يصله محمد وأصحابه.

وخرج كل المساهمين في القافلة لينجدوا أبا سفيان.. ولم يبق رجل منهم قادر على حمل السلاح الا خرج أو أرسل مكانه من يحارب باسمه.. ولقد تخلف أبو لهب لمرضه، فبعث مكانه أحد مدينيه ليحارب باسمه.. وتخلف أمية بن خلف فسخر به بعض شباب قريش وأخذوا يطوفون حوله بالبخور قائلين له «انما أنت كالنساء» فقام من فوره يتجهز للحرب..

وظلت هند زوجة أبي سفيان تستصرخ الرجال لينجدوا زوجها وتستفز عداوتهم لتعاليم محمد، وتغري الفتيان بالثأر لضحايا عبدالله بـن جحش، حتى احتشد جيش كبير يتزعمه عتبة والد هند، وعمها شيبة وأخوها الوليـد.. واندفـع هذا الجيش على قـرع الطبول.. تحت قيادة أبي جهل غير أنه لم يكد يوغل في الصحراء حتى جاءهم رسول من أبي سفيان يطلب منهم أن يعودوا الى مكة فقد نجا بالقافلة.

ولكن أبا كهل طالب الرجال بأنيسيروا حتى يردوا بدراً فيقيموا فيها ثلاثة أيـام بلياليها ينحرون الذبائح ويطعمون الطعام ويسقون الخمر وتعـزف الجواري المغنيـات ويخيفون محمداً وصحبه فتسمع العرب بهم وبمسيرتهم وجمعهم فما تزال تهابهم القبائل بعدها أبد الدهر..

وكان محمد اذا ذاك ما يزال يتقدم الى بدر متتبعـاً آثار قـافلة أبي سفيان والتي اتخذت طريقها على شاطىء البحر الأحمر..

وأتاه نبأ قريش..

لم يكن يحسب أن قريشاً ستخرج بفرسانها وجنودها، فقد خيل اليه لبعض الوقت أنه وصحبه سيتعرضون بغتة للقافلة التي يقودها أبو سفيان، فيغنمون ما فيها ويعودون بعد أن يلقوا الرعب في قريش!.

ولكن الأمر لم يعد الآن سهلاً كما تخيلوا فـانها الحـرب اذاً ضد قـريش بكل عدتها، وجيشها!.

واستشار محمد أصحابه.. أيمضي الى بدر فيلقى جموع قريش أم يؤثر العافية

ويعود الى المدينة؟. . فأشار أبو بكر أن يمضي الى بدر، وأيد عمر رأي أبي بكر فقد تظن بهم قريش والقبائل ضعفاً ان هم رجعوا الى المدينة، مكتفين من الغنيمة بالاياب!.

وتكلم مهاجرون آخرون مؤيدين رأي أبي بكر وعمر! ولكن أحداً من الأنصار لم يتكلم. . لقد عاهدوه من قبل أن يمنعوه في المدينة، أما أن يسير بهم الى عدو خارج المدينة، فهذا. . شيء آخر!.

كانوا ما زالوا يطاردون أبا سفيان على شاطىء البحر. . وقال محمد وهو ينظر الى من خرج معه من الأنصار: «أشيروا عليّ أيها الناس». فقال له سعد بن معاذ «لكأنك تريدنا؟». . فقال محمد «أجل» فقال سعد: «لقد آمنا بك وصدقناك. . فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. . وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً. .».

وإذاً فقد أجمعوا كلهم على أن يلقوا قريشاً؟.

وقادهم محمد الى وادي بدر. . فوجدوا شابين من قريش يملآن بعض الأواني من أحد الآبار. . وتقدم اليهما علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام يسألونهما. . فقال الفتيان «نحن سقاة قريش».

وتقدم محمد يناقش الفتيين حتى عرف أن جيش قريش بين التسعمائة والألف وأن فيهم أبا جهل وعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وأبا البختري بن هشام وأمية بن خلف والأسود بن عبد الأسد. . وآخرون من فرسان قريش وسادتها فقال لرجاله: هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها.

لقد أرسلت مكة نحو ألف رجل، وأما محمد وصحبه فهم نحو الثلاثمائة. انه لصراع لا تكافؤ فيه!.

هو ذاك. . إذاً يجب أن يلاقوا قريشاً كي لا يحسب أحد أنهم فروا، فتسقط هيبة الدعوة الجديدة ويتخلى عنهم الذين بدأوا يميلون اليهم.

ولكن لا بد من خطة للانتصار. . لقد أقنع محمد رجاله أن من مات منهم مات شهيداً. . وسيعوض عما خسر جنات عرضها السموات والأرض! انهم ليؤمنون بما جاء به

فليدافعوا عن الأشياء التي آمنوا بها. . ليدافعوا عن مستقبل هذه العقيدة. . سيصبحون هم الأعلون يوم تنتصر! كثيرون منهم لا يملكون شيئاً يخسرونه ان ماتوا. انهم لن يخسروا غير الغربة، والضنى والأغلال!.

وبدأ محمد يستعد للمعركة. . لقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها. . تريد أن تسحقه ولم يكن هو حين خرج قد قدر أنه سيخوض مثل هذه المعركة. . فأرسل الى المدينة يطلب مزيداً من الرجال. . ولكنه رأى أن الوقت قد يضيق. . فقد تهاجمه قريش في أية لحظة؟. . فلينظم صفوفه إذاً، حتى لا تباغته قريش.

ورأى أن ينزل بعسكره في أول وادي بدر، على ضفاف الماء. . ولكن رجلاً من صحبه سأله: «أهو منزل أنزلكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال محمد: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة». . فأجاب الرجل وهو الحباب بن المنذر: «فان هذا ليس بمنزل. . فانهض بالناس» واقترح الحباب أن ينزلوا آخر وادي بدر، وأن يكون معسكرهم على مرتفع من الأرض، بين وادي بدر بغدرانه ومائه، وبين الكثيب المنخفض الذي نزلت به قريش وهكذا يقفون بين قريش وبين الماء، فيقاتلون، وخطوطهم مؤمنة. . وراءهم الماء والشجر وتقاتل قريش فلا تجد ماء تشربه الا أن تقتحم صفوفهم الى هذا الماء. . وقام أصحاب محمد فبنوا حوضاً كبيراً تدفق اليه الماء من غدران وادي بدر وأقاموا بالقرب منه.

وطرب محمد للفكرة. . هكذا سيقاتلون قريشاً. . بالسلاح والعطش أيضاً!.

وقرر أن يتقدم هو الصفوف ولكن سعد بن معاذ اقترح عليه ألا يصنع. . لأنه سيكون أول هدف لسهام قريش ورماتها وفرسانها. . ورأى سعد أن يبقى محمد في المؤخرة ليقود المعركة، فتبنى له خيمة يستظل بها فان غلبوا قريشاً فبها وان غلبتهم قريش أمن محمد. . وتم الانسحاب دون أن تتعرض حياته للخطر! وعدل عن رأيه الى رأي سعد. .

وأقيمت الخيمة واصطف أنصار محمد في مكانهم أمام الماء. وأخذ رجال من قريش يقبلون طلباً للماء فتتلقاهم السهام.

ولم يعد أحد منهم لجيش قريش بماء!

وألح العطش على رجال قريش وتشاور بعض كبارهم فرأوا أن يعودوا . .

ما بقاؤهم على هذه الحالة؟ وفي وجه من سيرفعون السلاح . . ان لهم لأقارب وأخوة وأبناء أعمام بين هؤلاء المهاجرين.

ووقف عتبة بن ربيعة يقول لهم: «يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً؟ ولئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان أصابوه فذلك ما أردتم».

ولكن أبا جهل اتهم عتبة بالجبن . .

وكان بعض رجال قريش قد بدأوا يعانون من العطش، فخشي أبو جهل أن يستجيبوا لعتبة. وخشي بصفة خاصة أن يتذكروا أنهم انما يقاتلون أقاربهم! فأعلن صيحة الحرب فجأة . . واندفع الأسود بن عبد الأسد من صفوف قريش وهو يقسم أن يشرب من حوض محمد عنوة أو يهدمه؟ وكان الأسود رجلاً شرساً مرهوب الجانب. ووجم المسلمون والأسود يتقدم ولكن حمزة بن عبد المطلب برز له فتقاتلا أمام الحوض . . حتى قتله حمزة . .

وهكذا بدأت الحرب . .

واصطف الجمعان . . وقفت قريش في مواجهة المسلمين.

ثم خرج من صفوفها عتبة بن أبي ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا الى المبارزة متحدياً! كان هؤلاء الثلاثة هم خير المبارزين في قريش . . فبرز اليهم ثلاثة من أقوى المبارزين الأنصار . . لكن عتبة صاح . يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا.

فأمر محمد أن يقوم حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث . . فبارز حمزة شيبة بن أبي ربيعة وكان هو أفتك قريش، وتقدم علي يبارز الوليد وعبيدة يبارز عتبة.

أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وكذلك صنع علي بالوليد . . وأوشك عتبة أن يظفر بعبيدة لولا أن خف حمزة فأجهز على عتبة.

وهكذا سقط في لحظة واحدة ثلاثة من أكبر سادات قريش . . هم في الوقت نفسه، أفتك شجعانها.

وكبر أصحاب محمد وهللوا حين رأوا الثلاثة يسقطون. .

وصاح محمد بأصحابه: «لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر الا أدخله الله الجنة». فقال له رجل يأكل ثمرات: «أما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء» وقذف الثمرات واندفع يقاتل. . واندفعت صفوف المسلمين تقاتل.

والتقى الجمعان.

كان كل رجل من المسلمين يطمع في أن يموت فيكسب الجنة. . أما رجال قريش فكانوا يقاتلون بالرغبة في الخلاص من محمد ليعيشوا من بعده آمنين بين المتاع والغنى الفاحش والخمر والنساء. .

ثلاثمائة يقاتلون في حرص هائل على الموت يلهبهم الايمان والحب، يواجهون بعقيدتهم ألف رجل يقاتلون في حرص جنوني على الحياة، ولا تحركهم غير البغضاء ونار الانتقام وأحلام السيطرة!.

كانت قريش بفرسانها الألف تملك الأسلحة الحديثة ولها خيلها ودروعها أما الثلاثمائة مسلم فلم يكن لديهم غير فرسين اثنين.

وأمر محمد رجاله أن يجعلوا همهم وهم يقاتلون أن يقتنصوا قادة قريش. . فليبحثوا عن أبي جهل عمرو بن هشام. . فستخلع لموته قلوب شجعان قريش كما انخلعت تلك القلوب لمصرع شيبة وعتبة والوليد!.

لقد أحسن حمزة افتتاح المعركة وها هو ذا يخوضها الآن بكل الجسارة التي تعرفها قريش منه، وان فرسانها ليتفادونه ويختفون من طريقه. . والى جوار حمزة علي بن أبي طالب باسلاً كعمه حمزة. . والى جوارهما سعد بن أبي وقاص. . وهنا وهناك تهوي سيوف يرفعها عمر بن الخطاب، وبلال بن رباح وكل فرسان العقيدة الجديدة.

ولكن المعركة لم تنته بعد. .

فما زالت قريش تزحف بفرسانها الدارعين وقد بدأ بعض فرسان الدعوة الجديدة يسقطون مثخنين بالجراح.

١٥

ما زالت جموع قريش تزحف بمائة من الخيل وسبعمائة بعير مدربة على القتال، وألف من الرجال مدرعين. .

ان هذه الجموع لتكاد تحتاج ثلثمائة مسلم حاسرين بلا دروع ولا خيل، فيهم من يدور بسيفه لكيلا يغمده من عدوه في صدر أخ أو أب أو قريب أو عزيز. .

والمقاتلون المسلمون يسقطون: الرجل بعد الرجل!. .

لا حيلة بعد!. .

لتمض السيوف الى غايتها مهما تكن الصدور والرقاب التي تتلقاها. .

ومحمد على باب خيمته يدعو بقلب واجف!.

فلئن انتصرت قريش اليوم، لما ارتفعت راية لدعوته بعد، ولانتهى كل شيء الى الأبد. . وأبو بكر الى جواره يخفف عنه ويحمل له العزاء، والأمل في الانتصار. .

غير أن قريشاً تتقدم من الكثيب الذي نزلت به، وهي الآن توشك أن تجلي المسلمين عن مكانهم المرتفع، وتبلغ الماء، ولئن بلغ فرسانها الماء فشربوا وأطفأوا سعير العطش، لما استطاع رجال محمد أن يقفوا بعد أمام خيلهم الزاحفة.

وحمزة واقف يمنع قريشاً عن الماء ويقاتل مع نفر قليل موجات مدرعة تحاول أن تندفع الى الماء. .

ويسقط فرسان قريش دون الماء. . ولكن رجلاً منهم يفلت. . لقد فتح ثغرة وستندفع منها أرتال الفرسان.

ويعود حمزة فيقف بجسده الشامخ يسد هـذه الثغرة.. السيف في يـده، وعلى صدره تخفق ريشة نعامة. وهو يقاتل شجعان قـريش المندفعين الى المـاء فيصرعهم الواحد بعد الآخر ويصيح محمد برجاله ألا يتركوا قريشاً يردون الماء.. انهم عطاش الآن.. فليكن العطش سلاحاً أيضاً.. وهم متعبون تلفحهم الشمس فليمزقهم التعب، وليستظلوا بسيوف المسلمين..

اضربوا أيها الناس.. اضربوا أعداءكم، قاتلوهم بلا هوادة، فالجنة تحت ظلال السيوف..

وينتفض المسلمـون.. لا تتهيب سيوفهم ـ بعد ـ رقاباً أيـة رقـاب مهمـا تكن عزيزة..

وينقض عمر بن الخطاب على خاله فيقتله.. ويحاول أبو عبيدة بـن الجراح أن ينحي أباه عن طريقه ليخلص الى فرسان قريش، ولكن أباه يظل واقفاً أمامه بسيفه.. فيقتل أبو عبيدة أباه ثم يخوض في دم أبيه.. الى صفوف الأعداء المهاجمين..

ويقتل علي بن أبي طالب بعض بني عمه.. ويندفع حمزة لا يبالي الى الصفوف المتراصة من قريش فيجعل همه أن يضرب شجعاتها وساداتها..

وهكذا قتل حنظلة بن أبي سفيان، والحارث بن عامر..

ثم لمح نوفل بن خويلد يقـاتل المسلمين ويثخن فيهم، ويـدهس بفرسـه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب في قلوب المسلمين، فأسموه الشيطان..

فيندفع حمزة الى نوفل بن خويلد.. ونوفل على فـرسه، خلف الـدروع والزرد ورأسه في الدرقة، ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة، ولكن حمـزة يثب بعيداً ويستـدير ويضرب الفرس فيوقعه.. ثم يتفادى ضربة من سيف نوفل. والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون في لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب..

ثم يكر حمزة على نوفل، ويسدد سيفه الى عنقه، ويخلص حد السيف من بين الحديد والزرد، ويطير رأس نوفل..

وهكـذا انتصر حمـزة على شيطان قـريش.. فـاطمـأنت قلوب كثيـرة، وتـدفق

المسلمون بصدور حاسرة لا دروع عليها ورؤوس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين. .

وريعت قريش. . فتراجعت. .

وخف أبو جهل الى بعض الأحراج ينتظر فرصة يجمع فيها صفوف قريش. . وانتظر على صهوة جواده. . يتربص لجموع المسلمين. . ولكن المقاتلين كانوا يبحثون عنه وخلص اليه اثنان منهم فقتلاه. .

وأيقن محمد أن النصر آت لا ريب فيه. . فها هم أولاء سادة قريش وفرسانها يتساقطون. .

ما أروعك يا حمزة.

أنت الذي قدت هذه الفئة القليلة الى النصر المحقق. . أنت وحدك وقفت شامخاً صامداً تمنع قريشاً عن الماء، وجعلت همك أن تصرع الأقوياء من فرسان العدو.

وعندما سقط الشجعان منهم سقطت همة الآخرين. .

ان بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون: «من الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره يحجب وجهه دائماً غبار المعركة» فيقول واحد منهم: «انه حمزة بن عبد المطلب»، ويتنهد الباقون في حسرة: «ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل» حقاً. . لقد فعلت بهم الأفاعيل. . كنت أنت وحدك جيشاً بأسره!.

ان عديداً من رجال قريش ليفرون الآن في طلب النجاة، وقد بدأت الهزيمة تغزو القلوب، حتى قلوب الذين ما برحوا يقاتلون في الميدان.

وها هو ذا صوت أحدهم يرتفع منذراً: «أصحاب محمد يزيدون على الثلثمائة وليس لهم منعة الا سيوفهم وما يقتل منهم رجل الا يقتل رجل منا، فاذا أصابوا منا أعدادهم وقتلوا منا ثلثمائة فما خير العيش بعد ذلك؟».

وأبو جهل وراء الأحراج ما زال يقاتل. ويسمع هذا النذير فيرسل ابنه عكرمة الى صفوف قريش يحضهم على الثبات. . ويذكرهم أنهم سادة العرب وأنهم الأكثرون.

والمسلمون يندفعون. . ليقتلوا مزيداً من أشراف قريش وشجعانها.

ها هو ذا بلال بن رباح يلقى سيده القديم أمية بن خلف.
لكم عذبه على رمضاء مكة..

ولكن أمية الآن يستجير بصديقه عبد الرحمن بن عوف، ويستأسر له.. هرباً من الموت.

غير أن بلال يرفض هذا، ويصرخ فيمن حوله: «ها هو ذا رأس الكفر أمية بن خلف». وعبثاً يحاول عبد الرحمن بن عوف أن ينقذ صديقه، فقد صرخ بلال «لا نجوت ان نجا».

وان هي الا لحظات حتى اجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من أمية حين كانوا جميعاً في مكة فلاموا عبد الرحمن بن عوف: أن يجير رجلاً آذاهم وآذى محمداً..

اتهموه بأنه هو التاجر الغني ما زال على الرغم من اسلامه، يعطف على نفس أفراد طبقته القديمة من سراة قريش!! ما زالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة، أعمق من ايمانه..

وأغلظ لهم عبد الرحمن وصاح ببلال مزرياً عليه: «يا ابن السوداء».
ولكن الوقت لم يكن صالحاً للمناقشة ولا للزراية بعد..

ان حمزة وعلي يقتلان من بني العمومة وعمر يقتل خاله، وأبو عبيدة بن الجراح يقتل أباه.. فما بال ابن عوف يأبى هذا المصير لصديقه الغني.. ألأنه غني مثله..؟.

واندفع بلال بن رباح نحو أمية بن خلف، وقاتله حتى قتله.. وحمل رأسه على سيفه.. وهو يرقص طرباً تحت غبار المعركة الذي أخذ ينقشع الآن وفرسان مكة يفرون وصفوف قريش تتراجع مضطربة.

ويتقدم محمد ليرى بنفسه كم من ساداتها يتساقطون.. ويرى على أرض الوادي صرعى من بني عمومته. رجالاً لم يسيئوا اليه من قبل.. ويرى المسلمين يتدافعون في صفوف قريش يصرعون من يلحقونه مهما تكن العلاقة به.. فيأخذه الحزن.. ويصيح بالناس:

«اني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي أبا البختري فلا يقتله لأنه كان أكف القوم عنا ونحن بمكة وما بلغنا عنه شيء نكرهه وهو ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم. . ومن لقي عمي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فانه انما أخرج مستكرهاً».

كانت صفوف قريش ما زالت تتراجع. .

فرد أحد الرجال المسلمين مستنكراً:

«أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواتنا وعشيرتنا ونترك العباس؟. . والله لئن لقيته لألجمنه السيف».

ونظر محمد الى من ينصفه ممن يلومه وانتظر حتى اقترب منه عمر بن الخطاب فلاذ به قائلاً «يا أبا حفص، أيضرب وجه عمي بالسيف» وعرف عمر بما كان فغضب على المعترض وقال: «لقد نافق، دعني فلأضرب عنقه بالسيف».

وتهيأ عمر للانقضاض على الرجل الذي يعترض، ولكن محمداً لم يسمح للسيوف التي تتجه الآن الى أعناق العدو، بأن تستدير الى رقاب أخرى.

وتابع المسلمون زحفهم على جيش قريش. فوجد بعض الرجال أبا البختري أمامهم فجأة. . فأبلغوه قول محمد فيه. .

وطلب أبو البختري الأمان لزميل له، ولكن الرجال رفضوا واذ ذاك قال البختري: «اذن لأموتن أنا وهو جميعاً لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة». .

وقاتل حتى قتل. .

ولم تكد الشمس تميل حتى كانت قريش قد أنهكها العطش والقتال، وأمضها فقد خيرة فرسانها وشجعانها وساداتها. . فجمعت فلول جيشها تاركة جثث قتلاها على أرض الوادي. . ولكن المسلمين انقضوا عليهم يأسرون كل من يجدونه. .

واذ رأى المسلمون جموع قريش تفر، امتلأت قلوبهم بنشوة الظفر فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر.

ولكن محمداً خشي أن يكون في الأمر مكيدة، ـ والحرب خدعة ـ فقد تستدير جموع قريش لتطوقهم، أو لتداهم المدينة وهم خارجها. .

فأمر الرجال أن يتابعوا الجيش المهزوم. وأن ينالوا منه. . ومن يدري. . فقد يفتح لهم اليهود أبواب المدينة من وراء ظهره!!.

وانقض رجاله في أثر الجيش المهزوم. . والجيش يسرع مجهداً من العطش، معذباً من الهزيمة. . حتى لقد ترك كثيراً من العتاد والمؤونة. .

وتأكد المسلمون أن جيش قريش، انما يعود الى مكة حقاً.

وانقضوا على أرض المعركة يلتقطون منها الغنائم من الدروع والسيوف والخيل والملابس الحريرية الفاخرة التي كان قد خرج فيها سادة قريش متعطرين، ليقيموا أياماً في بدر يطعمون الطعام ويسقون الخمر وتغني لهم الجواري، فيخيفوا محمداً وتتسامع بهم العرب، فيهابوهم!!.

واحتفظ كل رجل بما غنمه لنفسه من العتاد والأسرى. .

ولكن محمداً أمر بأن يحمل كل ما غنم، وكل من أسر الى خيمته. وكان الأسرى سبعين رجلاً بينهم عدد طيب من أغنياء قريش. . وأمر بأن يتفقدوا القتلى ليروا عدد قتلاهم وعدد قتلى قريش. . وأمرهم أن يبحثوا عن أبي جهل بصفة خاصة أقتيل هو أم في الأسرى؟!.

وعاد اليه عبدالله بن مسعود برأس أبي جهل!.

كان أبو جهل في حقل المعركة يلفظ أنفاسه وهو يلعن محمداً وصحبه، فوضع عبدالله قدمه على صدره. . ثم قطع رأسه ليحمله الى محمد. .

وحين رأى رأس أبي جهل قال لعمار بن ياسر: قتل الله قاتل أمك. .

وتفقد محمد أرض المعركة بنفسه فوجد أن من قتل من رجاله أربعة عشر بينهم أخو سعد بن أبي وقاص ثم زوج حفصة بنت عمر. . أما قتلى قريش فانهم لسبعون. .

وأخذ محمد ينظر في وجوههم. . عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة، والوليد بن عتبة، ثم أمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد، وأسود بن عبد الأسود. . سادات

وفرسان وشجعان من قريش، كلهم آذاه ذات يوم واستعلى عليه، وأزرى به وكلهم كذبه وأهانه. . وكلهم حاول أن يقتله! .

وطلب محمد من رجاله أن يواروا القتلى التراب بلا استثناء. . وأن يلقوا كبار رجال قريش في بئر جاف ويضعوا عليهم الحجارة. .

وعاد في موكب ظافر متجهاً الى المدينة، وحوله رجاله يجرون الأسرى مشدودي الوثاق. . ونظر في وجوه اصحابه فوجدها تضيء بنور النصر. . الا وجه حذيفة بن عتبة. . وكان حذيفة يسير الى جوار حمزة قاتل أبيه. فسأله محمد:

لعلك قد دخلك من أمر أبيك عتبة بن ربيعة شيء؟.

فقال حذيفة:

ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلماً وفضلاً وكنت أرجو أن يهتدي فلما رأيت ما أصابه بعد الذي كنت أرجوه له أحزنني ذلك».

واندفع الموكب الظافر.

وسمع محمد ضحكات رجاله من خلفه وهم يسوقون الأسرى أو يجرونهم. . ومصعب بن عمر يقول لبعض صحبه: «أحكموا شد وثاق أخي فان له أماً غنية ذات متاع لعلها تفديه».

ونظر محمد فوجد الأسرى يسيرون مشدودي الوثاق. . فقال لأصحابه: استوصوا بالأسارى خيراً. .

وأمر الراكبين أن يحملوا الأسرى معهم. . وأمرهم أن يسقوهم حتى لا يهلكوا من العطش. . ولمح بين الأسرى زوج ابنته زينب وعمه العباس بن عبد المطلب.

وعلى مشارف المدينة أقبلت وفود من القبائل الموالية لمحمد تهنئه بالنصر فقال لهم رجل من صحبه في زهو الانتصار:

ما الذي تهنئوننا به. . ان لقينا الا عجائزصلعاً كالابل فنحرناها. .

وكره محمد من صاحبه هذا الصلف فقال: «أي ابن أخي أولئك الملأ».

فما يليق أن يستهينوا بأقدار الناس لأنهم هزموا. . !

ولم يكد محمد يصل الى أبواب المدينة حتى وزع الأسرى بين صحبه ونصحهم مرة أخرى أن يحسنوا معاملتهم، حتى يرى فيهم رأيه. وفكر ملياً ثم استشار أصحابه فرأى عمر أن يقتلوا جميعاً، فقد أقبلوا عادين يريدون البطش بالمسلمين، ولكن أبا بكر رأى أن يمنحهم الفرصة فقد يتبعون الدين الجديد فيما بعد.

ومال هو الى رأي أبي بكر.. فليس كالعفو شيء يفتح القلوب المغلقة.

وقضى أن يطلق سراح كل أسير يرسل قومه فديته. والأسير الذي يعلم عشرة من صبيان المسلمين..

فقدم اليه أسير يشكو فقره، فما لديه ما يفتدي به نفسه: لا مال، ولا علم، وله بنات في مكة ـ يقوم عليهن.. فأطلق سراحه وتركه لبناته يعولهن واشترط عليه ألا يعود الى حربه مرة أخرى..!

وأرسلت قريش تفتدي أسراها، وعلم محمد من بعض الذين أقبلوا يفادون الأسرى، أن قريشاً تستعد ليوم الانتقام، وأنها ستحشد للمسلمين جيشاً يسد عليهم عين الشمس..

وكان قد أطلق كثيراً من الأسرى، ولم يعد غير القليل.. فانقطع يفكر وخرج إلى أصحابه يقول انه انما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى.. ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض!..

ولكنه على أية حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين فليقبل الفدية إذاً فيمن بقي!.

كان ما زال مقيماً عند بعض حلفائه خارج المدينة.. يقبل الفدية عن كل أسير يفتديه أهله فيضمها الى الغنائم التي غنموها.. وبلغ ما جمعه من الفدية أربعين ألف درهم.. حسناً.. انه لمبلغ صالح يتجهز به للحرب ان فكرت قريش في عدوان جديد!.

واستبطأ المجاهدون توزيع الغنائم التي غنموها في الحرب.. لقد أمرهم محمد أن يلقوها اليه.. ولكنه لم يوزعها بعد!.

وتحدث بعضهم الى بعض عن الأمر، فذهب كل منهم مذهباً في توزيع هذه الغنائم، حتى لقد اختلفوا عليها خلافاً كبيراً وساءت أخلاقهم في هذا الخلاف.

فأما الذين كانوا يقاتلون العدو فقد رأوا أنهم أحق الناس بهذا المتاع فلولاهم لما أصاب الذين غنموا ما غنموه!.

وقال الذين غنموا انما هم أصحاب الغنائم وحدهم فليس لأحد سواهم حق فيها!.

وقال الذين كانوا يحرسون خيمة محمد انهم كانوا يستطيعون أن يحاربوا كالمحاربين وأن يغنموا كالغانمين ولكنهم خافوا أن يتركوا خيمة محمد فيكر عليه العدو!.

وأوشك القوم أن يقتتلوا في توزيع الغنائم واستحمق بعضهم فكاد أن يرفع السيف في وجه أخيه..

وخرج محمد يصيح في الناس مغضباً: انكم لأولى الناس ببعض، فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عرض الدنيا، فانكم اذا لم تجعلوا بعضكم أحباء بعض وأولياء بعض. ان لم تجعلوا الصفاء دستوركم.. الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير..

ثم أمر أن توزع الغنائم بين الذين خرجوا جميعاً.. على السواء!.

وأذعن الجميع لهذا الحكم.

وخرست أصوات الطمع ولكن بعض النفوس كانت تميل الى أمتعة بالذات فقصدت محمداً تسأله، فلم يرفض محمد لأحد سؤالاً.. ومنح الأرقم سيفاً كان قد غنمه، عندما مالت نفس الأرقم الى هذا السيف.

ودخل محمد الى المدينة فأتى المسجد يخطب في الناس ويعلمهم بأسماء سادات قريش الذين هلكوا.

ثم خرج من المسجد الى بيت ابنته رقية يعودها في مرضها، قبل أن يذهب الى بيته ولكن رجالاً استقبلوه واجمين!.

كانوا عائدين من جنازة رقية بعد أن دفنوها.

وعانقه زوجها عثمان باكياً. ومضى به إلى قبر رقية، فانحنى محمد يبكي على القبر بين صحابه. . ومال عليه أصحابه يواسونه. . وقال له أحدهم «كفى بكاء على القبر. . أتفعل ما تنهانا عنه» وأخذوه. . وعادوا الى بيته. . يخالج زهوه بالانتصار، شعور عميق بالحزن، ويبلل الدمع صوته المظفر. .

ولم يكد يتقدم في الطريق الى بيته بين صحابه حتى اعترضه رجل من سراة يهود بنظرة غريبة. . ومضى اليهودي يهمهم: «ان قريشاً لا علم لها بالحرب أما لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس». .

حتى انتصاره على قريش يشوهه اليهود!!.

ما بالهم يتحرشون به ويستفزونه الى القتال. . ولكنه لا يريد أن يصدع الحلف في المدينة.

سيصبر على اليهود، ولن يرفع السلاح في وجه أحد من سكان مدينته. . فهو اليوم أشد حاجة الى الوحدة من أي وقت مضى، فقريش تستعد للثأر، وقد حرمت البكاء على قتلاها السبعين حتى تثأر لهم. . !

ومضى هو قبل أن يدخل الى بيته يواسي أسر القتلى الأربعة عشر!.

ثم عاد الى بيته. . ومر بسودة أول الأمر، فوجدها تعنف قريشياً أسيراً أوثق الى ركن في الحجرة وتنهره لأنه لم يقاتل حتى الموت وقد آثر الحياة واستأسر!.

ما هذا أيضاً؟!. . امرأته سودة تحرض عليه؟! وزجرها. . فاعتذرت!.

أين هذه من خديجة!؟.

وتركها وانصرف الى عائشة زوجته الصغيرة الحسناء التي افتقدته طويلاً.

ووجد عند عائشة طيب اللقاء، وحسن المواساة عن موت ابنته رقية. .

وما هي أن استراح حتى جاء رسول من مكة يحمل من ابنته زينب فدية زوجها الأسير. .

واستلم محمد الفدية، وفتحها فاذا هي حلية لزوجته الراحلة خديجة كانت قد وهبتها ابنتها زينب ليلة الزواج. .

وأمسك محمد الحلية في يده. . وتأملها طويلاً، وسالت دموعه. ها هو ذا الآن يمسك بيده شيئاً عزيزاً من زوجة راحلة أحبها كما لم يحب أحداً من النساء أو الرجال. . وانه الآن ليوشك أن يضم هذه الحلية الى مال الفدية فتباع!!.

وأرسل الى بعض أصحابه يستأذنهم أن يرد الى ابنته فديتها ويطلقوا لها أسيرها. .
ووافق كل صحبه. .

فأرسل الى زوج زينب ينبئه باطلاق سراحه على شرط أن يطلق زينب، ويرسلها الى المدينة. .

وكان زوج زينب يحبها، ولقد واجه قومه حين أمروه أن يطلق ابنة محمد ليزوجوه خيراً منها فقال لهم انه لا يعدل بها كل أبكار قريش. .
على أنه قبل أن يرسلها الى أبيها. !
وانطلق زوج زينب الى مكة بحلية زوجته.

وحاول أن يرسلها إلى أبيها ولكن قريشاً عارضته وخشيت أن يظن بهم محمد الخوف بعد الهزيمة. . وسألوه أن ينتظر أياماً. . فلم يقبل وأرسلها على ناقته، فوثب بعض رجال قريش على الناقة وأوقعوا المرأة الصغيرة من عليها. وكانت حاملاً فأجهضت. .

وسأل محمد أصحابه أن يهبوه عمه العباس ـ اذا شاءوا ـ فأطلقوا سراحه بلا فدية. والعباس هو الذي كان يحمي محمداً في مكة. . وما زال يرسل اليه خفية بعض المال ويطلعه على تحركات أعدائه في قريش؟.

وعاد العباس الى قريش. . ليرسل الى محمد كل أنباء الاستعدادات؟.

ان بني أمية ليغامرون بكل ثروتهم ليحصلوا على رأس محمد أو حمزة!.

ولقد منعت حكومة مكة البكاء على الأموات حتى تأخذ بثأرها منن محمد وحمزة.

وكل المساهمين في القافلة التي كان يقودها أبو سفيان يتنازلون عن أموالهم لتجهيز غزوة ضد المدينة. . وانهم ليحشدون الآن كل حلفائهم من القبائل الأخرى. . ويحرضون الشعراء!.

وأمر محمد شاعره حسان أن يطلق لسانه وكل ملكاته لتمجيد انتصار المسلمين في بدر، ولتحذير قريش وحلفائها من محاولة عدوان جديد فستجعلهم سيوف المسلمين نهباً لسباع الطير والصحراء!.

ليدوّ هذا الانتصار في كل مكان!.

* * *

ورفض أبو سفيان أن يفدي ولده الأسير وأقسم أن يطلقه بحد السيف. وأقسمت زوجته هند ألا تتعطر وألا تقترب منه حتى يأخذ بثار أبيها عتبة وأخيها الوليد وعمها شيبة، وثارات سادة قريش.

ومضت تحرض النساء أن يهجروا الأزواج حتى يثأروا للقتلى.. وكانت تطوف على العبيد الأحباش تعد الواحد منهم بأن تهبه حريته وأن تهبه ما يشاء. حتى جسدها نفسه لو أنه قتل حمزة وحمل اليها كبده.. لتأكلها بأسنانها!!.

وسمع حمزة بما تصنعه هند بنت عتبة فابتسم مستخفاً.. وسمع حسان بن ثابت بتحريضها على قتل محمد وحمزة، وبدورانها بين نساء قريش وعبيدها الأحباش، فأنشد شعراً يهجوها ويهون من شأنها، ويسخر باغرائها الرجال، وأفحش عليها..

وتجار قريش يرسلون الوفود خفية الى تجار اليهود في المدينة ليساعدوهم على النيل من محمد.. أن يحصلوا على رأسه ان استطاعوا أو على رأس حمزة الذي فعل الأفاعيل بصناديد قريش!.. والا فليفتحوا لهم أبواب المدينة عندما يقبل فرسان قريش غازين!.

ووسط هذا الغليان الجنوني المتوحش من الكيد والرغبة المفترسة في الانتقام عاش محمد أيام ما بعد النصر.. يرتب شؤون الناس ويأسو جراح أسر الشهداء. ويستعد للمعركة القادمة ويعد لها مزيداً من الشهداء..

وهو يذكر باعجاب بلاء علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وبلال وعمار بن ياسر.. وقبل كل هؤلاء حمزة بن عبد المطلب!.

١٦

انطلق عبدالله بن أبي يهمس لبعض المسلمين الذين لم يخرجوا الى بدر، ان محمداً يحرمهم من الغنائم ويوزعها على من يحب، فعثمان بن عفان لم يخرج مثلهم الى الحرب في بدر، ولكن محمداً أعطاه نصيبه من الغنائم ايثاراً له لأنه زوج ابنته رقية!.

وحذر بعض المسلمين عبدالله بن أبي، أن ينشر بينهم البغضاء، فما آثر محمد صهره عثمان بخير، وانما أنجز وعده.. فقد كان عثمان يلح على محمد في الخروج معه الى بدر، ولكن محمداً أمره أن يبقى ليقوم على تمريض رقية، زوجته، ووعده أجر المجاهدين. ومهما يكن من شيء فقد ماتت رقية بنت محمد، ومحمد مجروح القلب فما يليق بأحد أن يؤذيه في عثمان زوج ابنته الراحلة.. وعثمان بعد تاجر واسع الثراء لا حاجة له بأموال الغنائم..

وعاد عبدالله بن أبي يحرض الرجال على المطالبة باقتسام الأموال التي افتدت بها قريش أسرارها.. ولكنهم وعظوه أن يكف، فهم يقرون محمداً على تخصيص جزء كبير من هذه الأموال للدفاع عن المدينة ان فكرت قريش في الثأر.

ولم يسكت عبدالله بن أبي.. فقد رجع محمد ظافراً من بدر، ورجع معه المسلمون سكارى بنشوة النصر.. ولقد مكن هذا الانتصار لمحمد في الأرض فلم يعد لعبدالله بن أبي، أمل بعد، في أن يضع على رأسه تاج المدينة!..

وانه ليوسوس للناس أن محمداً يأمر غيره بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا، ثم

ينفق هو الأموال على طعامه وشرابه، وأثاث بيته. . فقد اتخذ لنفسه أثاثاً كالذي يتخذه كسرى. .

قال هذا ودس الى امرأة من الأنصار فراشاً وثيراً ثميناً حملته الى عائشة، المرأة الصغيرة الحسناء التي تحب المتاع وتهوى الثراء.

وسمع محمد هذا فعاد الى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد تغمرها الفرحة. . وهي تتحسس بجسدها لين الفراش. . فسألها في غضب:

ـ ما هذا يا عائشة؟.

فقالت له:

ـ امرأة من الأنصار دخلت فرأت فراشك فبعثت الي بهذا. .

فأمرها أن ترده. .

رد الفراش الى المرأة التي أهدته. . واستلقى محمد على الحصيرة كما تعود.

وأقبل عمر بن الخطاب ليتبين الصدق فيما يتهامس به بعض الناس في المدينة ان محمداً ينفق أموال الفدية على أثاث جديد فاخر يزين به بيته. .

دخل عمر وأخذ يتأمل كل ما في بيت محمد من متاع وطعام. . ان كل شيء على حاله لم يتغير. . ومحمد على الحصير.

وفاض الدمع من عيني عمر فسأله محمد: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟.

فقال عمر: «وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزائنك لا أرى فيها الا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار» . .

وأخذ محمد يسري عن عمر، ويعلمه أن قيمة الانسان ليس فيما يملكه من متاع، بل فيما يملكه من قدرة على اسعاد الآخرين، فالأعمال الطيبات هي ما يبقى للانسان، والباقيات الصالحات خير أبداً. .

وعلى أية حال فان ما يجب أن يشغل الناس اليوم، انما هو الموقف بعد المعركة. . أما ما يرجف به بعض المنافقين في المدينة، فلا يجب أن يشغل الناس عن مواجهة المستقبل. .

وشكا عمر لمحمد ما يلقاه الأرامل بعد وفاة أزواجهن في بدر. . وأحس محمد أنه هو المسؤول عن كل شيء، وأن عليه أن يأسو كل هذه الجراحات. . سيجري على أسر الشهداء نفس المعاش الذي كان يكسبه عائلوها الشهداء، أما الأرامل الصغيرات، فانه لمسؤول عن تعويضهن بالأزواج، خوف الفتنة. .

وبث عمر لمحمد ألماً يضيق به صدره. . فابنته حفصة، أرملة صغيرة جميلة استشهد زوجها في بدر، ولقد عرضها عمر على عثمان فقال له انه لا يفكر الآن في الزواج، ثم عرضها على أبي بكر فسكت ولم يقل شيئاً. .

وابتسم محمد وسأل عمر ألا يغضب وستتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة.

وخطب حفصة لنفسه. . فقام عمر يجهزها، معجباً فرحاً. . ولقي أبا بكر في بعض الطريق، فأنبأه بخطبة حفصة فقال أبو بكر: «ان الرسول ذكرها أمامي فلم أكن لأفشي سره ولو تركها لتزوجتها».

جهز عمر حفصة وحملها الى بيت محمد. . ومضى يحض صحبه القادرين أن يتزوجوا أرامل الذين استشهدوا عسى أن يعوضوهن عما فقدن.

وقسم محمد لياليه بين زوجاته الثلاث: سودة، وعائشة، وحفصة. . ولكنه مع ذلك كان يجمعهن عند صاحبة النوبة في الصباح، ليعظهن، وفي المساء ليسمر معهن ويقص عليهن ما رآه في رحلاته، وكثيراً من الحكايات والأمثال. .

وكثر تردد عمر على بيت محمد منذ دخلته حفصة فلاحظ أن الناس يدخلون بيت محمد في النهار والليل بلا استئذان ويقتحمون اليه في مخدعه، ويتحدثون الى زوجاته وقد تكون الواحدة منهن في ثياب لا تصلح لاستقبال رجل غريب.

وضاق عمر بهذه الحال، وأوشك أن يأمر ابنته حفصة أن تحتجب. . ولكنه آثر أن يتحدث الى محمد نفسه فقال له. «يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب».

ولكن محمداً كان في شغل عن هذا. . بأمر قريش، ومستقبل المدينة بعد انتصاره

في بدر. . انه ليثق في نسائه ويثق فيمن يدخله بيته، فعلام يغار عمر؟. . فليفكر معه في أمر قريش. فهذا أجدى. .

وقريش لم تذق أبداً مثل تلك الهزيمة التي ذاقتها في بدر. . وصديقه أبو بكر ذو الثقافة الواسعة يؤكد له أن الجزيرة العربية لم تعرف في كل تاريخها مثل هذه النكبة. . حتى المعارك التي دامت سنوات طويلة بين هذه القبيلة أو تلك لم ينكب فيها أي المتحاربين بسبعين قتيلاً وسبعين أسيراً. .

والرسائل السرية ترد من العباس بن عبد المطلب تحمل أنباء استعدادات قريش للقتال وحرص قريش على أن تظفر برأس محمد ورأس حمزة جميعاً، وسعى تجار قريش لمحالفة يهود المدينة ومحالفة القبائل التي تضرب خيامها خارج المدينة.

لقد غيرت قريش طريق تجارتها الى الشام منذ بدر، واتخذت طريقاً طويلاً عبر العراق. . معتمدة على قبائل بني سليم. . ولكنها لن تلبث أن تتحالف مع القبائل المجاورة للمدينة، فتطوقها. وتعود قوافلها بعد الى الطرق المألوفة.

ولقريش حلفاء في قلب المدينة ذاتها. . وهم يهود بني قينقاع. . ويهود بني قينقاع يسيطرون على شمال الحجاز. . فلأغنيائهم هناك ضياع واسعة، يستثمرون فيها الأموال، وكبار التجار منهم يملكون هناك المصارف التي تقرض بالربا، وليس لأحد غيرهم نفوذ في تلك الأسواق. . وهم يتعاملون مع تجار قريش ويتقاسمون الفائدة. . ولكن اندحار قريش في بدر، والانتصار الساحق المدوي الذي حققه المسلمون، كل هذا أصبح يهدد نفوذ بني قينقاع في أسواق شمال الحجاز. . ومن المسلمين ـ بعد ـ تجار كبار يزاحمونهم في المدينة نفسها ومن يدري فقد يزحفون أيضاً إلى أسواق الشمال. .

ان ثمة مصلحة مشتركة بين قريش وبني قينقاع في شمال الحجاز. وهذه المصلحة يهددها منذ اليوم انتصار المسلمين في بدر. . ولكن بني قينقاع لم يجاهروا بالعداء، وما زالت صحيفة المحالفة قائمة بينهم وبين محمد، وهم في النهاية حلفاء لعبدالله بن أبي ولشيعته الأقوياء بين الأنصار. . ولكن عبدالله ما زال يحمل على رأسه لافتة الاسلام: أما ما في القلب فشيء آخر، ويهود بني قينقاع لم يجاهروا بنقض صحيفة المحالفة. . انهم ليشكلون خطراً. . هذا حق. ولكنه مقيم وسط المدينة، من الممكن حصره والتغلب عليه آخر الأمر. .

أما الخطر الداهم حقاً، فهم بنو سليم.. انهم ليوادون قريشاً، وييسرون لها طرق التجارة، ويحالفونها جهرة معتدين على ما لهم من هيبة وسمعة حربية.. وهم يقيمون في جبال بعيدة عن المدينة، يعتصمون فيها ويستقوون على خصومهم ولئن سكت عنهم محمد لتشجع عرب آخرون على الانضمام الى قريش، ولظن كل العرب، أن محمداً يقعد عن بني سليم خوفاً من فرسانهم.

وأرسل محمد الى بني سليم يطلب منهم ألا يظاهروا قريشاً عليه..

ولكن بني سليم استخفوا به..

ومضوا يغالون في محالفة قريش، فحشدوا بعض فرسانهم لحراسة قوافلها. ولم تبخل عليهم قريش فزودتهم بالأموال والسلاح.

وهكذا وجد محمد نفسه مضطراً الى مهاجمة بني سليم، حماية لانتصاره.

وحشد جيشاً من الذين لم يستريحوا بعد من معركة بدر ولكن نشوة الانتصار كانت تؤجج حماسهم.. وقاد هو بنفسه الجيش الى مضارب بني سليم.

ولم يكد محمد يقترب بجيشه من ديار بني سليم، حتى أدركت القبيلة أن ما وقع بقريش في بدر قد يقع لها ونصح شيوخ القبيلة فرسانها أن يتجنبوا القتال.. ولكن محمداً كان يتقدم.. فتركت بنو سليم منازلها ومتاعها وفرت برجالها ونسائها وأطفالها.. ودخل محمد بجيشه ديارهم فلم يجد من يحاربه.. وعاد بغنائم كثيرة دون أن تراق قطرة دم واحدة.

وكان من بين ما غنمه محمد وجيشه خمسمائة من الابل.. وهي ثروة بأسرها. وتحرجت القبائل المحيطة بالمدينة بعد هذا الانتصار الخاطف الغريب الساحق. فقطعت مفاوضاتها مع قريش.. وخشيت أن يقود محمد مثل هذه الحملة عليهم.. وما منهم قبيل له منعة بني سليم..

وعاد محمد الى داره كما تركها.. يقضي الصباح مع زوجاته يعلمهن ويبصرهن بأحكامه في علاقات الرجال والنساء ويطالبهن بأن يعلمن النساء المسلمات مما علمهن، ثم يسمر معهن في الليل، ويروي حكايات شائقة عن رحلاته وغزواته، وهو يخصف نعله بنفسه، أحياناً أو يرقع ثوباً له.

ولكنه يجد بيته الآن على غير ما ألفه من الصفاء.. فهذا هو ربيبه زيد بن حارثة يشكو اليه من زينب بنت جحش.. وزينب فتاة صغيرة بالغة الحسن، شديدة الاعتزاز بنفسها فهي بنت عمة محمد ولقد زوجها محمد بزيد بن حارثة، وهي كارهة.. فقد كان زيد عبداً لخديجة فأعتقته وتبناه محمد، فكيف ترضاه زينب بنت أمية بنت عبد المطلب؟.. ولقد قالت زينب لمحمد: «لا أرضاه لنفسي وأنا بنت عمتك».. ولكن محمداً كره استعلاءها بقرابتها اليه، وقهرها على هذا الزواج.. ولم تطب لها الحياة في أحضان زيد لأنها كانت ترى نفسها دائماً سيدة له.. وقد كانت من أجمل فتيات بني هاشم، صغيرة السن، فمن حقها أن تتزوج فتى كفؤاً لها من فتيان المهاجرين أو الأنصار. وضاق زيد باستعلاء زوجته، فشكاها المرة بعد المرة، ومحمد يقول له «أمسك عليك زوجك».. ولكن زينب، وزوجها لم يطيقا الاستمرار بعد.. وأصبح بيت محمد الذي يعيش فيه الزوجان كثير الصخب من كثرة مشاجراتهما، ولقد حاول محمد منذ رجع من غزوة بني سليم أن يوفق بينهما، ولكن بلا جدوى، فأقر الطلاق، وخطب هو زينب لنفسه.

وانطلق عبدالله بن أبي يستنكر هذا، ويهمس للناس أن محمداً طمع في جمال زينب، وما كان له أن يتزوج امرأة متبنيه.. فالمتبنى كالابن تماماً وشعر بعض أصدقاء محمد بحرج كبير.

ولكن محمداً خرج يقول لهم أن المتبني ليس كالابن تماماً.. فالولد شيء آخر.. وأنه انما تزوج زينب لكي يدركوا هذا، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم، فلا حاجة له بجمال زينب، ولديه عائشة، وحفصة!.

وتقام ليلة للزفاف يدعو اليها محمد بعض صحبه، ويقبل عليه عدد كبير من المهاجرين والأنصار.. ويدعو زوجاته الثلاث: سودة، وعائشة، وحفصة، ثم الزوجة الجديدة زينب الى العشاء الذي أرسله سعد بن عبادة، ويجلس معهن على العشاء مستضيفاً من يكون عنده من صحبه وتمتد الأيدي كلها الى نفس الأواني.. وتصطدم يد عمر بن الخطاب بيد عائشة في قصعة الطعام فيمسك عمر بيد عائشة من غير قصد فتتحرج عائشة ويتضرج وجهها من الخجل وتغضب.. ويغمر عمر خجل يخالجه الغضب، فيعتذر الى عائشة ويقول في ضيق: «لو أطاع فيكن ما رأتكن عين».

ويلح عمر مرة أخرى على محمد أن يحجب نساءه. . وفيهن الآن ثلاث حسان. . صغيرات. . عائشة، وحفصة، وزينب. .

ويخرج محمد على الناس بعد حين يأمرهم ألا يدخلوا البيوت حتى يستأذنوا من أهلها ويأمر النساء ألا يبدين زينتهن للمحارم من الرجال الا ما ظهر منها. . ثم يأمر نساءه ـ بصفة خاصة ـ أن يحتجبن، لأنهن لسن كأحد من النساء.

لماذا. . لسن كأحد من النساء. لماذا يفرض الحجاب على نسائه؟. .

على أنه صمم ألا يدخل في مهاترات شخصية. . ومضى يأمر نساءه بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا، ويحضهن على أن ينبذن أحلام الغنى، وأخذ يضع لكل المؤمنات والمؤمنين، قواعد للسلوك فيما بينهم. . وأنذر من يخالف، بعذاب عظيم. .

على أن ما يشغله الآن، لهو أمر يهود بني قينقاع، ومراسلاتهم السرية مع قريش، وتربصهم به، ليثبوا عليه وعلى من اتبعه. .

وها هم أولاء يصنعون أكثر من هذا. . انهم ليدعونَ خير محاربي بدر ليسمروا ويشربوا في بيوت أعدوها للمتاع وزودوها باليهوديات الفاتنات وبالخمر القوية الفاخرة التي اشتهر بنو قينقاع بصناعتها. . ولقد مر علي بن أبي طالب بأحد المشارب ومعه ناقتان غنمهما من بدر. . وذهب لبعض شأنه وعاد فاذا به يجد الناقتين قد نحرتا. وسأل من صنع هذا فقيل له انه عمه حمزة وهو في ذلك البيت يشرب ويطرب. . وذهب يشكوه الى محمد فانطلق محمد مع علي حتى جاء البيت الذي به حمزة فاستأذن فأذنوا له. . فاذا هم جميعاً سكارى، واذا حمزة في نشوة الخمر يقول لمحمد: هل أنتم الا عبيد أحباش!!.

وانسحب محمد مشفقاً. .

وان هي الا أيام حتى كان يطوف بالمدينة مناد يحمل الأمر بالنهي عن الخمر. انها لحرام. .

سيعاقب من يشربها مهما يكن شأنه، وان كان من الذين شهدوا بدراً!.

واغتاظ بنو قينقاع واعتبروا الأمر موجهاً ضدهم. . أكبر منتجي الخمر في المدينة. لا تعايش مع محمد بعد!! يجب أن يجتثوه من هذه الأرض. .

ومرة أخرى أرسلوا الى قريش يستحثونها على المبادرة بغزو المدينة، وستجد قريش كل بني قينقاع يفتحون لها الأبواب المغلقة!.

الموقف حرج في الحق فهو لا يستطيع أن يواجههم بالعداء، وهم ما زالوا ـ في الظاهر ـ يراعون شروط صحيفة التحالف فيما بينهم، فلو أنه صارحهم بما بلغه عن مراسلاتهم السرية مع قريش لكشف عمه العباس بن عبد المطلب، الذي ما زال يقيم في مكة، شريفاً مبجلاً غنياً، واسع التجارة، متشابك المصالح..

وقرر محمد أن يذهب اليهم فيدعوهم الى اتباعه ويحذرهم أن يسلكوا معه كما سلكت قريش.. ولكنهم ردوه قائلين «يا محمد انك ترى أننا لسنا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس».

وعلى الرغم من السخرية والتهديد الواضح فقد صبر محمد عليهم.. ورأى بعض صحبه أن يقاطع اليهود فلا يحل لمسلم أن يتعامل معهم.. ولكنه أبى.

انه ليستعد للقاء قريش.. ولكنه لن يخرج من المدينة حتى يؤمن ظهره.

وعاد يتلطف الى بني قينقاع ويطالبهم بأن يصفوا له الود.. فما من شيء يمنع من هذا الصفاء.. ولكن قادة بني قينقاع كانوا يضيقون بمنافسة تجار المهاجرين، ويضيقون بالقواعد الجديدة التي تحكم المعاملات..

وهكذا ظلوا يكيدون، وينتظرون أن تقبل قريش لتسحق محمداً وصحبه وتعاليمه.. وسيفتحون هم لها أبواب المدينة..

وخلال تلك الأيام المتوترة من الشك المتبادل، والكيد، أقبلت على سوق بني قينقاع بدوية مسلمة ببضاعة لها.. وقد ضربت خمارها فوق وجهها، كما أمرتها تعاليم الاسلام.. وباعت البدوية بضاعتها، ثم اتجهت الى أحد الصاغة اليهود لتشتري حلية.. وتعرض لها بعض فتيان اليهود، وقد استهواهم جمال بدنها، واشراق وجهها تحت الخمار، فمضوا يتغامزون عليها ويسخرون بهذا الخمار الذي تخفي تحته جمال وجهها، ويهزأون من الاسلام الذي تقضي تعاليمه بحجب مثل هذا الجمال عن العيون!.

واغتاظت المرأة من هذا كله ـ وبصفة خاصة ـ من سخريتهم بالاسلام. . وحاول بعض الرجال المسلمين في السوق أن يكفوا شباب اليهود عن المرأة وعن الهزء بالاسلام. ولكن الشبان اليهود لم يحفلوا، وانقضوا على المرأة يحاولون نزع حجابها بالقوة، فصرفهم عنها الرجال المسلمون. . وفي هذه الاثناء كان الصائغ اليهودي قد عقد طرف ثوب المرأة الى ظهرها وهي لا تشعر، وأثبت طرفا آخر من الثوب إلى مقعدها بمسمار صغير. .

وبعد أن اشترت المرأة حليتها، وقفت لتنصرف. فتعرى ظهرها ثم تعثرت فوقعت على الأرض وقد انكشف ثوبها عن جسدها، وتمزق بعضه، فتعرت. . !. . وفتيان اليهود يتدافعون عليها ضاحكين، وهي تصرخ في ذعر. .

واذ ذاك انقض الرجال المسلمون يدافعون عنها. . وانقض أحدهم على الصائغ، فتقاتلا، وقتل الرجل المسلم ذلك الصائغ اليهودي، فتجمع اليهود على الرجل المسلم، فقتلوه وشاع الخبر في المدينة. . وانفجرت الأزمة واضحة صريحة!.

واعتصم اليهود في حصونهم بحي الصاغة، وأعلنوا نقض الصحيفة، وشنوا الحرب سافرة وانتظروا عون بقية يهود بني قريظة وبني النضير. .

وأمر محمد رجاله من الأنصار أن يحاصروا بني قينقاع في حصونهم. . ولكن عبدالله بن أبي، ذهب الى رجاله من الخزرج، يذكرهم بحلفهم القديم مع بني قينقاع قبل أن يأتي محمد. فصده بعض الخزرج، وشكوه الى محمد، وسألوا محمداً أن يأذن لهم فيقطعوا رأسه، لأنه بموقفه هذا انما يفسد في الأرض ويوشك أن يثير الفتنة بين المسلمين!. . ولكن محمداً رفض، وآثر ألا يهدر دماً في المدينة. . وجاء رجال من الأوس يطالبون بقتل عبدالله بن أبي. وخشي محمد أن تثور الفتنة من جديد بين الأوس والخزرج، فأمر الأنصار جميعاً أن يتركوا عبدالله بن أبي، وسيتولى هو بنفسه أمر الرجل!.

واستخذى عبدالله بن أبي.

وحين أدرك أنه لن يبلغ ما يريد من اثارة الخلاف، وأنه لن يستطيع أن يساعد بني قينقاع ـ صبر لبعض الوقت. . غير أن المسلمين شددوا الحصار على حي الصاغة، وبنو قينقاع خلف حصونهم لا ينجدهم أحد.

وأرسل بنو قريظة وبنو النضير الى محمد يؤكدون له أنهم ما زالوا على تمسكهم بصحيفة المحالفة، وأنه لا شأن لهم ببني قينقاع، أما بنو قينقاع، فعلى رؤوسهم هم وحدهم يقع وزر ما اقترفوه!.

وبعد خمسة عشر يوماً من الحصار المضني استسلم يهود بني قينقاع بلا شروط.. وتركوا أمرهم الى محمد يقضي فيهم كما يشاء!!.

وتذكر عبدالله بن أبي أن صحيفة المحالفة بينهم وبين محمد، تقضي بقتل كل خارج عليها!.

وانتظر عبدالله أن يقضي محمد بالموت على كل يهود بني قينقاع.

ولكن محمداً لم يصدر حكماً..

وأشار عليه الكثيرون أن يقتلهم تنفيذاً لأحكام الصحيفة.. ولكنه رفض!.

وتقدم اليه عبدالله بن أبي قائلاً: «يا محمد أحسن في موالي».. فلم يجبه محمد. فعاد يلح عليه. فقال له محمد دعني..

ولكن عبدالله بن أبي أدخل يده في جيب محمد قائلاً: «والله لا أدعك حتى تحسن الي في موالي: انهم أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة! والله اني لا آمن وأخشى الدوائر». فقال محمد «هم لك».

وأمر محمد بأن يخرجوا جميعاً من أرض المدينة.. فهي ليست أرضهم، وانما كانوا قد جاءوها غازين من قبل فأقاموا بها وسادوا تجارتها، وأنشأوا فيها حي الصاغة..

وحرص محمد على ألا يمسوا بسوء أثناء الخروج، فعين أحد زعماء الأنصار قائداً على نفر من رجاله يراقبون خروج اليهود.

وساروا في التيه أياماً حتى بلغوا جنوب الأردن، فاستوطنوها، ولم يقتل منهم أحد. وغنم المسلمون منازلهم وأسلحتهم وكثيراً مما تركوه من متاع.

ولم يكد المسلمون يستريحون حتى جاءتهم الأنباء أن بعض حلفاء قريش يريدون غزو المدينة، فخرج محمد بنفسه على رأس قوة ليواجه الجيوش المتقدمة من ثعلبة وغطفان، وأدركهم المسلمون وطاردوهم، حتى قمم بعض الجبال.. وانهزمت جيوش ثعلبة وغطفان.

وعرفت قريش هذا.. فضاعفت من عزمها على ضرب محمد، لا بد من ضربة سريعة حاسمة، تعيد الثقة بقريش الى قلوب العرب جميعاً. ان كل الأسرى الذين أعتقوا ليستعدون الآن لغزو المدينة.. ولقد وجدت هند بنت عتبة الآن من يأتي لها برأس حمزة.. وجدت عبداً اسمه وحشي يجيد القذف بالحربة على نحو لا عهد للعرب به.. ان هذا العبد عبد رجل مات أخوه في بدر بطعنة من حمزة.. وهند تعد العبد بكل شيء، وصاحبه يعده بأن يعتقه ان هو قتل حمزة. حمزة دائماً!!.

وتحشد قريش جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل.. قوامه الأحابيش والعبيد الذين يكونون شرطة مكة وجيشها، وعلى رأسه فرسان مكة وشجعانها، والحلفاء من قبائل تهامة وكنانة..

كلهم يخرجون على مئات الخيول والجمال المدربة على القتال، في الدروع والزرد.. ومن ورائهم نساء مكة وجواريها الحسان، في أجمل زينة تقودهن هند بنت عتبة.. بين حاملات الدفوف، متعطرات متأنقات. يشحذن همم الرجال ويرددن الأغاني وراء هند ويقسمن ألا يسمحن لرجالهن بالاقتراب منهن حتى يهزموا محمداً ويعودوا برأس حمزة!.

ما من رجل في هذا الجيش الا يحمل في قلبه حباً للانتقام، أو رغبة في استعراض قوته أمام زهرات نساء قريش وأفتن جواريها.

ان رنين الطبول وقرع الدفوف، وصيحات النساء المتعطرات. كل ذلك يدفع على أمواجه الملتهبة جيشاً لم تعرف الجزيرة العربية مثله من قبل، تحت قيادة أبي سفيان.. بجناحين من الفرسان يتقدمهما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل..

ويندفع الموكب الصاخب الذي يعوي في طلب الدم وتختلط فيه صيحات النساء، بهزيم الخيول وهتافات الرجال.

انهم يمضون جميعاً الى مشارف المدينة.. الى جبل أحد!..

وتلقى محمد رسالة من عمه العباس يصف فيها كل شيء بالتفصيل.. وإذاً فموعدنا أحد.. أثبت أحد!!..

١٧

ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها وأحابيشها، يندفعون الآن كاعصار مخيف، يختلط في أعماقهم حب الانتقام بأحلام السيطرة.

انهم ليزحفون ويزحفون.

ولقد أوشكوا أن يقرعوا أبواب المدينة على من فيها من نساء وأطفال وشيوخ، وعلى العقيدة التي تلهب حماس الرجال، وتنشىء أنساناً جديداً، وانهم ليستريحون في وادي أحد.. على مقربة من المدينة!.

واجتمع الناس في المسجد يتشاورون.

وخرج اليهم محمد، يحدثهم عن قوة الجيش المهاجم ويسألهم الرأي والنصيحة.

وقبل أن يتحدث واحد من الناس، قال لهم محمد: «ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فان أقاموا، أقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وانتظر محمد أن يسمع جواباً من الذين يشاورهم في الأمر..

أما الذين عادوا من بدر ظافرين فان انتصارهم القديم الخاطف في بدر ما زال يدير منهم الرؤوس حتى اليوم، ويملأ القلوب بالكبرياء.

وتهامس شبابهم وهم يتحسسون مضارب السيوف، وصدى بعيد من الأبواق العزافة والخيل الصاهلة يؤجج منهم حب المغامرة، والقلوب تدق في شدة على رجع قرعات الدفوف.. وانهم مع ذلك ليحلمون بالغنائم، وبالسبايا.. لقد جاءت قريش بأجمل نسائها وجواريها، وبأفخر ما تملك من دروع، وسيوف وثياب ومتاع وخيل وابل، وبخزائنها أيضاً.. سيحصلون على هذا كله حلالاً.

وبعد، فما بال محمد لا يتيح فرصة مشابهة للذين فاتتهم مغانم بدر وشرف المعركة في بدر. .

وقال قائلهم: «اخرج بنا الى أعدائنا يا رسول الله، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا. .»

أما شيوخ الأنصار، فلم يرق لهم الاقتراح. . انهم أدرى بمدينتهم وأحق بأن تتبع شورتهم، ولئن كان الشباب من المهاجرين، وبعض شباب الأنصار الذين لم يكابدوا الحرب من قبل، لئن كان هؤلاء جميعاً قد غرهم أن اندحر في بدر ألف من القريشيين أمام ثلاثمائة من المسلمين، فان على هؤلاء الشباب أن يعلموا أن قريشاً لم تجيء وحدها، بل حشدت الحلفاء والأحابيش، وهي تعد للمعركة منذ عام.

فليعلم هؤلاء الشباب أن الشجاعة في الحرب، ليست الاندفاع الى أظفار عدو متفوق. . وانما هي خطة تكفل الانتصار. . !

وقال عبدالله بن أبي باسم هذا الفريق من الشيوخ: «يا رسول الله. . أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم، فوالله ما خرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا، ولا دخل علينا الا أصبنا منه. . فدعهم، فان أقاموا أقاموا، بشر محبس، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وان رجعوا، رجعوا خائبين». .

هذا هو ما يريد محمد أن يقنع به الناس. . ولكن، لماذا يؤيده عبدالله بن أبي، وهو لا يضمر لمحمد الا الشر. .

وأبدى بعض المسلمين خوفهم من أن يمكثوا في المدينة، ويجروا جنود قريش الى أبوابها فاذا احتدم القتال، انفجرت الخيانة. . وفي المدينة من يضمر العداء ويتأهب للكيد.

وطالت المناقشات حتى أذن بلال لصلاة الجمعة. وبعد أن فرغ الناس من الصلاة، عادوا يتشاورون في الأمر.

ولم يستطع محمد أن يقنع الآخرين بالبقاء في المدينة: فالخوف من أن تحدث الخيانة فجأة، ثم الزهو بالانتصار القديم، والاشفاق من أن يظن أحد بهم الجبن والطمع

في غنائم جديدة من قريش. . كل هذا جعلهم يتمسكون بالخروج لملاقاة جنود قريش في أحد. .

وأخذ محمد الأصوات، فإذا غالبية القادرين على حمل السلاح ترفض رأيه وتقرر الخروج إلى الحرب في أحد. .

وأذعن محمد لرأي الغالبية، ودخل بيته ليرتدي ملابس الحرب.

وحين غادرهم محمد تعاتبوا فيما بينهم. . فلقد أغلظ بعضهم لمحمد أثناء المناقشة، وقهروه على أن يتبع رأيهم على كره منه، وعاد محمد بعد حين وقد ارتدى ملابسه الحربية، فقال له بعضهم: «استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فان شئت فاقعد صلى الله عليك».

ولكنه قد تهيأ للقتال وانتهى الأمر، وما كان له أن يتراجع بعد أن استعد.

وعاهد الأقلية التي كانت تؤيده، أن تنفذ قرار الغالبية، وما دام القرار قد صدر فيجب أن يحترمه الجميع وعليهم أن ينفذوه بنفس حماس المؤيدين. وها هو ذا بينهم في طليعة الذين ينفذون القرار بالخروج إلى أحد.

وأمر محمد كل المسلمين أن يستعدوا. . فسيخرجون من يومهم هذا الى أحد ليبدأوا القتال من الغد.

وانصرفوا يتسلحون بسيوفهم ودروعهم التي غنموها من بدر، ومن بني قينقاع. .

وأرسل محمد الى الحلفاء من يهود بني قريظة وبني النضير يطالبهم بأن يخرجوا معه للدفاع عن المدينة، فصحيفة التحالف التي كتبت بينهم تقضي عليهم الدفاع عن المدينة. . ولكن بعضهم تعلل بأن الصيغة لا تلزمهم بالخروج من المدينة!.

وقال آخرون من يهود بني قريظة وبني النضير: «ان الصحيفة تلزمنا بالدفاع عن المدينة على أي نحو، بلا دخول في تفاصيل خطط الدفاع، ولكن محمداً سيقاتل من الغد وغداً هو السبت، ونحن لا نعمل في السبت ولا نشهر فيه سلاحاً.

وغضب أحد رجالهم فوقف عليهم لائماً وأعلن أنه سينضم الى محمد، فان قتل في المعركة فلتسلم أمواله الى محمد يصنع فيها ما يشاء. . وامتشق حسامه ودرعه وهو ينظر الى قومه في ازدراء قائلاً: «لا سبت لكم».

وجمع محمد نحو ألف رجل من المهاجرين والأنصار. . وبعض الجياد والابـل وخرج نسوة من المدينة وراء الجيش، بالطعام والماء، لتزويد المقاتلين. .

وقسم محمد جيشه الى ثلاثة أقسام وجعل على أحد الأقسام الثلاثة عبـدالله بن أبي. .

حتى اذا كانوا في منتصف الطريق بين المدينة وأحد، وقف عبدالله بن أبي يتحدث مع هذا الثلث من جيش محمد. . كانوا نحو ثلاثمائة رجل معظمهم من الخزرج، وقد ظلوا طوال الطريق يتهامسون فيما بينهم متسائلين «لماذا لا يفرض محمد رأيه، ولماذا يذعن لرأي الشباب المتحمسين».

وقال عبدالله بن أبي «أطاعهم، وعصاني». .

وكان عبدالله بن أبي قوي الحجة، له قدرة باهرة على الاقناع.

ومضى يحدثهم عن المصير المجهول الذي يدفعهم اليه محمد في مغامرة سخيفة رسمها خيال شبان حالمين بلا خبرة. .

ثم صاح برجاله «والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس».

ولوى زمام فرسه راجعاً الى المدينة، ومن ورائه ثلاثمائة رجل من خيرة المقاتلين! ونـاداهم بعض صحابهم من بعيـد «لا تخذلـونا» ولكن عبـدالله بن أبي، تصـدى لهم بابتسامته الماكرة المطمئنة: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم».

على أن محمـداً تقدم بمـا بقي من جيشه وهم سبعمـائة، وظـل يحضهـم على الصبر. . حتى اذا بلغوا وادي أحد، وجدوا جنود قريش يملأون معظم الوادي، ومن ورائهم الصحراء العريضة، والطريق الى مكة، آمناً؟.

انهم لثـلاثة آلاف، بينهم العبيـد الأحباش بـالحراب المسنـونة. وسـادة قريش وفرسانها بعدتهم وخيلهم. .

وما أشد حاجة المسلمين الى الخيل. . ولكن عبدالله بن أبي قد انسحب بمعظم ما يملكه المسلمون من خيل!!.

مهما يكن من شيء. . فلا بد من مواجهة هذا الجمع المتفوق بخطة تقهره. .

وها هم أولاء يتخايلون بأعراف الجياد، وهند بنت عتبة بينهم تشق الصفوف في قمة زينتها، ومن حولها نساء الطبقة العليا من قريش وأجمل الجواري، متعطرات متأنقات ينشدن للرجال، ويعبثن ببعض عظام هيكل بشري. .

لمن هذه العظام؟. . كيف أمسكت هذه الأنامل الرقيقة بهياكل الموتى؟ ولكنها عظام أمك يا محمد. . نبشت عليها الأنامل الرقيقة، عندما مر جيش قريش في طريقه الى أحد، على القبر الذي استلقت فيه آمنة منذ خمسين عاماً. .

يبدو لكم هذا كله وحشياً ورهيباً ومزرياً!.

على أن الوقت لم يعد صالحاً للتفكير بعد في شيء آخر غير مواجهة جنود قريش.

وكانت قريش قد قسمت جيشها الى ثلاثة أقسام: القلب ويقوده أبو سفيان والجناح الأيمن الذي يضم صفوة الفرسان تحت قيادة خالد بن الوليد، والجناح الأيسر من فرسان يقودهم عكرمة بن أبي جهل. .

وتحسس محمد الأرض من حوله. . فرأى أن يعسكر في أقصى الوادي من ناحية جبل أحد. .

وأمر الرماة وعددهم خمسون رجلاً أن يصعدوا الى أعلى الجبل وليجعلوا همهم رمي الفرسان بالنبال ومنعهم من التقدم للاشتراك في المعركة. .

ان الخيل تخاف من النبال، ولن يستطيع فرسان قريش أن يخوضوا المعركة، ما سقطت عليهم النبال من أعلى الجبل. . وهكذا يخلص جيش محمد الى القلب، وفيه سادة مكة وشجعانها وعبيدها الأحباش. . فيقضي على هذا القلب الذي يشكل معظم القوة الضاربة في الجيش بعد أن يحرمه من الاستعانة بفرسان الجناحين. .

وأمر محمد قائد الرماة بالنبال، أن يحذر بصفة خاصة مكر خالد بن الوليد فهو قائد حاذق شديد الدهاء.

وشدد ألا يبرح الرماة أماكنهم مهما يكن من أمر. فليظلوا في أماكنهم حتى يتلقوا أمراً من محمد نفسه أو ممن سيخلفه ان هو استشهد في المعركة. .

وبعد أن شرح محمد لقائد الرماة خطر دوره في المعركة عاد يكرر: «ادفع الخيل عنا بالنبال واثبت مكانك حتى لا يأتونا من خلفنا». .

وجمع محمد بعض شجعان المسلمين من حوله، وأعطى سيفه لرجل من الأنصار اسمه أبو دجانة وطلب منه أن يستوفي لهذا السيف حقه، فأمسك الرجل بالسيف، في ايمان عميق بأنه لن يقهر وأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقال الناس: أخرج أبو دجانة عصابة الموت وجعل محمد راية المسلمين لمصعب بن عمير، واصطف المسلمون يتقدمهم حمزة والى جواره أبو دجانة، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح.. ثم أشار محمد للرماة أن يبدأوا، فانهمرت النبال على جناحي قريش.. وكان عكرمة يقود رجاله على خيولهم ويزحفون.. ولكن الخيل اضطربت وهي تواجه سيل النبال المنصبة من أعلى الجبل ولم يستطع فرسانها أن يقهروها على التقدم.. واصطدم فرسان قريش.. الواحد بأخيه..، فأمر محمد جيشه أن ينقض.. وابتعد خالد بن الوليد بفرسانه عن مرمى النبال.. بينما انقض قسم من جيش محمد على جناح عكرمة فأوقع الفوضى في الصفوف واضطر عكرمة الى التقهقر، وذكريات بدر تنبثق أمامه فجأة بصور حمزة معلماً بريشته، وأبطال قريش صرعى على الرمال!!..

وتقدم حمزة يضرب بسيفه كل ما يلقاه من الهامات وهو يصيح بصوت يبعث الرعب: «أمت.. أمت».. والى جواره أبو دجانة يضرب بسيف محمد، وقد ألهبه الايمان بأن هذا السيف الذي يحمله يستطيع أن يصرع جنود قريش جميعاً.

واندفعت جموع المسلمين الى القلب من جيش قريش، وسقط حامل لواء قريش، فحمله رجل آخر.. وسقط الثاني فتقدم ثالث.. وسقط لواء قريش، فحمله رجل آخر.. وسقط الثاني فتقدم ثالث.. وسقط هو أيضاً.. فتقدمت امرأة من قريش تحمله.. والمسلمون يتقدمون مجتاحين.. والجناح الأيسر الذي يقوده عكرمة بن أبي جهل يتموج في اضطراب وذعر خلال تقهقره والخيل تقفز وتلقي بمن عليها.

والمسلمون يتقدمون يلهبهم النصر المفاجيء السريع والايمان الخارق بأن من مات في هذا الجهاد، كتبت له حياة أخرى يعيشها في الجنة خالداً مخلداً فيها.

وهند بنت عتبة وسط أصحابها ترى فرسان قريش يفرون مذهولين من المد الزاحف أمامهم فتصرخ فيهم:

ويها بني عبد الدار!.

ويها حماة الأدبار..

ضرباً بكل بتار..

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وتمضي هند فتلبس الحديد والزرد وقناع الحرب وتشهر السيف تطعن به الصدور الحاسرة، ويشعر أبو دجانة أن هناك في المعركة فارساً رشيق الحركة يخمش الناس خمشاً شديداً فيقتحم عليه ويصمد له، ويرفع أبو دجانة سيفه ليهوي به على مفرق الفارس الرشيق فاذا بالفارس يولول ويركع متضرعاً الى أبي دجانة أن يرحمه.. واذا بهذا الفارس هو هند بنت عتبة.. ويطلقها أبو دجانة قائلاً: اني لأكرم سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.. وتنجو هند، وتخلع لباس الحرب ولكنها تنطلق تجمع النساء، وتجري وراء رجال قريش الفارين تعيرهم بالجبن.. والمسلمون يتدافعون وسط رجال قريش. وحمزة يصرع الواحد بعد الآخر.. وهند تبحث في جنون عن العبد الحبشي الذي كان يختبىء بحربته وراء شجرة في الوادي.. وتمسكه من يده وتجره الى مكان حمزة، وهي تبذل للعبد مزيداً من الاغراء والوعود.. ولكن المسلمين ما زالوا يتقدمون. حتى لقد أحاطوا بهند وصاحباتها وجواريها.. وأسروهن. وجيوش قريش تتقهقر: أبو سفيان ينسحب بجنود القلب. وعكرمة يجري بفرسان الميسرة.. أما خالد فما زال بعيداً بفرسان الميمنة يخشى أن يشتبك في القتال.. والعبد وحشي، ما زال يختبىء وراء الشجرة في انتظار فرصة تتاح له فيهرب برأسه على الرغم من وعود هند واغرائها.

ويرى الرماة من أعلى الجبل، اندحار جنود قريش تاركين المتاع والدروع والسيوف والنساء.. ان المعركة قد انتهت في سرعة خاطفة، والمقاتلون المسلمون يجمعون الغنائم والأسرى والسبايا الآن.. ويقترح واحد من الرماة على الآخرين أن يسرعوا لالتقاط الغنائم الفاخرة، والسبايا من نساء قريش الجميلات.. ولكن قائدهم يذكرهم بما قاله محمد.. أن يثبتوا في مكانهم مهما يحدث، وألا يتركوا الموقع حتى يتلقوا منه هو نفسه الأوامر..

ويقفون متململين ومن تحتهم يعج الوادي بالغنائم: الخيول الفارهة، والدروع، والـزرد، والابل المحملة، والنسـاء الجميـلات، وأكـداس الـطعـام الثمين، والمتـاع الباهر. . الذهب والفضة وكل ما يملأ حياة سادة قريش بالأبهة.

ولكن أوامر محمد لم تصدر بعد. . لقـد نسيهم محمد. . ولن يكـون لهم من الغنائم شيء!. وحتى اذا وزعها محمد فيما بينهم جميعاً على سواء، فسيفوز غيرهم بالعبيد والجواري والسبايا!.

ولم يستطيعوا الصبر أكثر من هذا، فتركـوا أماكنهم دفعـة واحدة وانحـدروا الى السهل يجمعون الغنائم، ويأسرون ما طاب لهم. .

وخالد بن الوليد يقف بعيداً على فرسان الميمنة. . يتأمل جيوش قريش المهزومة، ويفكر في طريقة للانقضاض. .

واذ رأى رماة المسلمين قد نزلوا عن الجبل وانشغلوا بجمع الأسلاب، قاد فرسانه مسرعاً واستدار، واعتلى الجبل على الفور، وفاجأ المسلمين من ظهورهم وهم عاكفون على التقاط الغنائم. . وهو يصيح في جيوش قريش المتقهقرة أن تعود.

وعادت جيوش قـريش تقتحم المعركـة من جديـد: القلب بقيادة أبي سفيـان، والميسرة بقيادة عكرمة، والميمنة بقيادة خالد تـطعنهم في الظهـور. . وهكذا فـوجىء المسلمون بأنفسهم محاصرين، تطوقهم جيوش قريش من كل سبيل. .

وأخذت الخيول تدهس جثث الرجال. .

وبرز حمزة من جديد الى جواره أبو دجانة وعلي وعمر وسعد والزبير، يقـاتلون جميعاً في استبسال لتحطيم الحصار وانطلق حمزة يصرع الواحد بعد الآخر من فرسان قريش، حتى اقترب من وحشي. . واختبأ وحشي وراء شجرة في الوادي وحمزة ينقض على فارس من قريش يعمل سيفه في صفوف المسلمين. . صرخ حمزة فيه: هلم الي يا ابن مقطمة البظور، وبارزه حتى صرعه وعكف يجهز عليه، وهز وحشي حربته وقذف بها حمزة من بعيد، ودخلت الحربة من بطن حمزة لتخرج من ظهره. . وحاول حمزة أن يرفع السيف فلم يستطع. وتقدم منه وحشي فاستل الحربة وأخذها ليغسلها بهدوء. .

سقط حمزة. . فانطلقت هند اليه. . وأخرجت قلبه وكبده. . وأخذت تعصر كبد

حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعق الدم متشفية وهي ترقص على جثته . .

وبدأ المحاربون المسلمون يسقطون بالعشرات . .

وتقدم أبو سفيان الى جثة حمزة، فركلها . . وضرب شدقه بسن حربته . . وحين اخترقت الحربة شدق حمزة، ضحك أبو سفيان، ومشى يسحق بحذائه، كل ما هو نبيل وشجاع في الرجل الذي كان يملأ قلوبهم بالرعب منذ لحظات، ولم يعد الآن غير جثمان ملقى، ودماء تختلط برمال الأرض . .

لقد مات حمزة . . مات حمزة فأين محمد!! .

وتردد الوادي بهتاف أبي سفيان «مات حمزة» . . وظلت هند تخضب يدها بدمه وترفعها مهللة . . مات حمزة . .

واضطربت جموع المسلمين . . وتقدم مصعب بن عمير بالراية، فانقض عليه رجل من قريش . . فقطع يديه ثم قتله . . وكان مصعب كثير الشبه بمحمد . . وخيل للرجل القريشي أنه قتل محمداً . . فصاح : . . قتلت محمداً . . قتلت محمداً . .

وسيطر الرعب على معسكر المسلمين . . لماذا يبقون إذاً بعد أن قتل محمد .

وبدأوا يفرون . . وأمر محمد أن تسلم الراية الى علي بن أبي طالب .

وتقدم علي بالراية يخوض الصفوف الى جواره أبو دجانة، بينما اندفع عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص وأبو دجانة وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام يبحثون عن محمد في الزحام الجنوني المختلط، فوجدوه يقعد منهكاً وقد شجت رأسه، ودمه ينزف من جسده، وخده مشقوق، انغرست فيه حلقتان من الزرد . . ومال أبو عبيدة بن الجراح يشد بأسنانه الحلقتين، فخلعهما، وانخلعت بعض أسنانه . . وسعد بن أبي وقاص يرمي بالسهام وجموع أخرى من قريش تتدافع نحو محمد تريد أن تقتله وهو يقول لسعد «ارم . . ارم . . بأبي أنت وأمي» . .

وأذن الزبير في الناس أن محمداً حي لم يمت . .

وصاح عمر بن الخطاب في المسلمين الهاربين أن يعودوا فمحمد حي لم يمت .

وقاد جماعة من فلول العائدين ووقف يحارب دون محمد . .

بينما جعل المسلمون الآخرون من أجسادهم درعاً تحميه من نبال قريش واقتحم عليهم أبي بن خلف على فرسه وطلب أن يبارز محمداً.

لقد جاء بفرسه الذي كان يلقى بها محمداً في مكة قديماً فيقول له: «اني أعده لأقتلك من عليه» وكان محمد في ذلك الزمان يجيبه «بل أقتلك أنا باذن الله». .

وطلب أبو عبيدة، وعمر، والزبير من محمد أن يأذن لأي منهم فيبارز أبي بن خلف نيابة عنه. . ولكن محمداً رفض. . وصمم على أن يبارزه هو بنفسه على الرغم مما فيه من جراحات. .

وانتفض محمد يبارز أبي بن خلف. . وجمع كل قوته في ضربة واحدة ألقت بأبي بن خلف من على ظهر فرسه. . وتذكر ابن خلف النذير القديم وصاح في ذعر: «قتلتني». . ولم يقم أبي بن خلف بعد ذاك من سقطته.

وعاد محمد، مثخناً بجراحه. . يستلقي وسط أصحابه، وكل واحد منهم يحاول أن يعالج هذه الجراح.

وتجمعت كل قوات المسلمين حول محمد. . فلم تستطع قريش أن تخلص اليه. . ومالت الشمس نحو المغيب. فبدأت جيوش قريش تتجمع لتعود.

وخيل لمحمد أنهم سيهاجمون المدينة. . فطلب من علي أن ينظر أي الطرق يسلكون، ولكنهم كانوا يعودون الى مكة حقاً. . ظافرين. . تلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس الغاربة. . وضحكات النساء والجواري تملأ أرض المعركة التي تردد أنات الجرحى من المسلمين. .

وطلب عمر في غيظه من حسان بن ثابت أن يرد على هند الفاجرة التي تخلفت تغني وترقص مع بعض جواريها، وتنشد رجزاً يهجو المسلمين. . فارتجل حسان قصيدة فاحشة يصف فيها خلاعة هند وفجورها. ولكن حساناً كان متعب القلب من كل ما حدث. . وبصفة خاصة: حين اكتشف وسط الجرحى: جثة أخيه. .

وقام محمد يتوكأ على صحابه في أرض المعركة، التي تتناثر فيها أشلاء سبعين قتيلاً من المسلمين. .

وظل يتلمس حمزة:

وحين اقترب منه.. وجد بعض عظام من جسد أمه.. تركتها هند أمام جسد حمزة..

تقدم يتأمل حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به وجدع أنفه وأذناه..

وقال: «لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» وقال الذين من حوله يواسونه: «والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب».

واستدار ليرجع وكل جسده ينتفض.. ولكنه عاد الى جثة حمزة وأخذ يغمغم: «لن أصاب بمثلك أبداً.. ما وقفت موقفاً قط أغيظ الي من هذا».

ورجع الى المدينة، يحيط به بعض صحابه.. وسمع خلال الطريق الى بيته نواح النادبات يبكين القتلى.. كل بيت يبكي شهيده.. وشعر بأنه هو وأهل بيته غرباء ها هنا.. أشد غربة من أي وقت مضى!.

كان من حوله بعض الأنصار يواسونه، ونواح النساء يبكين الشهداء.

وهمهم محمد بصوت يغيض في دموعه: ولكن حمزة لا بواكي له:
فأمر الأنصار نساءهن أن يبكين حمزة: سيد الشهداء..
وارتفع النواح على حمزة من كل البيوت..

أما محمد فقد اندفع الى داره لا يكلم أحداً بعد، ولا يكلمه أحد، ثم أغلق عليه الباب، وأخذ يبكي كما لم يبك من قبل أبداً..

١٨

أجنوناً كان ذلك كله، أم حكمة؟!.

كيف يمكن أن تمحى آثار كل هذه الهزيمة في أحد.. أن يأسو كل هذه الجراحات..

سبعون قتيلاً من خيرة الأنصار والمهاجرين.. وفي الطليعة منهم: حمزة الجسور النبيل الرائع..

ومع ذلك فلو أنه كان قد سمع نصيحة عمر بعد بدر فقتل الأسرى، لما استطاعت قريش أن تحشد كل هذا العدد..!!

ان رجالاً من قريش أحسن اليهم فأطلقهم بعد أن وقعوا أسرى في بدر كانوا يوم أحد يتدافعون بسيوفهم عليه يطلبون رأسه هو!!.. ومنهم من قام عليه خطيباً يلهب الحماس ضده عندما أوشك جيش قريش أن يفر..!!

لكم قال له عمر: اقتل هذا الرجل أو ذاك فلا يقوم أحد عليك خطيباً.. ولكنه ما سمع، فاذا بمعظم أسرى بدر، يشهرون عليه السلاح حتى الرجال الذين عطف عليهم بعد انتصاره في بدر فأطلقهم بلا فدية، ليعولوا بناتهم في مكة!! حتى هؤلاء!!..
لا رحمة لمثل هؤلاء بعد..!!

وها هو ذا أحد الأسرى الذين كانوا قد اعتقوا بلا فدية بعد بدر، يقع في الأسر مرة أخرى في أحد، فيستعطف محمداً، فيقول له محمد: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمداً مرتين! ان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين» ثم يأمر الزبير بن العوام أن يقتله!.

ويلوذ أسير آخر من أغنياء مكة بعثمان بن عفان فيأخذ له الأمان، ويوصي محمد كارهاً بالعفو عن الرجل على أن يرحل بعد ثلاثة أيام.. وتمر الأيام الثلاثة واذا الرجل مختبىء في بعض ضواحي المدينة، فيرسل اليه محمد رجالاً يقتلونه!..

النوايا الطيبة لا يجب أن تفتح الطريق الى بيتك أمام اللصوص، فلقد أوشك رأسك أن يسقط يا محمد، ولئن سقط رأسك الآن، لانقلبوا على أعقابهم، ولسقطت راية الدعوة الجديدة!.. ما زال عليك أن تقول الكثير وأن تعمل الكثير، لتحرر الانسان من سيطرة المصير!..

ومن أجل ذلك فينبغي أن تكون فضائلك هي الأسوار المنيعة التي تحميك لا نقط الضعف فيك!..

الشرير دائماً يتسول الحماية في ظل الفضيلة، عندما يعجز عن قهر القيم الفاضلة!.. ان واجب الأخيار أن يدركوا هذا وألا يسمحوا للشرير بأن يخدعهم، فانه انما يلتمس العفو، لا لينضم اليهم جندياً من جنود القيم الشريفة، بل ليضرب الراية التي يتحركون تحتها حين يجيء الوقت!.

وعلى الذين يناضلون من أجل تحرير القلب والعقل والوجدان، أن يدركوا جلال مسؤوليتهم التاريخية!.. فلو لم يرق بعض الأنصار في معركة أحد، لضراعة هند بنت عتبة.. لو لم يتركوها تنجو بحياتها وصاحباتها، لما قتل حمزة!.. لقد كان العبد وحشي لا يعرف من هو حمزة، ولا يعرف حتى لماذا يجب عليه أن يقتل حمزة.. ولكن هنداً هي التي أغرته، وهي التي أخذته من يده وهيأت له المخبأ وراء شجرة، ليغتال حمزة: سيد الفرسان!..

وانطلقت هند بعد هذا هي وصاحباتها يستنفرن الرجال الهاربين!..

وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد، فاجأ المسلمين من وراء ظهورهم، فقد كان جيش المسلمين قادراً على أن ينتصر على فرسان خالد، لو لم تذهب هند وصاحباتها الى أبي سفيان وعكرمة.. اللذين كانا يفران بقلب جيش قريش وجناحه تستصرخهما أن يعودا لتطويق المسلمين!!.

فليتعلم المسلمون جميعاً أنه في مثل معارك المصير، لا تهاون بعد ولا رحمة..

ان هذه الرحمة المخدوعة كلفتهم حياة حمزة، والنصر أيضاً!..

ومع ذلك.. فالرماة الذين تركوا أماكنهم ليتحملون جزءاً كبيراً من مسؤولية الهزيمة، وان عبدالله بن أبي ورجاله الثلاثمائة، ليتحملون بفرارهم قبل المعركة مسؤولية دماء سبعين شهيداً من المسلمين!..

أنتم أيها الرماة.. لماذا تركتم أماكنكم قبل أن يصدر اليكم الأمر؟! لقد رأيتم الغنائم والسبايا فطارت عقولكم!!.. عصيتم منكم من يريد الدنيا، على الرغم من كل التعاليم!.. فلتتحملوا أنتم مسؤولية هذا العصيان!..

ولكن محمداً آثر أن يعفو عنهم، من بعد ما رأى ندمهم ودموعهم.

مهما يكن من شيء فيا أهل المدينة: لا تيأسوا بعد.. تلك الأيام نداولها بين الناس، فلا تهنوا ولا تحزنوا.. ولتعتبروا من كل ما كان..

وخرج محمد من وراء بابه الذي كان قد أغلقه عليه، فأعطى سيفه لابنته فاطمة وقامت تغسله مما علق به من الدماء..

ثم ذهب الى المسجد، حيث تعود أن يلقى الناس، فوجد عبدالله بن أبي يقف في الناس خطيباً!.

ماذا يقول عبدالله بعد أن خذله في أحد وانسحب بثلث الجيش!؟.

كان عبدالله يحض الناس على أن يسمعوا لمحمد ويطيعوه.. ويحبوه!..

الى أي حد يعبث هذا المنافق الكبير بعقول الآخرين؟!.. أهو يتحدث عن الحب أيضاً، أيتحدث عن الطاعة، هو الذي رفع فجأة راية العصيان، وأحدث ثغرة في قوات محمد، وبرح يكيد له: في الصدر منه مستنقع تفرخ فيه العفونة والكراهية، وعلى الفم ابتسامة والذراعان متهيئتان للعناق..

وقبل أن يبلغ محمد مكان عبدالله بن أبي وثب بعض الذين كانوا في أحد، وأخذوا بثياب عبدالله والغصة في الحلوق، وطعم الهزيمة ما زال يملأ الأفواه بالمرارة..

وبصقوا مرارتهم في وجهه وانقضوا عليه يدفعونه، وهو يصرخ فيهم متعجباً: لماذا يثبون عليه وهو يدعوهم الى الحب والى طاعة محمد؟.. ولكنهم ظلوا يركلونه حتى

خرج من المسجد، وهمس عمر لمحمد: لو أمرتني فأقتله!.. ولكن محمداً نظر الى عمر مستنكراً..! ان عبدالله بن أبي ما زال يملك النفوذ على بعض القلوب، ومهما تكن خيانته الآن، ففي المدينة رجال ما برحوا يحترمونه ويغضبون له!..

ليصبر محمد، وليحتط، ولن يخدعك عبدالله بن أبي بعد.. وعلى أية حال، فلن يأمر محمد بقتله الا يوم يطالب كل الناس برأسه.. ويصبح من المستحيل على أحد أن يمنعه!..

وأقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة أحد.. ويستخلص العبرة من أخطائهم فيها عسى أن تضيء التجربة القاسية طريقهم الى المستقبل!.

كان قد مسح دموعه على حمزة.. وأعلمهم أنه لن يمثل بقاتلي حمزة ان ظفر بهم.. فما كان له أن يمثل بالقتلى.. ولكن سيكتفي بقتلهم! وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين..

وطالبهم بألا تأخذهم بعد في العدو رحمة.. ففي معارك المصير، تصبح الرحمة نوعاً من الغفلة.. وما جدوى رحمة تجلب الهزيمة، وتهدد القيم التي يدافعون عنها!.. وحدثهم طويلاً عن الطاعة..

انه ليشاورهم في الأمر، وسيظل يشاورهم، فلئن تخلى عن المشورة يوماً فهناك تسود الفوضى والظلمات.. ولكن المشورة يجب أن تفضي الى اتفاق.. فاذا اتفقوا على أمر وأقروه فليس من حق أحد بعد أن يخرج على القرار.. والا حق عليه جزاء المفسدين في الأرض.. وفي معارك المصير، يجب على كل الجنود أن يذعنوا لأوامر القائد.. لأن القائد لا يمثله شخصه وانما هو انبثاق من ارادة الجميع، وقراراته التي تصدر بعد الشورى انما تشكل رأي الناس جميعاً، فمن خالفها فكأنما خالف الناس جميعاً..

ومهما يكن من أمر.. فانه لن يؤاخذ الذين أخطأوا وكانوا سبباً في الهزيمة.. سيعفو عنهم ويستغفر لهم وسيظل يشاورهم في الأمر.

وأما الذين قتلوا في أحد، فقد طلب محمد من الناس ألا يبكوهم بعد.. وألا ينقلوهم الى المدينة ليدفنوهم فيها ويقيموا الأحزان.. «فليدفنوا حيث صرعوا»..

وهم ليسوا أمواتاً بل شهداء «أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله». .

أما أنتم يا من ترجعون سبب الهزيمة الى الخروج من المدينة، وتريدون أن تجعلوا ذلك حسرة في قلوب الذين جاهدوا فلا تقولوا لاخوانكم بعد اذا ضربوا في الأرض: لو كانوا معنا ما ماتوا وما قتلوا. . ولتعلموا جميعاً أنكم لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم!. .

ولم يكد الناس يفرغون من حديث المحنة في أحد، حتى شعروا أن لفحات التجربة قد أنضجتهم حقاً، حتى يستطيعوا الآن أن يواجهوا المستقبل وهم أكثر تماسكاً وطاعة، وصلابة.

وانصرف محمد يدير شؤون مدينته بعد المحنة. .

لقد أنذرتهم قريش أن تهاجمهم في مثل هذه الأيام من العام القادم بجيوش تدك عليهم الجبال! فليستعد محمد منذ اليوم لهذا اللقاء. .

فليحشد القوى التي بعثرتها الهزيمة، وليلق في القلوب من جديد ثقة لا تزعزع بأن المستقبل له!.

وكان عليه أولاً أن يأسو الجراحات في سبعين بيتاً من المدينة، ما زالت تنوح على رجال ذهبوا. وطاف محمد مع صحابه بالبيوت يعزي الأرامل والأيتام، وينصح صحابه أن يتزوجوا الأرامل الصغيرات لكي يعصموهن من الفتنة.

وبدأ يدبر المال الذي يجزيه على هذه البيوت التي لم يعد لها ما تعيش عليه بعد. .

من أين يدبر هذا المال؟ لقد كلفته معركة أحد فوق الطاقة، وغنمت قريش من جيوشه كثيراً من السلاح والدروع، وانه لفي حاجة الى ضعف ما في خزائن المدينة ليشتري به السلاح استعداداً للقاء قريش حين تزحف على المدينة في العام القادم. .

وحض القادرين من المسلمين على أن يدفعوا، ويبذلوا ليعاونوا أسر الشهداء. . لكنه وجد كثيراً من القادرين. . لا يدفعون!. . في الحق أنهم أصبحوا غير قادرين!.

كانت حالة من حب المقامرة قد استولت على كل النفوس، بعد أن سحقت قريش أحلام المسلمين بالغنائم والأسلاب في أحد..

أما الذين خرجوا الى أحد مدفوعين بأحلام الغنى فقد عادوا كلهم مجانين من الغيظ، واتجهوا الى المقامرة، عسى أن تعوضهم عن أحلام الغنى التي أهدرت في جنبات أحد!.. وفي ساعات اللعب كانت الخمر تقدم لهم بلا حساب..

وأحسن يهود بني النضير استغلال هذا الانهيار الذي يعصف بالنفسيات المصدومة.. ففتحوا بيوتاً للهو تقدم خمر البلح القوي، وتعقد فيها المقامرات بالمبالغ الطائلة وترقص اليهوديات الحسان!..

الى مثل هذا الجو الصاخب هرب كثير من المسلمين.. وفي مثل هذه الدوامات من المغامرات الرهيبة ضاعت ثروات!.. وفي الحق أن يهود بني النضير كانوا حين تخلوا عن يهود بني قينقاع يطمعون في أن يرثوا سوقهم في المدينة، ولكنهم منذ وجدوا المسلمين يستولون على السوق اليهودية، أخذوا يحتالون لتدمير الاقتصاد الاسلامي. ولم يكد ينهزم المسلمون في أحد، حتى أقام اليهود في بيوت فاخرة أسواقاً أخرى للمقامرة والمتاع.. واستغلوا الانهيار النفسي بعد الهزيمة، فكسبوا من تجارتهم تلك أكثر مما كانوا يأملون من وراثة سوق بني قينقاع.

وأدرك محمد أن هذه التجارة الشائنة التي يروجها اليهود، لا تحمل الفقر وحده الى بيوت المسلمين وانما هي تدمير منظم للصلابة التي يجب أن يحتفظ بها جيل كتب عليه أن يواجه مسؤولية تحرير الانسان!.. ان بني النضير لا يكتفون بتخريب الاقتصاد في المدينة. وانما يخربون النفوس أيضاً!..

وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأحد، ينحدرون الآن في يأس هائل، فما يفيق الواحد منهم من الخمر، ما يغادر أماكن القمار، الا ليستمتع باحدى المغنيات أو الراقصات اليهوديات.. ولا شيء بعد يملأ القلب أو الفكر، غير الرغبة في الفرار من الواقع المعذب، غير أحلام مريضة بالغنى والمتاع.. والبحث المضطرب عن العزاء!.

كانوا يتباهون كل صباح بمغامرات الليل السابقة، وتشيع في المدينة قصصهم.

وقال لهم ان المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيكشف ستر الله عنه.

وظل يدعو ربه أن يحمل العزاء الى هذه القلوب التي سحقتها الصدمة في أحد.. ولكن بلا جدوى!..

وأخيراً أطلق منادياً يدعو الناس الى ترك الخمر فقد حرمت.. لقد حرمت فلا يقربوها.. عليهم ألا يقربوا الميسر ولحم الخنزير.. وألا يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.. وعلمهم أن الاستمتاع ببنات اليهود انما هو ضرب من الزنا عقابه مثل عقاب الزنا!..

وامتنع المسلمون عن الذهاب الى البيوت التي فتحها بنو النضير.. فاحتج بعض بني النضير، واعتبروا أوامر محمد نوعاً من التضييق الاقتصادي.. وطالبوه بأن يعوضهم عن هذا بأن يسمح لهم بتبادل التجارة مع قريش.. والا فسدت الخمور، ومراعي الخنازير..

ولكن محمداً لم يكن ليحفل بالبحث عن حل لانقاذ اقتصاد بني النضير.. فلتفسد الخمر، ولتهلك الخنازير جميعاً، وليأخذ الطاعون كل غانيات اليهود.. فالذي يعني محمداً حقاً هو انقاذ رجاله واعدادهم للنهوض بدورهم.. على أنه حذر يهود بني النضير أن ينقضوا صحيفة التحالف القديمة التي نصت على مقاطعة قريش وحذرهم بصفة خاصة أن يبيعوا السلاح!..

وعاد الى رجاله ينصحهم أن يلتمسوا أسلوباً آخر للعزاء.. فليؤمنوا بالمستقبل. وليؤمنوا بأن الحق الذي يدافعون عنه هو الذي سينتصر.. ولينصرفوا الى أعمالهم، فما زالت الحقول تنتظر من يستنبت منها الزرع.. وليكونوا هم أنفسهم عزاء للأطفال الذين فقدوا آباءهم في أحد.. وعزاء للنساء اللواتي فقدن الأزواج فان «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالقائم بالليل الصائم بالنهار».. وليدفعوا أموالهم لأسر الشهداء بدلاً من تبديدها على الخمر والقمار ولحم الخنزير.

واستطاع محمد أن يجد لكثير من البيوت رجالاً من صحابه.. ولكن واحدة من أرامل الشهداء صارحته ذات يوم: انها لن تتزوج فلن تجد خيراً من زوجها الشهيد.

كانت هي هند بنت أمية، قد استشهد زوجها بعد أن ترك لها مع الأسى والدمع المتصل ولدهما سلمة. . وكانت في الثلاثين. . جميلة مثقفة. . بكل جمال تلك السن، وبكل النضج الذي تمنحه الثقافة. . لكم تشبه في جلالها وشموخها. . زوجته العزيزة الراحلة. . خديجة!.

وحاول محمد أن يقنعها أن تقبل زوجاً من فضلاء المهاجرين أو الأنصار.

ولكنها كانت تقول له دائماً: «ومن يكون خيراً من أبي سلمة؟».

وتقدم اليها عمر خاطباً، ورفضت أم سلمة، ثم تقدم أبو بكر. فرفضته، ثم تقدم محمد نفسه فقالت انها لا تفكر في الزواج بعد، فقد ارتفع سنها حتى لقد بلغت الثلاثين، فما تهتم الآن بالرجال. . وهي بعد أم ولد تريد أن تفرغ لولدها. . وهي فوق كل هذا امرأة تعرف نفسها وتعرف أن لها قلباً غيوراً فما تقبل أن يشرك بها عند رجل!! ثم قالت لتتخلص من طلب محمد انه على أيه حال يضم زوجات جميلات لا يتجاوز عمرهن العشرين مثل عائشة وحفصة وزينب، فما حاجته بامرأة مثلها في الثلاثين؟.

وأخذ يحاورها: لئن كانت تحسب أنها قد جاوزت سن الزواج لهي مخطئة فهي ما تزال شابة، وهو نفسه يكاد يبلغ ضعف عمرها. . أما عن ولدها فسيكون هو أباً له. . وهي بعد يجب ألا تغار من الزوجات الصغيرات لأنها تملك من الجمال والصبا مثل ما تملك أصغر زوجاته وعلى أية حال، فسيدعو لها ربه أن يطهر قلبها من الغيرة، وانه ليخشى عليها الفتنة ان تركت بلا رجل.

واقتنعت أم سلمة بعد أن رأت حرص محمد عليها.

وزفت اليه في بيت جديد منفصل عن بيوت زوجاته الأخريات. . وعندما احتوتهما الحياة المشتركة أحس محمد أنه الآن يمتلك كنزاً ثميناً: فأم سلمة على جمالها ـ امرأة ناضجة ذكية القلب، راسخة. لكم تذكره بخديجة حقاً!.

على أنه الآن قد اطمأن الى مستقبل الأرامل جميعاً. . وقد امتنع رجاله عن الخمر والميسر ولحم الخنزير وارتياد بيوت اليهود. . وأنقذت تعليماته الصارمة أموالهم ونفسياتهم، فهو لا يفكر بعد الا في طريقة يستعيد بها هيبة الدعوة بعد هزيمة أحد. .

لقد بالغت قريش في استغلال انتصارها في أحد، فأطلقت الشعراء يتغنون بهذا الانتصار ويهجون محمداً وصحابه. . وأقيمت الأفراح في كل دور مكة، وامتلأت الساحات بالراقصات والمغنيات، وأريقت الخمور. . وذبحت قريش ودعت الأعراب من كل مكان ليشاركوها فرح الانتصار. . ثم دفعت الأموال الطائلة لشعراء القبائل الأخرى فأنشأوا القصائد الطوال في السخرية من محمد، وفي الحض على الاحتشاد للقائه اذا جاء العام القادم. .

ودوى هذا كله في أرجاء الصحارى الواسعة. . فبدأت تتحرش به كل القبائل التي كانت ترهبه من قبل. .

وبلغ الصدى معاقل اليهود في المدينة فشجعهم هذا على الاستخفاف به!. .

وكان بنو النضير يتميزون منه غيظاً منذ منع صحابه من الذهاب الى بيوتهم ليقامروا، ومنذ منع الخمر ولحم الخنزير. .

فلم يكد بنو النضير يتسامعون بما تقوله قريش فيه، حتى أعلن أحد أغنيائهم أنه سيمنع المسلمين من أن يشربوا الماء من بئر يملكها.

لقد حرم محمد الخمر على رجاله، واذن فليدفعوا للماء. .! ولكن ثمن القدح أغلى من ثمن قدح الخمر!!.

اضطرب أهل المدينة فما تعودوا أن يشتروا الماء من قبل، فأخذ محمد يغري أثرياء المهاجرين أن يشتروا هذه البئر.

وتقدم عثمان بن عفان الى صاحب البئر فغالى في الثمن وأبى أن يبيعه أكثر من نصف البئر. . ودفع عثمان في نصف البئر ما يكفي ثمناً لثلاث آبار. . ثم وهبها المسلمين يشربون منها ويسقون الحيوان بلا مقابل. . مما اضطر المالك اليهودي أن يبيعه النصف الباقي بثمن بخس.

ويوماً بعد يوم عادت الثقة تملأ القلوب من جديد.

والأيام تمضي، والقبائل التي كانت ترهب محمداً تستعد للقائه.

واستقبل ذات صباح وفداً من بني سليم جاءوا يطلبون منه أن يرسل اليهم من

يثقفهم بالدين الجديد فقد مالوا اليه بعد أن كانوا من غلاة الأعداء.. وأرسل معهم ستة من صحابه، فرحاً بأنهم سينضمون اليه.. غير أنهم كانوا يضمرون الكيد له وليجعلوه سخرية بين القبائل!.

وتلقى محمداً وفداً آخر من بني هذيل فأرسل بعض صحبه اليهم ليثقفوهم في الدين الجديد.. غير أنهم كانوا يضمرون غير ما قالوا.

فلم تكد وفود محمد توغل في الصحراء.. حتى وثب فرسان بني سليم على من معهم فقتلوهم الا رجلين، ووثب بنو هذيل على من معهم فقتلوهم الا واحداً.

وروع محمد من هذا كله!.

الى أي حد تريد قريش وحلفاؤها أن يسخروا به، وأن يزوروا عليه؟.

وعاد يكفكف دموع أسر الشهداء من جديد..

ثم أقبل وفد من نجد يطلب من محمد أن يرسل اليهم من يثقفهم في الدين الجديد.. واحتاط محمد هذه المرة لكيلا يقتل أصحابه غيلة.. واستوثق حتى علم أن الأمر جد هذه المرة.. وأخرج من صحابه بعدة الوفد الذي أقبل.

وفي الطريق خشي صحابه أن يكون في الأمر كيد لم يفطن اليه محمد.. فوثبوا على وفد نجد وقتلوا اثنين من بني عامر..

وعادوا الى محمد..

مهما يكن من الظروف التي تبرز مخاوف أصحابه فقد ضاق محمد بهذا الذي حدث. كيف تأتي له القبائل من بعد، ان كان أصحابه يثبون على وفودها؟.. لماذا يأخذ أصحابه الطيبين بجرائر أشرار سلفوا.

وقرر أن يدفع دية القتيلين.

ولم يكن لديه مال.. فذهب الى بني النضير يطالبهم وفقاً لأحكام الصحيفة بأن يعاونوه في دفع دية الرجلين.. فقالوا له: «نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه».

ثم خلصوا نجياً في داخل أسوارهم وتركوه ينتظر أمام الأسوار. وطال انتظاره فقعد

على الأرض بين صحابه أبي بكر وعمر وعلي. . وانهم لقاعدون أمام الأسوار اذ برجل من بني النضير يصعد على السطح ويدفع صخرة أمامه ليسقطها على رأس محمد. . فقد كان بنو النضير قد أجمعوا أمرهم في الداخل على أن يتخلصوا من محمد الى الأبد ولن تسنح لهم مثل هذه الفرصة مرة أخرى. . لن يجدوه أبداً على مثل حاله من الاطمئنان اليهم. . بلا سلاح!.

واستطاع محمد وصحابه أن ينجوا من الصخرة قبل أن تسقط. ومضى الى المسجد يروي للناس ما كان.

وأعلن الحرب على يهود بني النضير وزحف عليهم بجيوشه. . وبكل الرجال الحالمين بالغنى. .

وطلب من بني النضير أن يسلموا فأبوا. . فأمر محمد أن تقطع النخيل وتحرق فقالوا له: يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها. . ولكنه لم يأبه لهم وطالبهم مرة أخرى بالتسليم.

وكما حدث ليهود بني قينقاع. . اعتصم بنو النضير أياماً في حصونهم ثم أذعنوا وخرجوا بنسائهم وأولادهم، والقيان والراقصات يعزفن من خلفهم وتركوا الدور والأموال والسلاح! انها لثروة جديدة تملأ خزائن المدينة بالمال والعدة الرائعة وأدوات الحرب.

وانطلق الشعراء يتغنون بهذا الانتصار. . الذي عوض المهاجرين عن هزيمتهم في أحد. . وملأ الخزائن بالمال والسلاح. . وأعاد الثقة الى كثير من القلوب فلتقبل قريش وأنصارها. . فانهم الآن مستعدون بأحدث أنواع الأسلحة التي غنموها من بني النضير.

أجل فلتقبل قريش. وستعرف المدينة كيف تثأر مما حدث في أحد!.

١٩

ألأنك تصبر على الذين يكيدون لك، فهم يظنون بك الضعف؟!
ولكنهم في قبضة يدك وما زلت قادراً على أن تسحقهم جميعاً!.

وان تعفو عنهم خير لك عسى ألا تلقى في قلوب أبنائهم البغضاء، فتشب القلوب الصغيرة مطهرة من الضعف الذي يستذل الكبار!.. عسى أن ينشأ جيل جديد، بوجدان آخر، يضيء بتعاليمك يا محمد.. جيل يحيا بالرحمة والبر والصدق بدلاً من الكراهية!.

اتل عليهم: لقد جاءتكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ.

اترك عبد الله بن أبي وشيعته يكيدون لك في المدينة، فهم في النهاية في قبضة يدك ولا تسمع فيهم نصيحة عمر..

وبدلاً من أن تغرس الأحقاد في قلوب صغارهم. بدلاً من أن تفتح عيونهم على قاتلي أبائهم. بدلاً من الخوف، دع الأطفال وحدهم يكتشفون الحقيقة يوماً بعد يوم ولن يطيقوا عار الانتساب الى آباء بلا قيم..! سيحمل عنك الصغار عندما يكبرون عبء محاسبة الآباء الأشرار.. وسيكبر الصغار ذات يوم يا محمد...!

لأنك تعلم الناس الحكمة والعدل، يجب أن تقتات بالصبر.. وأن تدفع راحتك ثمناً عادلاً للحصاد الذي ترجوه!

ولكن.. ألأنك تبشر بالرحمة، يجب أن تتلقى العذاب مع مشرق كل شمس؟!..
ألأنك تريد أن تفرض العقل على سلطان الفوضى، يجب أن تزكي عن نبالة ما تريد، برؤوس أعز أصحابك أيضاً..؟!

ما أفظع أن يكتب على الفكر أن يواجه قوى غاشمة بلا أخلاق!

الحياة نفسها تتحول الى مجاهل من أشواك تسكنها العقارب والأفاعي الهائلة كيف يواجه الانسان هذا كله، وما يملك من سلاح أقوى من الكلمة!؟ بأية كلمات يجتاز الانسان طريق الشوك حيث تقوم دولة الزواحف الرهيبة السامة، وتقهقه مزوغة ساخرة من عجز الانسان، تجلجل في الآفاق العقيمة الخرساء!.

أيجب على الانسان أن يبكي، تكفيراً عن عجزه؟ ثم ماذا بعد البكاء؟.

لكم بكينا في الليالي السود من الزمن القديم، وحلمنا بأن يسود الانسان، وأن يطهر الأرض، من كل ما يروعه!. وكابدنا، وهاجرنا مع صحاب أعزاء، وواجهنا الموت معاً، والنصر معاً، والهزيمة معاً.. ثم عدنا نبني بأيدينا حضارة وارفة يتغنى فيها القلب بالعدل والمستقبل!.

وعادت الزواحف الرهيبة السامة تهدد الانسان، وضحكات المسوخ تنطلق في سخرية، والقوة التي تعرت عنها الأخلاق، تتبجح وتتحايل وتتحدى.. وتعبث بكل ما هو رائع وجليل ونبيل من أحلام القلب المضنى.!

والا فما بال قريش في مهرجان انتصارها، تغري جارتها الصغيرة، فتأتي وفود الرعاة من هذيل الى المدينة تطلب رجالاً يفقهونهم في الاسلام.. ويخرج الرجال المسلمون.. رجال من أفضل صحابك يا محمد.. فاذا بقبيلة هذيل تسلمهم لقريش، وتقبض عن كل رأس ثقله من الفضة! وتتحول رأس أحد صحابك.. الرأس التي امتلأت بالحكمة والرحمة واحترام الآخرين.. الرأس التي عمرتها ذات يوم أحلام لا نهاية لها بعالم يسوده الحب وترتفع فيه على الهامات أغصان الريحان والزيتون بدلاً من السيوف.. اذا بهذه الرأس نفسها، تقطع، ويمثل بها، وتشرب فيها امرأة فاجرة من قريش، خمرها!!.

وضحكات المسوخ المخيفة تدوي من بعيد، وتغمر الهضاب والسهول والرمال الشاسعة، مجلجلة بالسخرية.. منك يا محمد!!.

ولكن صوتاً عظيماً يرتفع فوق جلجلة هذه الضحكات.. صوت عظيم رائع يخترق كل الآماد، يؤكد أن اليقين أقوى من السخرية، وأروع من الموت! فها هو ذا جمع من

سادة قريش يلتفون حول زيد بن الدائنة أحد الرجال الذين اشترت قريش رؤوسهم من الهذيليين بينما الفاجرة القريشية تشرب خمرها في جمجمة أحد المسلمين والضحكات تتعالى في جنون وحشي. . الرجال والنساء في المنازل يسخرون بمحمد، أمام جثث صحابه التي تستلقي تحت الأقدام بكل ما يعمرها من تعاليم. . وزيد بن الدائنة، وقف يتمتم بآيات تعلمها من محمد، ونظراته تلقي الشرر على أبي سفيان، الشيخ الغني الوقور الذي يعربد على جثث الضحايا بأغلظ مما يعربد الجميع. . ويأمر أبو سفيان رئيس حكومة قريش أحد أتباعه أن يرفع السيف ليقطع رأس زيد. . ولكنه يعود، ليسأله في سخرية قبل أن يضم جثته الى جثث صحابه:

ـ يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟

ـ والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في أهلي!!. .

وتتجمد الضحكات، فيأمر أبو سفيان السياف أن يقتل زيداً. . يهمهم أبو سفيان:

ـ ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد، محمداً!.

من أجل ذلك ماتوا في بسالة، رافضين كل مساومة، وصدى جليل من كلماتهم، يلقى في نفوس الآخرين رهبة غريبة من العقيدة الجديدة. . ان هذا كله محير وجديد. . جديد حقاً على النفسية العربية.

أربعون رجلاً سقطوا الواحد بعد الآخر سقطوا بكل اقتناعهم بأن شجاعتهم أمام الموت هي أشرف مسؤوليات الجهاد. . هذه الشجاعة لن تضمن لهم حياة خالدة أخرى فحسب، ولكن هذه الشجاعة ستكون بعد موتهم سيرة مضيئة تهدي خطوات اخوانهم، وتملأ الفراغ الذي تركوه، بأقوى مما تملأه سيوفهم نفسها!.

أربعون من الشهداء العظام يا محمد!. . مهما يكن الأثر الرائع الذي خلفته شجاعتهم النادرة أمام الموت والظلمات، فان الطريقة الغادرة التي قتلوا بها، تظل تغري القبائل على طلب المزيد امعاناً في السخرية.

ولكنك الآن قد أمنت ظهرك، استعداداً لقريش التي واعدتك بدراً من العام القادم. .

لقد انتهى أمر بني النضير وعوضك ما غنمته منهم عن كثير مما خسرته في أحد! . .

فلا يجب أن تنتظر حتى تعود اليك قريش في العام القادم. . لا يجب أن تسمح لها بأن تعقد الأحلاف ضدك. . فستظل القبائل من البدو تتخطف صحابك على النحو النادر الذي حدث؟.

ومع ذلك فما يليق بك حين تسعى اليك وفود بعض القبائل طالبة من ثقتها حياة الصحاب!!. .

سيظنون بك الخوف وسيضيق نطاق دعوتك الى الحد الذي يضرها، لو أنك رفضت. .

ومع ذلك فيجب أن تبحث عن الأمان لمبعوثيك. .

لا بد من خلق حالة من الاحترام، وتثبيت هيبة جماعتك في قلوب البدو، فلا يخدعك رهط منهم بعد!. .

ان انتصارك على بني النضير، بكل شهرتهم الحربية، ثم اخراجهم عن المدينة، ليضربوا في التيه، سيعظ بلا مراء كل حلفائك الذين يفكرون في الكيد لك وتصبو نفوسهم لنقض المحالفة. . سيعظ يهود بني قريظة!.

ولكنك في حاجة الى عمل خاطف قوي يرهب حلفاء قريش، ويدعم هيبتك في البدو ويقنع الذين يفكرون في محالفة قريش، ألا يفكروا بعد. . !

ودرس محمد موقف كل القوى المتحالفة مع قريش. فوجد أن بني المصطلق هم أقوى هؤلاء الحلفاء، وأكثرهم نفوذاً بين القبائل. . كانوا نكبة عليه في أحد. . فقد اعتمدت عليهم قريش في تطويق جيوش المسلمين. فلو أنه حاربهم وظفر بهم، لألقى الرعب في قلوب كل القبائل التي تفكر في الانضمام الى قريش.

لقد غنم من بني النضير كثيراً من الدروع والسيوف وآلات القتال. . كلها تعتبر من أحدث ما وصلت اليه صناعة السلاح. . فاليهود صناع السلاح وتجاره يؤثرون أنفسهم بأمضى أنواع السلاح.

لقد غنم أيضاً محمد خيلهم التي أحسنوا تدريبها على القتال!. . وما انتصرت قريش في أحد الا بقوة فرسانها وخيلها. .

وهكذا وجد محمد جيشه مجهزاً بأحدث الأسلحة وأدوات القتال، وبالخيل المدربة.. بعشرات من الخيل المدربة. هو الذي خاض معركة أحد بفرسين!!

ان هذه القوة الضاربة تستطيع أن تواجه قريشاً وحلفاءها حالما يزحفون الى بدر، كما واعد أبو سفيان، وهو يترك وادي أحد..

ولكن من الخير أن تعزل قريش عن حلفائها الأقوياء..

غير أن المدينة امتلأت بحديث ساخط عن ايثار محمد المهاجرين دون الأنصار بأموال بني النضير وبيوتهم.. انطلق عبد الله بن أبي يهمس في شيعته من الخزرج أن محمداً ما زال يفضل المهاجرين عليهم، على الرغم من أنهم هم الذين آووا المهاجرين.. ولولاهم لما استطاعوا أن يجدوا ملجأ من قريش..! وجمع سعد بن عبادة ما يقوله قومه من الخزرج فأخذ صديقه سعد بن معاذ زعيم الأوس وانطلق الرجلان يجتمعان بشيوخ الأوس والخزرج.. ودعوا عبد الله وشيعته من الخزرج.. وسألوهم عما يشيعونه، بينما محمد يستعد للمعركة الفاصلة مع قريش وحلفائها.. من أين تنبع هذه التيارات التي توشك أن تقسم المدينة وتطلق الفتنة!؟

وابتسم عبد الله بن أبي، كأنه لا يعرف شيئاً.. ان أحداً لم يسمع همساته الى شيعته.. وبدا عليه كأنه هو الآخر يستنكر هذه الأقاويل!..

وأكد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لشيوخ الأنصار، أن محمداً لم يستأثر بالرأي دونهما بل دعوهما وفريقاً من الأنصار فأثنى على حسن ضيافتهم للمهاجرين ثم قال لهم: «ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت أموال بني النضير وأموالكم بينكم وان شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة» ولكنهم أجابوا محمداً: «بل قسم هذه فيهم واقسم فيهم لهم من أموالنا ما شئت».

وعندما فرغ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من شرح الحقيقة للناس، أخذ عليهم موثقاً ألا يتحدثوا في أمر كهذا بعد وألا يظنوا مثل هذه الظنون بالمهاجرين، وألا يسمحوا بأن يحدث أي شيء في قلوب الأخوة الذين يقفون في جيش واحد لمواجهة مصير واحد.

وانفض الناس راضين.. ونظراتهم تشير الى عبد الله بن أبي، الذي خرج يبتسم

ويفتح ذراعيه لعناق محمد وصحابه، وما في القلب.. في القلب!

ان محمداً لم يكد يشرع في تجهيز الحملة على بني المصطلق. حتى فوجىء برجل يحاول اغتياله.. رجل يحترف القتل أرسله أبو سفيان!.

كان موفداً من قريش.. لكن كيف دخل المدينة، وعند من أقام الأيام الطوال متربصاً... ومن الذي دله على الفرصة المواتية لاغتيال محمد؟!.

لا أحد يدري!... والنظرات الغاضبة تشير الى ابن أبي، وابن أبي يبدي للناس غضبه على محاولة الاغتيال، وحرصه الشديد على حياة محمد..

وانه ليبدي من هذا الغضب والحرص، أكثر مما يبدي الأصدقاء الخلصاء كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن معاذ، وزيد بن حارثة.. والآخرون!

ثم يعود عبد الله بن أبي يحمل ابتسامته على شفتيه، ويفتح ذراعيه لمحمد وصحاب محمد..!

ومرة ثانية.. وثالثة.. يفاجأ محمد بمن يحاول اغتياله!!. وتمر أيام فزع، يسهر فيها سعد بن أبي وقاص بسيفه في حراسة محمد..

ولا أحد يدري كيف يدخل المدينة هؤلاء القتلة المحترفون الذين يرسلهم أبو سفيان، أو اليهود الذين أخرجوا..! كيف يدخلون.. أين يختبئون الليالي الطوال؟!

وفي كل مرة يقضي محمد أو أحد صحابه على محاولة الاغتيال وتشير النظرات الغاضبة الى عبد الله بن أبي، وابن أبي يبدي الغضب والحزن، ثم يضع الابتسامة على الشفتين، وذراعاه مفتوحتان لعناق محمد!.

وأوفد بعض أصدقاء محمد من يغتال أبا سفيان، ولكن محمداً عرف هذا فأرسل الى الرجل من يعيده قبل أن يصل.. وأخذ يعنفه ويعنف الذين أرسلوه فما كان الاغتيال سبيلاً لمحمد.. وسيقهر أبا سفيان يوماً، وسيقتله ان أراد وجهاً لوجه..

وما كان الاغتيال من بين القيم التي جاء بها، وانما هو احد الشرور التي يلعنها ويطالب أصحابه بأن يلعنوها.. فالزواحف السامة والحيوانات الدنيئة وحدها ـ لا الانسان ـ هي التي تفاجىء خصمها من الظهر!..

وفي هذه الأيام الغريبة من الكيد والفزع لم تتصل الطمأنينة أسبوعاً واحداً ليتيح لمحمد والمسلمين وقتاً للاستعداد لمعركة مع بني المصطلق أقوى حلفاء قريش. .

وتمر الأسابيع. . فيحين الموعد الذي حدده أبو سفيان منذ عام يوم انتصر في أحد!.

ويحشد محمد رجاله، استعداداً لمعركته مع قريش وحلفائها أجمعين. . معركة يغسل بها عار الهزيمة في أحد!.

ويأتي وقت الخروج، فيترك على المدينة بدلاً عنه عبد الله بن أبي!.

لقد كان عبد الله يحلم بالتاج وكانوا يجمعون له الخرز قبل أن يأتي محمد. . . وما زالت الأحقاد تعشش وتفرخ في قلبه منذ ذلك اليوم. . فليجرب جاه الملك إذاً!. . وليرض غروره. !.

خرج محمد الى بدر مهيأ القلب لمعركة طويلة. . فاصطحب معه اثنتين من نسائه: وخطب في جيشه أن الحرب قد تطول فلن تسلم قريش بالهزيمة بعد أن ذاقت النصر في أحد، وبعد أن فشلت كل محاولاتها في اغتياله. . وأن معها الآن لحلفاء جدداً أكثر من الذين أقبلوا معها الى أحد. .

يسبق محمد بجيشه الى بدر ليحسن اتخاذ مواقعه. . وكان الحر شديداً. . حر أيام لا يعمل فيها الانسان، وخشي محمد أن يتململ رجاله من قسوة الحر فأكد لهم أن المجاهد يلقى جزاءه مضاعفاً كلما اشتدت قسوة الظروف. .

ومضى يحدث رجاله على طول الطريق. . وجد أحدهم متعباً يلهث على جمله والجمل هزيل أعجف، متعب. . فقال له محمد مازحاً: «أتبيعني جملك؟ فقال الرجل، بل أهبه لك. . ؟ لا ولكن بعنيه». . فقال الرجل «ثمنه يا رسول الله» فقال محمد «بدرهم» فقال الرجل لا. . اذن تغلبني يا رسول الله. . وضحك محمد قائلاً: «بدرهمين» وما زال يكلمه حتى ذهب سأمه.

ثم أسرع على دابته الى شاب آخر أجهده الحر فأخذ يحاوره «هل تزوجت بعد» فقال الشاب «نعم يا رسول الله» فسأله: «أثيباً أم بكرا؟» فأجاب الشاب: «لا بل ثيباً» فقال محمد مبتسماً: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك»؟.

فقال الشاب: «ان أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً فتزوجت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن «وقال له محمد: أصبت»!.. وانطلق يحدث آخرين..

وانطلقوا يتحدثون ويداعب بعضهم البعض ويبددون السأم بالضحكات.

وهكذا أشاع جواً طيباً من الجو المرح وسط رحلتهم الشاقة تحت لفحات الهجير.. حتى وصلوا وادي بدر.

وعلى ماء بدر.. عسكر المسلمون تحت شمس لافحة تكاد تحرق الأعواد الخضراء..

وأقام الى جوار الماء كما صنع في معركة بدر الأولى واصطفت كتل من عسكر المسلمين لتحول بين الماء، وبين قريش عندما يقبلون!..

اين حمزة اليوم؟!

ولبث المسلمون على ماء بدر ينتظرون أبا سفيان لميعاده.. ولكن لم يجىء أبو سفيان..

وخشي محمد أن يكون في الأمر خدعة.. لعل جيوش قريش تريد أن تتركهم حتى يسأموا، ويضنيهم الحر.. فاذا هموا بالعودة.. فاجأتهم وهم متعبون على بعض الطريق..

وأقبل من يخبر محمداً أن أبا سفيان لن يجيء..

فآثر محمد أن ينتظر حتى يأتيه خبر يقين..

وجاءه النبأ من عمه العباس أن أبا سفيان لن يجيء في عامه هذا، فقد خرج بجيوش قريش وواعد أحلافها عند مكان في الطريق ولكنه سمع بالحشد الهائل الذي خرج فيه محمد بالأسلحة الجديدة والخيل ووزن أبو سفيان الأمر، فوجد أن القتال غير مأمون العاقبة.. وأن جنود قريش سيحاربون ـ تحت لفحات الهجير وسط جفاف حارق ـ رجالاً يرون في شدة الظروف ما يضاعف لهم الجزاء!.

وهكذا قرر أبو سفيان ألا يحارب من عامه هذا، وسيستعد للعام القادم وسيحاول خلال عامه هذا أن يصدع جبهة محمد في المدينة بعد أن نجح محمد في دعمها وأخلف مكانه عبد الله بن أبي، وأخرج يهود بني النضير!. وجمع أبو سفيان سادة جيشه فقال

لهم: «ان عامكم هذا عام جدب، ألا لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن. واني راجع».

ورجع أبو سفيان ورجع الناس وراءه تطاردهم جميعاً سخرية حلفائهم!.

وعاد محمد بجيشه الى المدينة.. عاد ظافراً هذه المرة وان لم يشتبك في معركة فقد سعت الأخبار من قبيلة الى قبيلة أن أبا سفيان انسحب بجيش قريش خوفاً من الاشتباك مع محمد وجنوده!.

وأمر محمد شعراءه أن يمجدوا هذا الانتصار، فتجاوبت الصحارى بقصائد كثيرة تزهو بقوة المسلمين وتزري على أبي سفيان وقريش وحلفائهم.

وعاد محمد يضحك بين نسائه عما حدث لعائشة في تلك الغزوة البيضاء!.

وكانت هي أصغر الزوجات، تشعر أنها أحبهن! وكانت أدلهن.. وكان محمد قد أجرى قرعة قبل خروجه بين الزوجات فخرجت القرعة عليها هي وحفصة بنت عمر، ورحلتا معه، حتى اذا جاء الليل والركب في الطريق الى بدر أرادت عائشة أن تعرف ماذا يقول زوجها لغيرها من الضرائر فاتفقت مع حفصة على أن تتبادلا بعيريهما.. وكانت تعرف أن زوجها يحب أن يحدثها على بعيرها اذا جاء الليل.. وتقدم الى بعير عائشة فوجد عليه حفصة. ولمح عائشة على بعير حفصة تقترب وتتسمع! واذ لمح لهفة عائشة على التسمع، أدرك كل ما بنفسها، وأراد أن يلقي عليها درساً..

فتلطف الى حفصة؟.

ثم تظاهر بأنه لم يدرك ما صنعته عائشة، وكانت النوبة نوبتها، ولكنه دخل خيمة حفصة فبات فيها وفي الصباح التالي روت عائشة لحفصة أنها حين التمسته فلم تجده ظلت الغيرة تنهش منها حتى لقد مشت عارية القدمين على أعشاب الصحراء وهي تقول «رب سلط علي عقرباً أو حية تلدغني»!.

على أن محمداً خرج بعد هذا الى غزوة وغزوة وأقرع بين نساء أخريات ولم تعد واحدة منهن ـ حتى عائشة ـ تسمح للغيرة بأن تذهب بها الى هذا المدى!.

كانت كل غزواته بعد انسحاب قريش نوعاً من استعراض قوته أمام حلفاء قريش.. وقريش نفسها!.. على أنه لم يشتبك مع أحد في غزوة منها.. كانوا جميعاً يتفادون الاشتباك به ولم يعد أحد يجسر على أن يتخطف صحابه.!

غير أن بني المصطلق لم يرق لهم الأمر.. كانوا هم أضخم حلفاء قريش وكانت لهم تجارة وأموال وأحابيش، وما تركوا الصدارة لقريش الا لأنها تسكن حول البيت العتيق الذي تقوم فيه الآلهة.

وعز على بني المصطلق أن تتخذل قريش، فأرسلت الى أبي سفيان تؤنبه وأطلقت شعراءها في هجائه. وقام الحارث زعيم بني المصطلق يدعو القبائل المجاورة له الى حلف.. فجمع جيشاً كبيراً من جيرانه المقيمين على البحر الأحمر..

فليأخذ بنو المصطلق قيادة المعركة من قريش.. وليأخذ هو الراية من أبي سفيان!..

وانه لأجدر بالراية من أبي سفيان..

وعلم محمد بما يصنعه الحارث فرأى أن يبادر بالخروج قبل أن يستعد بنو المصطلق ويزحفوا.. فليختر هو أرض المعركة.. وجمع الناس واستشارهم فأقروه على ما رآه واستشار عبد الله بن أبي ـ خاصة ـ أمام الناس جميعاً، فأقره وهو يحلم أن يتركه على المدينة.

مرة أخرى..

ولكن محمداً طلب منه أن يستعد فسيجعله على لواء الخزرج!

وحشد محمد ألفاً وخمسمائة محارب وكثيراً من الخيل والابل.. وأقرع بين نسائه فجاءت القرعة على عائشة.

وأسرع محمد بجيشه ليباغت بني المصطلق فوجدهم يملأون السهل على مقربة من ديارهم..

وأمر محمد بالهجوم في السهل المكشوف.

وألقى بكل قوته في هجوم خاطف.. وأصيب الحارث قائد بني المصطلق بسهم، فسقط جريحاً. واضطربت صفوف بني المصطلق أمام تدفق السهام والرجال المستبسلين بالسيوف.. والخيل. وسقط قادتهم جميعاً بعد الحارث.

فازداد المقاتلون اضطراباً. ولم يتوقع بنو المصطلق أن يجدوا المسلمين بمثل هذه القوة والتماسك بعد ما رأوه منهم في أحد!.

وبدأ جنود بني المصطلق يفرون.. وجيش المسلمين يطاردهم حتى أسروا منهم

مائتين.. وغنموا آلاف الأغنام والابل وكثيراً من المتاع..

وهكذا استراح محمد من عدو لا يقل خطراً عن قريش.. انه الآن بعد هذا الانتصار سيملأ خزائن المدينة ويضمن فترة طويلة من السلام! فمن يستطيع أن يتحالف مع قريش بعد، دون أن يفكر في مصير بني المصطلق؟.

جرح زعيمهم الحارث.. ووقعت ابنته في الأسر..

وزع محمد الأسرى من الرجال والنساء بين المجاهدين، فوقعت برة بنت الحارث في نصيب رجل فقير.. فطمع في مالها وكاتبها على مبلغ كبير ليحررها ولكن مالها كان قد أصبح من الغنائم، فذهبت الى محمد تشكو: أنا بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك.. ثم شرحت له ما يريده الرجل من مالها ليعتقها. واستنجدت بمحمد أن يمنحها هذا المال..

وفكر محمد في الأمر، لو أن برة بنت الحارث أعتقت وانطلقت الى قومها لاستطاعت أن تجمع فلولهم من جديد، وستقودهم لتثأر لأبيها!.. ان في عينيها هذه الجسارة، وملامح وجهها الجميل ـ الخارق الجمال ـ تخفي صرامة خاصة توحي بأنها قادرة على اقتحام الخطر!.

وقال محمد وهو يستمع اليها: هل لك في خير من ذلك، فقالت وما هو.. أقضي عنك كتابك وأتزوجك.. فقالت نعم «قال. قد فعلت».

ودفع عنها ما كاتبها عليه آسرها الفقير.. ودعاها الى الاسلام وتزوجها.. فأسلم أبوها.. ومعظم الأسرى من رجال أبيها..

لقد وجدوا في هذا النسب شرفاً لهم.. وكانوا يرون في محمد ملكاً على المدينة، والقبائل المتحالفة معها.. انه الآن لأعلى مكانا من أي سيد في الجزيرة..

٢٠

بدأ يستعد للعودة الى المدينة في موكب الظافرين!.

لقد كسب في ضربة واحدة أكثر مما كان يرجو.. ضرب بني المصطلق في ديارهم، وفرض هيبة الدعوة على الذين كانوا يفكرون في الانضمام الى قريش، وغنم أموالاً وسلاحاً ومتاعاً يمنح مدينته العز والمنعة، وضمن ألا يتجمع بنو المصطلق للثأر، فقد تزوج بنت قائدهم الحارث، فتبعه أبوها وأخواها وقومها، ورأوا بعد هذا النسب أن يناصروه..

وغير اسم بنت الحارث الى جويرية، وبالغ في اكرامها حتى لقد شعرت بأنه يمسح جراحها حقاً بعد هزيمة قومها بيد تملك من الحنان ما لم تعرفه هي من قبل، حتى لقد شعرت زوجته المفضلة عائشة بالغيرة..

وما كان التحالف مع بني المصطلق ليحمل الى عائشة ما يعوضها عن عذاب الغيرة من الزوجة الجديدة الحسناء.. لقد شعرت أن جويرية ستنافسها، فهي صغيرة مثلها، وهي أجمل الزوجات جميعاً..

وكره محمد وهو يبتهج بانتصاراته أن يؤذي عائشة..

ولكنها على الرغم من كل الجهود، ظلت حزينة مضطربة، معذبة، تعاني في أعماقها لهب الحريق. وتفسد على زوجها روعة الانتصار الحربي الخارق، والكسب السياسي الجديد!.

انها لتوشك أن تمرض من عذاب الغيرة.. على أن الوقت لم يكن صالحاً بعد،

فقد نشأت همهمة بين الأنصار أثارها عبد الله بن أبي.. كيف ستوزع الغنائم.. أعلى المهاجرين وحدهم أيضاً؟.

ولم يكن وقت توزيع الغنائم قد حان بعد، فمحمد قد فرغ لساعته من اطلاق الأسرى.. ومن تخصيص فريق من صحابه يعلمونهم الاسلام وهو ما زال يأخذ المواثيق على بني المصطلق أن يكونوا في هذا المكان من شاطىء البحر الأحمر.. دعامة للدين الجديد!.

ولكن عبد الله بن أبي نجح في أن يغير من قلوب بعض الأنصار على المهاجرين: احذروا محمداً لأنه يؤثر المهاجرين دائماً، والمهاجرون يشعرون بأنهم أفضل!..

وكان عبد الله بن أبي وبعض أغنياء الأنصار يطمعون في أموال الغنائم.. ولكن محمداً كان قد قرر أن يعطي الفقراء من المهاجرين ليستغنوا عما يقدمه لهم الأنصار فيخفف الحمل عن أهل المدينة، وينتشل المهاجرين اليها مما يعانونه من فقر..

وكان يقول لهم: كاد الفقر أن يكون كفراً..

وكان يريد أن يقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء فلا يصبح المال للأغنياء وحدهم ولقد تلا عليهم: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم».

ولكن عبد الله بن أبي كان يضيق بهذا ويطمع في أموال الفيء ويطالب بأن يكون المال دولة بين الأغنياء!.

ولقد حاول أن يثير السخط على أسلوب توزيع الفيء ففشل..

«ودفع أحد شيعته من الخزرج أن يزاحم رجلاً من المهاجرين على بئر يستقي منه فدفعه المهاجر فوقع فاستنجد الخزرجي: يا معشر الأنصار! وقام اليه بعض شيعة عبد الله.. واستصرخ المهاجر. يا معشر المهاجرين؟.

وأقبلت جماعات من المهاجرين والأنصار حول البئر.. وتحرج الموقف وانتهز عبد الله الفرصة فوقف يخطب في الأنصار: «قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا! والله اننا وهؤلاء كمثل قول القائل: سمن كلبك يأكلك.. أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: «هذا ما فعلتم بأنفسكم. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم».

وعلم محمد بما يحدث فأسرع الى الناس يصرخ فيهم ويؤنبهم.. ثم نادى عبد الله بن أبي فسأله كيف يقول.. ما قال.

وأنكر عبد الله. واتهم من أبلغ محمداً بالكذب..

وكان عمر الى جوار محمد فقال له: «أقتله»! كم من مرة قبل هذه طلب عمر من محمد أن يقتل عبد الله ويجيبه محمد: «كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

وكان عمر يكره عبد الله وابتسامته وذراعيه المفتوحتين، وحرصه على تزويق الكلام.. ان هذا التزويق ليخفي شيئاً كريهاً بلا ريب!.

وكان عمر لا يخفي ازدراءه لعبد الله، وما التقيا الا شعر عبد الله أن نظرات عمر تمزق عنه أقنعته الزائفة قناعاً بعد قناع!

وتأمل محمد في وجوه الأنصار.. ان أحد كبارهم ليقول: «عسى أن يكون من أبلغك ما أبلغك عن عبد الله قد أوهم في حديثه»!

ان بعض الأنصار ما زال يحدب عليه.. فهو حيث لا يحمل حقداً لا يبدو منه غير الملمس الناعم.. أما أعماقه العامرة بالضغينة. أعماقه التي تبدو عارية أمام نظرات عمر، فهي لا تنفث الا أمام من يحمل لهم الحقد؟.

وانتظر محمد أن يقول أحد الأنصار شيئاً آخر وأشار الى المهاجرين أن يلزموا الصمت، فتقدم أحد الأنصار قائلاً: أما أنه قد زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأنت يا رسول الله مخرجه منها ان شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

وتقدم رجل آخر يقول: ارفق به فانه ليرى أنك قد سلبته ملكاً.

وانقض بعض الأنصار يفضحون عبد الله!.

كانوا قد شعروا بالأسف الذي ملأ قلب محمد منذ رأى عبد الله يكذب، وأحد

الأنصار يظاهره فيكذب هو الآخر! . . وكانوا في الحق قد ضاقوا بكيد عبد الله وعز عليهم ما يلقاه منه محمد وهو صابر . . ! فاستبقوا الى مواجهة عبد الله بكل ما زيفه على الناس، وبكل كيده.

وتخاذل عبد الله حتى لقد تزايل الى أغوار نفسه، ولم يعد يستطيع أن يجد ما يقوله.

شلت الكلمات على لسانه، وغاضت ابتسامته في الشحوب. . وبدأ يرتعد. انهم ـ وهم قومه ـ ليطالبون محمداً بأن ينزل به عقاب المفسدين في الأرض. .

طالب برأسه أحد سادة الخزرج، وطالب أحد سادة الأوس، وألح في طلبها كثير من شباب الأنصار! ومحمد صامت ينظر الى عبد الله الذي لم يعد قادراً على اصطناع ابتسامته المعروفة بعد!.

ثم تقدم ابن عبد الله منتفضاً بالحماس فقال لمحمد: «والله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني وأني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار» فقال محمد لابن عبد الله «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وبهت الناس:

كانت أيديهم على مقابض السيوف. كل منهم ينتظر أن يحصل على شرف قتل عبد الله بن أبي!.

واذ رأوا عفو محمد عنه بعد كل ما كان منه انقضوا على عبد الله يعنفونه.

وقال محمد لعمر: أذن بالرحيل.

وأكمل وهما يركبان: أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لغضب رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه!.

وانطلق الركب عائداً الى المدينة.

وظل محمد يسير بصحابة النهار والليل بلا راحة، عسى أن يشغلهم عما كان بينهم حول البئر وعن كيد عبد الله.

سار بهم يومهم حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، واستمر يمضي بهم يومهم ذاك

تحت شمس لافحة. حتى جاءت الليلة التالية، نزل بهم ليستريحوا قليلاً. واذ لمست أقدامهم الأرض وقعوا نياماً.

ثم أيقظ النيام، وأمر من يؤذن في الناس بالرحيل.

وبلغوا المدينة:

فتلا عليهم: «يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون».

واستلقى كل في بيته ينام كما لم ينم من قبل.

وتفقد محمد بيوت نسائه فلم يجد عائشة.. أين راحت؟ انها لم تعد مع الركب.. ودب الخوف على عائشة في كل القلوب... حذر أن تكون قد ذهبت لبعض حاجتها في تلك الليلة، فافترستها وحوش الصحراء!.

وفي الصباح التالي.. أقبل على المدينة فتى جميل اسمه صفوان يسحب جمله ويدخل المدينة بعائشة!.

ونظر عبد الله بن أبي الى من حوله وابتسم.. كان ما يزال يتحسس عنقه التي أفلتت من حد السيف منذ حين!.

وهمس عبد الله. العار!.. وإذاً فقد كانت عائشة مع صفوان!.. تخلفت عن الركب لتقضي ليلتها مع صفوان. لماذا يبتلي محمد ـ على طيبته ـ بزوجة تعشق رجلاً غيره!.

تعشق رجلاً غيره يا عبد الله؟.

أجل.. تعشق رجلاً غيره يا رجال!!.

وانطلق عبد الله بن أبي يتكلف الاشفاق على محمد، ليملأ المدينة بالطعن فيه.. عائشة غيرى، أفسد قلبها الزواج من بنت الحارث التي تفوقها جمالاً وشباباً، ولهذا رأت أن تبحث عن رجل آخر أكثر شباباً!. وهكذا وقع محمد الزوج ضحية لطيش زوجة غيور، تعبث بسمعته وشرفه وتدس على فراشه رجلاً آخر وتستنبت له وصمة عار حيث يجب أن يضع أكاليل الغار!.

وأوشك عمر حين سمع بما يشيعه عبد الله بن أبي، أن يذهب اليه فيقتله ويريح

الناس منه، وذهب الى صديقه محمد يستشيره، ولكن هما ثقيلاً كان يحني رأس محمد، فما يستطيع أن يرفع عينيه بعد في عيني أحد. . حتى أعز الأصدقاء أبي بكر وعمر! . .

ولم يعلم محمد على عائشة من سوء قبل هذا، وما عرف في صفوان الغدر.

ولكن أكان مخدوعاً طوال حياته الماضية معها؟ أيجب عليه أن يشعر بوطأة العار في نفس اليوم الذي شهد عودته الى المدينة مظفراً يحمل الى الناس بشائر المستقبل المليء بالكبرياء والأمن.

لو أن عبد الله بن أبي هو الذي يختلق الشائعة لتلقفته سيوف رجال يغضبون لمحمد، ولكان سيف ابن عبد الله هو أول هذه السيوف الثائرة.

ولكن عائشة تخلفت عن الركب ليلة، وعادت في الصباح مع صفوان بعد ليال عانت فيها من الغيرة. . هذا كله حق! .

وها هي ذي أخت زينت بنت جحش تنتقل من بيت الى بيت تتحدث عن خيانة عائشة! .

لقد سنحت الفرصة لأخت زينب! وعليها أن تنتهزها لتطرد من قلب محمد، المنافسة الوحيدة من بين كل زوجاته لأختها زينب بنت جحش! .

وحتى أقرب الناس الى عائشة يؤكد أنها خانت زوجها مع صفوان. . مسطح ربيب أبي بكر أحد المهاجرين المجاهدين، يؤكد هذا، هو الذي كان يجب عليه أن يدافع عن عائشة! .

لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه دفاعاً عنها. والشاعر حسان بن ثابت الذي تعود في الليالي السود أن يحشد كل طاقته الشعرية ويشهرها في وجه أعداء محمد. حسان بن ثابت هو الآخر يصدق ما يقال عن عائشة ويردده ويوشك أن يشهر عليها شعره! .

وعائشة لا تعرف شيئاً مما يقال عنها. . فهي في بيتها خلف الحجاب، لا يجسر أحد على أن يبلغها ما يقال في المدينة.

لقد عادت من غزوة بني المصطلق مريضة. . كانت غيرتها من بنت الحارث قد ثقلت عليها فأنهكتها.

وفي المدينة يقولون عن مرضها: عاودتها صحوة الضمير فلم تعد تحتمل حريمتها.. ومحمد يدخل عليها ويخرج ويسأل عنها ولكنه لا يجد رغبة حتى في النظر اليها..

وتشعر هي بجفائه الغريب فتسأله أن يأذن لها فتنتقل الى أمها لتمرضها، وتقيم عند أمها أسابيع فتنقه من أوجاعها وتلزمها أم مسطح التي تخدم في بيت أهلها، وتخرجان يوماً لقضاء حاجة فتتعثر أم مسطح في ثوبها فتقول «تعس مسطح» وترد عليها عائشة منكرة «بئس لعمر الله ما قلت عن رجل من المهاجرين شهد بدراً» فتقول لها أم مسطح «أوما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟».

أخبرتها أم مسطح بما يقوله عنها مسطح وابن أبي وأخت زينب بنت جحش وحسان بن ثابت، ورجال ونساء آخرون من المهاجرين والأنصار! فمضت عائشة الى أمها تبكي: «يغفر الله لك؛ تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ فقالت أمها: «أي بنية! هوني عليك! فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها وأكثر الناس».

ولم يعد في المدينة بيت واحد لا يشغله حديث عائشة وصفوان.. ومحمد يروح ويجيء بينهم مرهفاً باحساس الزوج المخدوع وهو الذي يحمل اليهم تعاليم الأمانة وتقاليد جديدة عن شرف العلاقات الانسانية!.

لكم يبدو كل هذا فادحاً ومثيراً!.

الأوس والخزرج والمهاجرون.. ثم يهود بني قريظة كلهم يتحدثون عن خيانة عائشة!..

كل هذا وقريش تستعد لمعركة تسحق بها قوات محمد.. فتخرج الوفود من قريش الى غطفان وهوازن تعقد المعاهدات والأحلاف عسى أن تستعيض قريش بالحلفاء الجدد عن بني المصطلق.

لا شيء غير الاستعداد للحرب القادمة يشغل قلوب الرجال والنساء في مكة.. حتى ليدخل الرجل الى داره فيشحذ سيفه ويأمر امرأته أن تحسن علف فرسه أو جمله لينصره يوم يلتقي الجمعان..

أما في المدينة فما من رجل، يدخل الى بيته الا سأل امرأته، «أكنت فاعلة ما فعلته عائشة؟ واذ تقول الزوجة لا والله ما كنت لأفعله، فيجيب الزوج: فعائشة خير منك وهي لا تفعله..

ولقد يجيب زوج آخر: ولكن عائشة فعلته ولست بخير منها، كم من رجل يظن بامرأته الفاحشة وأخذ المثل من عائشة!.

انها فعلتها.. انها لم تفعلها.. لئن كانت قد فعلتها فهذا الدين الجديد لم يحمل شيئاً من النور الى قلوب النساء وما ينبغي لرجل في المدينة أن يطمئن الى امرأة بعد.. وليس للرجال أن يخرجوا ويتركوا نساءهم وليس لهم أن يأخذوا النساء معهم..

ما الحيلة بعد؟.. كل شيء باطل وجنون!.

والرجال في مكة مشغولون بحديث آخر.. بالاستعداد لحملة لم يعرفها العرب من قبل تضم كل القبائل والأحزاب المعادية لمحمد، وتزحف اليه في مدينته لتهدها عليه!.. والعباس بن عبد المطلب يرسل من مكة يحذر محمداً من هذه الغزوة القادمة، فهي ليست كالغزوات التي سبقت!.

ولكن محمداً لا يستطيع أن يحدث أحداً من صحابه بما أرسله العباس.. فكلهم ـ وهو نفسه ـ يشغله حديث خيانة عائشة! وما من واحد فيهم يستطيع أن يفيق من وطأة الغاشية التي دهمتهم. وكلما هدأ الحديث حول عائشة وصفوان أثاره ابن أبي واليهود!.

ربما زحفت عليهم قريش فجأة وهم مشغولون بمناقشة شرف محمد!.

وأبو بكر كاسف لا تجف له دمعة.. وعمر حزين لا يعرف ماذا يصنع، وعلي ينصح بطلاق عائشة فالنساء غيرها كثير.. ولكن فليسأل جاريتها أولاً ان كانت تعرف عنها من سوء.

ويسأل محمد جارية عائشة فتقسم أن ليس لها ما تأخذه على عائشة الا أنها تنام أحياناً عن العجين فيأكله الدجاج.. فهي مدللة وهي بعد ما تزال صغيرة لم تبلغ العشرين!!.

ويسأل محمد زوجاته جميعاً عن عائشة وهن ضرائرها وسيجدن الفرصة سانحة للتخلص منها لو كن يعرفن عنها ما يثير الشك. .

ويبدأ بزينب بنت جحش التي تقاسمها في المنزلة عنده فتقول في عائشة خيراً. .

ما بال أخت زينت إذاً تؤكد خيانتها؟. . ويسأل الزوجات الأخريات فلا يقلن الا خيراً.

ويتجه هو الى عائشة في بيت أبيها. .

وكان لا يكلمها بل يكتفي بالسؤال عنها. . «كيف تيكم؟». وهناك يلقى عائشة بين أبيها وأمها.

ويعدل بنظراته عن صديقه أبي بكر. . لقد خاضا لحظات التجربة الحالكة معاً. . وفي الأيام الداجية من الأزمات، كان كل من الصديقين يرى في عيني أخيه شعاعاً مواسياً معزياً يعكس نور المستقبل. . ولكنهما الآن لا يستطيعان! الرأس منكس تحت ثقل المحنة، وعلى القلب جبل من الهموم.

ويقول محمد لعائشة: «ان كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي الى الله، فان الله يقبل التوبة من عباده».

وتنتظر عائشة أن يجيب عنها أبواها ولكنهما لا يستطيعان!.

وبكت وعادت تستنجد بأبيها وأمها أن يجيبا عنها زوجها فقالا لها «والله ما ندري بماذا نجيبه».

ومن خلال دموعها قالت لزوجها «والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبداً». .

والله اني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن! ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني! ولكني! سأقول كما قال أبو يوسف عليه السلام: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وانفجرت دموع أبي بكر وزوجته. . واختلط بكاؤهم جميعاً. . ما بال الحقيقة لا تبين؟!.

ما بال كل العقول لا تستطيع أن تخترق الضباب الرهيب الذي تستلقي وراءه الحقيقة مسكينة خائرة؟؟.

لئن كانت بريئة فلماذا لا تظهر البراءة ناصعة قاطعة، كما جاء الاتهام ناصعاً في وضح النهار؟!

وتأتي الرسل من جديد.. أن قريشاً نجحت في عقد الأحلاف.. وأن جيشها وجيوش الأحزاب تتأهب للخروج.

ويهود بني قريظة ينسجون اشاعات جديدة عن علاقات سابقة مع غير صفوان.. فمن يدري؟!.

لقد كشفت الصدفة وحدها فضيحة صفوان؟!.

وأقبل على المدينة وفد من بني غفار يقودهم أبو ذر الغفاري الذي عرفه محمد في مكة قديماً.. وأعلن أبو ذر أنه سيقيم في المدينة الى جوار محمد.. ولم يكد يستقر به المقام ساعة حتى سمع ما يقال عن عائشة..

وصاح أبو ذر في الذين يتحدثون عن عائشة وصفوان: «انها لمحنة جديدة يثيرها أعداء محمد ليطعنوه في عرضه أيضاً!.. لا تنشغلوا بهذا أيها الناس.. استعدوا لما تعده لكم قريش وحلفاؤها».

ولم يحفل أحد بما يقوله أبو ذر.

ولكن محمداً قرر أن يواجه بنفسه الموقف لينقذ المدينة وأهلها وسمعة دعوته من هذا الحديث الذي يشغل الناس عن الاستعداد لمواجهة الحرب القادمة..

ووقف محمد في المسجد يقول: «أيها الناس! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم الا خيراً.. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي»..

وعندما فرغ محمد من كلامه، مضى رجال يرددون ما سمعوه عن صفوان وعن عائشة..

لقد روت عائشة لكثير من الزوجات من خلال دموعها..: «قمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي. فلمست صدري فاذا عقد لي قد انقطع. فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين

كانوا يـرحلونني فاحتملوا هـودجـي فرحلوه على بعيـري الذي كنت أركب عليـه وهم يحسبون أني فيه. ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب. فيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون الي. فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني، من وراء الجيش. فأصبح عند منزلي، فرأى سواد انسان نائم، فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعـه حين عرفني فخمـرت وجهي بجلبابي. ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه. وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة».

وظل رجال يرددون حديث عائشة الذي سمعوه من زوجـاتهم مؤكدين بـراءتها، مستشهدين بأن صفوان هذا لا أرب له في النساء فقد ظل يقسم للناس. «والله ما كشفت كنف أنثى قط».

ولكن بعض الموجودين في المسجد رفضوا أن يصدقوا هـذا الحديث، وهمهم رجال من شيعة عبد الله بن أبي من الخزرج: هذا كلام لا نعقله، ان هو الا تعلات! وانتظر محمد أن يواجهه أحد الذين يخوضون في عرضه. . ولكن أحـداً لم يتكلم. . وأخيراً. . قام رجل من الأوس يقول: «ان يكونوا من الأوس نكفكهم، وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله انهم لأهل لأن نضرب أعناقهم.

واذ ذاك هب سعد بن عبادة سيد الخزرج. . حتى سعد بن عبادة الشيخ الصالح الحكيم كان يؤمن بخيانة عائشة!. . وكان يجلس في المسجـد الى جوار عبـد الله بن أبي. . وقال سعد لرجل الأوس: «كذبت لعمر الله لا نضرب أعناقهم أمـا والله ما قلت هذه المقالة الا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج. . لو كانوا من قومك ما قلت هذا».

فـرد عليـه رجـل الأوس: «كـذبت أنت لعمـر الله ولكنـك منـافق تجـادل عن المنافقين!».

وقام جماعة من الخزرج يناصرون ابن عبادة، وقام جماعة من الأوس. . وتساور الناس. . وأوشكت أن تدور بينهم معركة ومحمد يصرخ فيهم أن يهدأوا وألا يحمل واحد منهم السلاح في وجه أخيه. .

وخرج مغضباً. . والناس ما زالوا يتشاتمون بينما كانت رسل يهود بني قريظة تخرج خفية الى قريش تحمل شروط حلف جديد سري بين يهود بني قريظة وقريش.

أكثر من شهر يمر على المدينة في حديث عائشة وصفوان. .

واعتكف محمد أياماً لا يكلم أحداً ولا يكلمه أحد الا رسول عمه العباس الذي حمل اليه نبأ زحف جيوش قريش وحلفائها، وكل تفاصيل عددها وعدتها. . .

***

ولعائشة في بيتها تبكي بين أبويها. مقرحة العين، ساهدة لا تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها جفن، اذ بامرأة من الأنصار تستأذن عليها، فتجلس معها تبكي هي الأخرى!.

ودخل عليها زوجها يسألها أن تعترف وتتوب ان كانت قد ألمت بذنب وقال لها ان «العبد اذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه».

أهو أيضاً يشك فيها، ويصدق ما أشاعه عنها ابن أبي واليهود!؟

ولكنها ظلت تبكي حتى لتظن أن البكاء فالق كبدها. . وعادت تقول: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وظلت تمني النفس وتدعو الله أن يرى فيها زوجها رؤيا تبرئها. ولكن زوجها ما رام محله، ولا خرج أحد من أهل البيت، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، وهو يستقبل القرآن حتى أنه لينحدر منه العرق مثل الجمان وهو في يوم شات. .

وبعد قليل ذهبت البرحاء عنه، فضحك لأول مرة منذ أيام طويلة ونظر اليها قائلاً: «يا عائشة أما الله فقد برأك».

فقالت لها أمها: «قومي اليه» فقالت عائشة: «لا أقوم اليه» وطلب منها أبوها أن تخف الى زوجها فتشكره ولكنها ردت عليه من خلال دموعها: «لا أنت ولا صاحبك. فاني لا أحمد الا الله عز وجل». .

وخرج محمد الى الناس يتلو عليهم: «ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً

وقالوا هذا افك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فالئك عند الله هي الكاذبون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون..».

«ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم..».

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، حتى اذا أفاض مسطح في الحديث ضد عائشة مع من أفاض، امتنع أبو بكر عن الانفاق عنه.. ولكنه سمع محمداً يتلو: «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم»..

فقال أبو بكر: «بلى، والله! اني لأحب أن يغفر الله لي».

فرجع الى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: «والله لا أنزعها منه أبداً»..

أما عائشة، فلم تكد تسمع هذه الآيات من القرآن حتى بكت من الفرح.. وأخذت تقول: «والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى.. لشأني في نفسي كان أحقر علي من أن يتكلم الله في بأمر!».

وأما الذين أفاضوا في القول ضد عائشة وصفوان فقد تخاذلوا من الندم الى أغوارهم، وأسرعوا الى محمد يعلنون التوبة معتذرين عما كان منهم، الا عبد الله بن أبي..

وأنشأ حسان بن ثابت قصيدة يمدح فيها فضائل عائشة..

على أن محمداً طالبهم بأن يكفوا عن الاعتذار..

انه ليعفو عن كل طعنة في عرضه..

وما ينبغي لهم أن يشغلوا الآن بغير الاستعداد لمواجهة قريش والأحزاب..

٢١

لم ينس بنو النضير هزيمتهم أبداً.

كانوا يضربون في التيه وعيونهم تتطلع الى ما وراء الأفق، حيث تستلقي ـ في سلام ـ المدينة التي سادوها لبعض الوقت وكدسوا فيها الثروات من الربا، وأنشأوا حولها البساتين وملأوها ببيوت المتاع والصخب والاضطرام واختاروا رجلاً من أهلها استعدوا لتتويجه.. ثم أقبل محمد، فلم يعد في المدينة ربا، ولم يعد لهم عبيد يعملون في البساتين، ولا متاع بعد ولا صخب ولا اضطرام!..

لم يتخلوا أبداً عن أحلامهم بالعودة الى المدينة ليقيموا فيها أسواقهم كما كانت من قبل، وليكسبوا من الربا أضعافاً مضاعفة، وليفتحوا بيوت اللهو القديمة العامرة بالقمار والخمر واليهوديات الحسان.. وليتوجوا عليهم عبد الله بن أبي بن سلول!.

وانطلقوا مع فلول يهود بني قينقاع: الأحقاد في الصدر وأحلام السيطرة تملأ الرؤوس، فطافوا بكثير من القبائل يعقدون معها المحالفات حتى قدموا مكة على قريش فعاهدوهم أن يكونوا جميعاً على محمد حتى يستأصلوه..

كانت مكة تستعد، وجاءها اليهود يستحثونها وقد رصد أغنياؤهم للحرب كثيراً من المال، وجمعوا من هنا وهناك كل ما استطاعوا لتمويل حملة تدرك المدينة..

وتحرك جيش لم تعرف مثله الجزيرة العربية من قبل.. جيش يضم فرسان تهامة وكنانة والمقاتلين الأشداء من نجد وأبرع رماة اليهود وجنود قريش بعبيدها المدربين القساة، وأحابيشها الذين يتقنون اطلاق الرمح فجأة، وخيلها وأشدائها وساداتها وجواريها

المغنيات، وسقاتها ومجانها، ونسائها الفاتنات يحرضن الرجال على القتال.

زحف هذا الجيش الهائل تحت قيادة أبي سفيان رئيس حكومة قريش، وتلقى محمد رسالة من عمه العباس بن عبد المطلب يشرح له فيها كل شيء..

وأدرك محمد أنه لن يجد الوقت ليحشد جيشاً يواجه به الأحزاب مجتمعة في معركة مفتوحة في العراء.. ولئن وجد الوقت فلن يجد العدد الكافي أبداً.. لقد واجه بثلاثمائة رجل ألفاً من رجال قريش في بدر وهزمهم.. وحشد كل طاقته في أحد فجمع نحو ألف رجل انسحب منهم ثلاثمائة ولكنه أوشك بالسبعمائة الباقين أن يقهر نحو أربعة آلاف في أحد لولا العصيان!.

ولكن الفرق بين القوتين الآن رهيب.. فهو مهما يحشد من مهاجرين وأنصار ومن حلفاء فلن يستطيع أن يحشد أكثر من ثلاثة آلاف بلا خيول.. فكيف يواجه بهم آلافاً مؤلفة معهم أحدث الأسلحة التي تصنعها اليهود وفيهم مئات الفرسان..

لقد ظلت قريش تستعد، واليهود يؤلبون القبائل ويحزبون الأحزاب. بينما شغلت المدينة بالطعن في عرضه، وظل رجالها ـ حتى الأصدقاء ـ يناقشون الأيام والليالي، حكاية عائشة وصفوان!

النذم لا يستطيع أن يعوضهم عن الأيام الضائعة المهدرة..

لا بد من عمل حاسم لمواجهة زحف الأحزاب..

واستشار محمد كما تعود.. فأشار عليه أحد المسلمين أن يخرج اليهم بجيشه وسينصرهم الله كما نصرهم في بدر!

وأشار آخرون أن يعتصموا في المدينة ليدافعوا عنها.. وليحاربوا في كل شارع، وفي كل درب، وفي كل بيت، فلا يستولي المهاجمون على شبر من الأرض الا على رفات شهيد!.

ورأى محمد أن الخروج من المدينة مخاطرة.. فمن يدري ماذا يمكن أن يصنعه عبد الله بن أبي..

ما زالت له شيعة! ومحمد لا يريد الآن أن يضربه.. انه ليتظاهر بالتوبة عما نهش به عرض محمد..

وهو صامت مستكين! مريب في سكونه!.. انه ليمعن في اظهار خجله وندمه على ما قاله في عائشة، حتى لقد اعتزل الناس والمسجد ولم يعد يخرج.

وفي ضواحي المدينة ايضاً يقيم يهود بني قريظة.. ولا أمان لهم، فما هم بخير من يهود بني قينقاع أو يهود بني النضير..

انهم لن يخرجوا معه الى قتال العدو الزاحف، اذا قرر الخروج، وما يدري بعد الى أي مدى يمكن أن يذهبوا، فقد ينتهزون فرصة خروج كل المقاتلين المسلمين، ليدبروا انقلاباً في المدينة، أو ليحالفوا عبد الله بن أبي ويجعلوا منه ملكاً، ويقيموا لهم دولة، فيعود محمد بعد الحرب، ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلها دولة الأعداء..

ومع ذلك فلئن أقام في المدينة وانهزم عنها بعض المحاربين، لدخل رجال الأحزاب مدينته الخضراء يقتلون الأطفال ويخربون الدور ويحرقون البساتين ويسبون النساء..

ستكون مذبحة يدفع ثمنها الضعفاء..

ما هذا برأي.. يجب ألا يعتصموا بالمدينة!..

وظل محمد يفكر في خطة يدفع بها الوبال الزاحف.. والوقت يمضي..

ولكم أشار عليه الرجال.. ولكنه كان يجد في كل خطة ثغرة!.

وأخيراً تقدم سلمان الفارسي برأي.

تذكر سلمان كيف كان القادة العظام يدافعون عن المدن الفارسية أمام غارات الروم.. واقترح أن يتبع المسلمون نفس الاسلوب: أن يخرج كل الجيش الى ظاهر المدينة. ويتحصن وراء خندق!.

خندق؟ وما هو هذا الخندق يا سلمان!.

فليحفروا أمام الأسوار: خندقاً واسعاً عميقاً، يقفون خلفه فاذا اقترب العدو من هذا الخندق برزوا اليه واستفزوه ليتقدم أيضاً وان هي الا خطوة حتى تسقط صفوف العدو في هذا الخندق اذا حاولت اجتيازه! وستحاول لأن كبرياء الغازي تمنعه في الغالب من التقهقر أمام حفرة من الأرض!.

تحمس محمد للفكرة.. وتحمس لها كثير من المسلمين..

ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . .

وقال بعض الأنصار: «سلمان منا»، فقال بعض المهاجرين «سلمان منا». واتجهت نظرات سلمان الى محمد فقال باعتزاز: «سلمان منا أهل البيت!».

ووضع محمد الخطة . .

أن يحفروا الخندق. وأن يقف الرماة المسلمون على الأسوار . . والمقاتلون الآخرون على حافة الخندق مستندين الى أسوار المدينة . .

وأذن محمد في المسلمين أن يبدأوا في حفر الخندق . .

ورفع هو أول فأس فضرب بها الأرض الصلبة . . ورفع الصخر بيديه ومن حوله المسلمون يعملون في حماس خارق، يلهبه سلمان بما يروي لهم عما صنعته الخنادق بالقوات الزاحفة مهما يكن تفوقها في العدد . .

ولكن همهمة سرت في المدينة . . وما جدوى الخندق! . . لماذا يجهد الناس في هذا العمل، حتى اذا أقبل العدو وجدهم متعبين مجهدين؟ . . لماذا لا يحتفظ كل رجل بعافيته، ويعتصم في بيته، ليدافع عن أهله ان هجم العدو! . . ما جدوى الخندق الا أنه مجهود يبذل بلا طائل فأسوار المدينة العالية كفيلة برد العدوان! .

وكان عبد الله بن أبي وراء هذه الهمهمة . .

وتراخت بعض السواعد . . وبدأ بعض الرجال ينسحبون من العمل فجأة ويتسللون الى أهليهم بغير علمه .

وأصدر محمد أمره ألا ينسحب أحد من العمل حتى يستأذنه . .

وحذر الذين يخالفون أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . .

وعاد الذين تأثروا بأقوال عبد الله بن أبي يعتذرون بالضعف . . انهم لم يتعودوا العمل بأيديهم من قبل، فقد كان لهم عبيد يعملون عنهم في الأرض! .

ونصح محمد لأصحاب الأيدي الناعمة أن يعفروا أيديهم بالتراب في حفر الخندق، لأن هذا العمل نوع من الجهاد، له أجر الجهاد.

على أنه لم يشأ أن ينـزل العقاب بمن صمم على التخلف متعللاً بـالضعف أو المرض أو العجز عن حمل الفأس وضرب الصخر. .

كانت أيدي نحو ثلاثة آلاف رجل ما زالت ترفع الفؤوس وتهوي على الصخور. . ورؤوس مئات النساء تحمل التراب إلى بعيد.

وما يضيره أن يعتزل عشرات من الرجال، مستعلين، منبوذين؟!

ان في استخفاف اخوانهم بهم لعقاباً كافياً. .

ولكي تتماسك الصفوف، أمر محمد الذين تخلفوا عن حفر الخنـدق أن يلزموا دورهم. . ما دام الضعف أو المرض أو العجز هو الذي منعهم عن العمل.

ليس لمحمد أن يحاسبهم على نواياهم، فهذا ليس من شأنه.

فليأخذهم بظاهر ما يدعون!. .

فليستريحوا في البيوت ولا جناح عليهم، ان كان المرض حقاً هو ما منعهم عن الاشتراك في حفر الخندق، والا. . فليكن في حرمانهم من شرف المعركة وأجر الجهاد والغنائم، عقاب على تعللاتهم ان كانوا يكذبون!

وانتهى حفر الخندق على أية حال. وأقبلت قريش في عشرة آلاف من الأحابيش وآلاف أخرى من رجالها. . ثم أقبلت آلاف من تهامة وكنانة وآلاف من محاربي نجد الأشداء يتصدرهم شجعان غطفان. .

وعسكرت جيوش من الأحزاب على تلال مرتفعة تواجه المدينة.

وعسكر محمد بجيشه أمام الأسوار، والخندق بينه وبين الأحزاب. .

وأقبل الليل. . ولم يلتق الجمعان. .

وتسلل حيي بن أخطب سيد بني النضير المطرود الى يهود بني قريظة المعتصمين خلف أسوارهم الخاصة في ضواحي المدينة. . بعيداً عن الخندق وعما يصنع الجمعان!

وانهم على الرغم مما تلزمهم به صحيفة التحالف مع محمد، قد قرروا أن يقفوا على الحياد في المعركة، وألا يحاربوا الا الذين يهاجمونهم هم أنفسهم في معاقلهم.

وخف كعب بن أسد سيد بني قريظة لاستقبال حيي بن أخطب النضيري. .

وقال له حيي:

ـ جئتك بعز الدهر وببحر طام . . جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه!!

وما زال به حيي يغريه أن يخطو في الموقف ضد محمد خطوة أخرى بعد الامتناع عن مساعدته في مقاومة الغزو بدعوى الحياد!.

ولكن كعب بن أسد خائف!

فلئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، لينتقمن محمد من بني قريظة.

وقال كعب:

ـ دعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقاً ووفاء!.

غير أن حيي بن أخطب، طل يغريه بغنى الأيام القادمة ان هم استأصلوا محمداً ومن معه.

ثم وعد بني قريظة بنصف خيرات المدينة ان هم انضموا الى الأحزاب، فاستولوا عليها جميعاً. . وأعطاهم ابن أخطب عهده وميثاقه أن يدخل معهم حصونهم فيصيبه ما يصيبهم من انتقام محمد ان فشلت الأحزاب!.

وما زال حيي بن أخطب حتى أعلن كعب بن أسد سيد بني قريظة أنه يبرأ من صحيفة التحالف مع محمد، وينضم الى الأحزاب!.

وروع محمد عندما انتهى اليه الخبر!. . انه ليواجه الأحزاب مجتمعين أمام هذا الخندق، فكيف يقوى على حربهم وفي ظهره قوات بني قريظة!؟.

ودعا اليه سعد بن معاذ سيد الأوس، وهم حلفاؤهم وحماتهم القدامى وسعد ابن عبادة سيد الخزرج، وبعض أصدقائهم من سادات المدينة، وأوصاهم محمد أن ينطلقوا، حتى ينظروا أحق ما بلغه عن بني قريظة أم لا!.

فان كان بنو قريظة على الوفاء لما كان فليجهروا به للناس، وان كان حقاً ما بلغه، فليلحنوا له لحناً يعرفه حتى لا يفت الخبر في أعضاد الناس!.

وخرج مندوبو محمد حتى جاءوا بني قريظة في حصونهم وتقدم اليهم سعد بن معاذ حليفهم وحاميهم القديم فسألهم عما بلغ محمداً فقالوا له:

ـ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!.

وحاول سعد بن معاذ أن يقنعهم بفساد ما قرروه، واستحلفهم بكل الصداقات القديمة وبحقوق الولاء ألا يخذلوه في موقف نكد كهذا.

ولكنه وجدهم على أخبث مما يحسب. . فاحتد عليهم وشاتمهم فشاتموه.
فانصرف مغضباً مع صحبه، وسعد بن عبادة يقول له:
«دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة!».

وعادوا جميعاً الى محمد فلحنوا اليه لحناً يدل على أن بني قريظة قد غدروا به. .
وأدرك محمد الاشارة. .

واقترح عليه سعد بن معاذ أن يتجهوا الى بني قريظة فيبيدوهم في حصونهم قبل أن يتمكنوا من طعن ظهور المسلمين وليبق الرماة على الأسوار يرمون رجال الأحزاب بالنبال اذا اقتربوا والخندق بعد ذلك كفيل باقتناصهم. !

ولكن محمداً رفض الخطة، وصمم على أن يظل الجيش بكل عدته لمواجهة الأحزاب. على أن يحمل جناح منه مسؤولية المعركة مع بني قريظة ان هم تركوا حصونهم وزحفوا ليفاجئوا المسلمين من الظهر ابان المعركة!.

وتقدمت جيوش الأحزاب حتى اقتربت من حافة الخندق فانقض الآلاف من حملة النبال يوجهون سهامهم الى المسلمين دفعة واحدة!.
كانوا متفوقين في العدد على نحو رهيب!.

ولم يستطع الرماة المسلمون أن يثبتوا لهم على أسوار المدينة فأمرهم محمد أن يتحصنوا وراء الأسوار بدلاً من اعتلائها، وأن يواصلوا جهدهم ضرب جيوش الأحزاب بالنبال.

على أن اندفاع جيش الأحزاب في موجات هائلة تحاصر أسوار المدينة ألقى الرعب في قلب كثير من المسلمين.

انهم وهم ثلاثة آلاف رجل يكادون أن يختفوا أمام طوفان الجيوش الزاحفة بعشرات الآلاف في خيلها وعدتها وابلها المدربة على القتال.

وخشي المسلمون أن ينتهز بنو قريظة الفرصة فيحاصروهم من ظهورهم. . أو يهاجموا الدور الخالية من الرجال في الضواحي!.

وارتفع صوت من معسكر المسلمين:

ـ كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط!.

وارتفع صوت آخر:

ـ ان بيوتنا عورة فليأذن لنا أن نخرج فنرجع الى دورنا فانها خارج المدينة، وارتفع صوت آخر حاسم: «انهم لينافقون فأذن لنا أن نقطع رقابهم».

ولكن محمداً لم يحب أن يستكره أحداً على القتال. . فما جدوى أن يخوض المعركة بجنود كارهين. .

وأدرك أن الخوف يسيطر على بعض القلوب. . فأذن لمن يريد أن يعود الى بيته فهذا أن يعود خير من أن يبقى في الصفوف ليشيع الانهزام. .

وليثبت في الصفوف من يجد في نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة في الاستشهاد دفاعاً عما يؤمن به!.

وهمهم لنفسه وهو يتقدم الصفوف «عفا الله عنك لم أذنت لهم!»

ولكنه عاد فرأى الخير في تخليص صفوفه من العناصر الخائرة.

ثم أخذ يتلو عليهم: «واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فراراً. . قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلاً، قل من ذا الذي يعصمكم من الله أن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا. قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون اليأس الا قليلاً». .

وجمع قواده يستشيرهم وقد اشتد البلاء. .

فلقد يرى أن يعمل على تمزيق وحدة الأحزاب، والحرب خدعة!.

فليعرض صلحاً منفرداً على نجد: أن يعودوا ولهم ثلث ثمرات المدينة!..

لقد رحبت نجد بقيادة غطفان بهذا العرض.. ولم يبق الا أن يوقعه محمد..

وجمع الناس ليتفقوا جميعاً على رأي.. وشرح لهم ما اقترحه على أهل نجد، ورحب الناس بهذا الحل، فلئن عاد أهل نجد وانسلخوا عن الجيوش الغازية ففي طاقة جيش المسلمين أن يثبت للباقين على تفوقهم العددي!.

ولكن سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج تقدما من محمد مغضبين فسألاه:

يا رسول الله أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟.

فأجابهما محمد:

«بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما».

فقال سعد بن معاذ: ان أهل نجد لم يكونوا يأكلون ثمرة واحدة من ثمار المدينة الا بيعا أو ضيافة، فكيف يعطونهم أموالهم؟

ثلث ثمار المدينة! لا..!!

ثم قال سعد: «والله لا نعطيهم الا السيف».

وتناول سعد صحيفة مشروع الاتفاق فمحا ما فيها قائلاً: «لا ليجهدوا علينا».

واستعد أهل نجد للمعركة الى جوار الأحزاب.. واستعدت كل الأحزاب.

وتقدمت جموع الفرسان تبحث عن مكان ضيق من الخندق لتعبر منه.

وبعد بحث طويل وجدوا مكاناً تستطيع أن تعبره الخيل.. وضربوا خيلهم فاقتحمت منه، واكتشف علي بن أبي طالب أن الفرسان يعبرون الخندق من مكان ضيق فيه، فقاد جماعة من جيش المسلمين ليمنعوا الفرسان من عبور الخندق.

كان المكان لا يسمح الا بعبور حصان واحد ولكن علياً أدرك أنهم ان تركوا المكان بغير حراسة لعبر منه مئات الفرسان: الواحد بعد الآخر..

وكان يقود الجماعة التي عبرت الخندق فارس العلم من قريش اسمه عمرو بن عبدود. . فتصدى له علي ودعاه الى المبارزة فقال له عمرو:

«لم يا ابن أخي أبي طالب. . ما أحب أن أقتلك».

فتقدم منه علي صائحاً: «لكني والله أحب أن أقتلك». .

وبارزه علي، فقتله. .

ثم قاد جماعة المسلمين يقاتلون الذين عبروا الخندق، حتى أجلوهم وخرجت خيلهم منهزمة تقتحم من الخندق هاربة. .

ان علياً ليصنع كما صنع حمزة يوم بدر. .

وتذكر المسلمون يوم بدر وانتصارهم الرائع هناك بمثل هذه الأعمال الفدائية الخارقة. .

لتعاودهم تلك القوة الداخلية الخارقة التي كفلت لهم النصر!.

ولم تعد جيوش الأحزاب تفكر في عبور الخندق. . ولبثت في معسكرها دون الخندق يفكرون في طريقة أخرى لهجوم مكتسح. .

وقرر أبو سفيان قائد الأحزاب أن يصبوا سهامهم على جيوش محمد بلا انقطاع، حتى اذا ما نالوا منهم، اجتازت الأحزاب المكان الضيق من الخندق رجلاً بعد رجل. . وردموه من أنحاء متفرقة ليعبره الآخرون. .

فليوجهوا سهامهم الى الأبطال من المهاجرين والى سادة المدينة فاذا سقطوا يتخاذل الآخرون!

وكان محمد قد أمرهم ألا يبرزوا الا وهم في دروعهم السابغة التي غنموها من بني النضير وبني قينقاع وبني المصطلق.

ولكن سعد بن معاذ برز في درع قصيرة بلا ذراعين. . وما إن ظهر أمام الرماة حتى أصابه سهم في ذراعه. .

وأمر محمد بأن يحمل الى المدينة لتعالجه امرأة هناك تحذق الطب. .

وجاء الليل من جديد وقريش تفكر في طريقة تعبر بها الخندق. . والمسلمون يتناوبون حراسة المكان الضيق منه.

وفي احدى الليالي تسلل أحد فرسان قريش ومن ورائه صف طويل من الفرسان ليقتحم من المكـان الضيق. . ولكن حصانـه سقط في الخندق. . وتبعـه آخـر فسقط وانهالت الحجارة من فوقهم. .

وصاح الآخرون وكان يقودهم عكرمة بن أبي جهل: ان المكان الضيق لم يعـد صالحاً للعبور بعد، فقد حفره أصحاب محمد من جديد تحت جنح الظلام!

وأمر علي رجالـه أن يسددوا سهـامهم على الأصوات. . وسـدد هو سهمـه الى عكرمة بن أبي جهل فأصابه. .

وشعرت قريش أنه لا سبيل الى اقتحام الخندق. .

وأنه يجب عليهم أن يستفزوا المسلمين ليعبروه الى قتال مكشوف من الخلاء. .

وأرسل أبو سفيان الى محمد يتهمه بالجبن لأنه يكيد مكيدة ما كانت تعرفها العرب ويحتمي وراء الخندق. فليخرج اليهم في الساحة ان كان شجاعاً!!.

وابتسم محمد وأرسل رده على أبي سفيان. . انه سيخرج اليهم في يوم قـريب ليحطم أصنام قريش!

وأذن محمد في رجاله أن يثبتوا وأن يصبروا. . فوراءهم المدينة بالطعـام والماء والامدادات. . أما الأحزاب فهم في العراء، وبينهم وبين مراكز الزاد سفر طويل فلن يقووا طويلاً على البقاء! فليصبر عليهم المسلمون لبعض الوقت حتى اذا أنهكهم نقص الطعام والماء. . وعلم أنهم أرسلوا في طلب المدد. . خـرج عليهم فهاجمهم. . في الوقت الذي يختاره هو للقتال. !

ليصبر المسلمون. . فالصبر هو أقوى الأسلحة!.

٢٢

ما جدوى الآلاف المؤلفة من الجنود الأشداء اذا كانوا لا يستطيعون عبور هذا الخندق ليأخذوا جيش محمد من كل جانب!؟..

بم يمتازون اذا كان عليهم أن يواجهوا جنود محمد رجلاً لرجل!؟.. ان هؤلاء الآلاف الثلاثة الذين حشدهم محمد أمام أسوار المدينة ليطلبون المبارزة.. وعلى جيوش الأحزاب إذاً أن تخرج لهم ثلاثة آلاف من شجعانها، ربما قتلوا جميعاً في هذه المبارزات وانسحب الباقون في استخذاء!..

وشاع السأم في جنود الأحزاب ودب الملل الى القلوب من طول الحصار، وبدأ الزاد ينفد. وجيش المدينة لا يبالي، فمن ورائهم خلف الأسوار، تقع مدينتهم بكل خيراتها..

وتمنت غطفان لو أنها وصلت في مفاوضتها مع محمد الى حل يرضيه ثم انسحبت!.

وحتى بنو سليم الذين أقبلوا على جيادهم تدفعهم الرغبة في الانتقام من الهزيمة القديمة.. حتى بنو سليم فكروا في الانسحاب منذ رأوا الطعام ينفد، وخيولهم تهزل من قلة الكلأ!.

لقد أحسن محمد رسم الخطة لمواجهة جيوش الأحزاب، فاجتث كل النبات والثمرات وكل ما هو أخضر من الأماكن التي توقع أن يعسكروا فيها ووضع على القوات المهاجمة عبئاً جديداً: أن تدبر الطعام والمرعى لجندها وخيلها..

وبنو قريظة لا يهاجمون بعد . . ! انهم ينتظرون فرصة الهجوم الشامل . !

وأبو سفيان حائر لا يستطيع أن يصبر على الحصار، فهو لا يفتأ يستفز المسلمين ليتركوا مواقعهم وراء الخندق، ويخوضوا معركة في العراء المكشوف أمام قوات الأحزاب . . كما حدث في أحد! .

ويشعر أبو سفيان بما يصنعه السأم في معنويات حلفائه . . ويخشى أن يفاجئوه بالانسحاب، فيضطر هو نفسه الى الانسحاب بقواته! .

لن يغفر محمد لهم هذه المحاولة الفاشلة، وسيقطع على قريش طريق التجارة الى الشام! .

وطاف في ذهن أبي سفيان ـ لبعض الوقت ـ أن يعرض على محمد صلحاً معقولاً يسمح لقريش بأن تنسحب لا منهزمة عن المدينة ـ بل عافية عنها ـ على أن يتعهد محمد ألا يتعرض لتجارة قريش .

ولكن أبا سفيان، خشي أن يستشير حلفاءه فينهار كل شيء . ويستبق قادة الأحزاب المتحالفة الى محمد يقدمون له الطاعة ويحالفونه ضد قريش! .

وأدرك محمد كل ما يصف بمعسكر الحلفاء، فناشد جنوده كثيراً من الصبر أيضاً . . فالصبر هو الذي سيحمل له النصر في النهاية! .

واجتمع رجال الأحزاب يتشاورون . . من الواضح أن الانتظار ليس في مصلحتهم! . .

انهم ليشعرون بالحاجة الى الطعام يوماً بعد يوم . . والخيل تهلك في بحثها المضني عن الأعواد الخضراء . .

لقد أدركوا الآن أن محمداً بنى خطته العسكرية على الصبر والانتصار، وأنه لن يدفع بقواته القليلة الى الاشتباك في معركة مفتوحة مع جيوش الأحزاب الضخمة .

فليحاولوا اقتحام الخندق إذاً رجلاً بعد رجل، وليحاربوا جيش محمد رجلاً لرجل!

هذا هو الحل . . ولكن من من الأحزاب يبدأ . .

لتقدم قريش صناديدها.

ولكن لماذا لا تقدم غطفان رجالها؟. وبنو سليم لماذا لا يتقدمون هم أولاً!..

وبينما هم يتنافشون والخلاف يوشك أن يحتدم بينهم اذ برجال محمد يخرجون اليهم من وراء الخندق ينادونهم الى طريق سواء: أن يؤمنوا بالدين الجديد ولينسحبوا آمنين!.

وشعر أبو سفيان بالاهانة!..

حتى في هذه اللحظات التي تغمر محمداً بطوفان من قوى الأعداء يدعو الناس الى دينه الجديد، في ثقة مطمئنة بالنصر؟.

أتسمح له هذه الثقة بأن يؤمنهم على حياتهم ـ كما لو كانوا أسراه ـ ان هم آمنوا بما يدعو اليه!..

ورد أبو سفيان دعوة محمد.. واتهمه مرة أخرى بالجبن..

وتحداه أن يبرز بقواته من وراء الخندق ليشتبك مع قوى الأحزاب! في السهل كما حدث في أحد..!

ولكن محمداً لم يكف عن توجيه الدعوة الى رجال الأحزاب أن يؤمنوا بالعقيدة الجديدة وأن يجعلوا تعاليمها هي أسس التعامل فيما بينهم..

فليعلنوا ايمانهم مخلصين، وليعودوا الى أهلهم في سلام!..

ووجه نفس الدعوة الى بني قريظة الذين اعتصموا في حصونهم منتظرين الفرصة المناسبة للانقضاض.

ولم يلق محمد أي رد على دعوته الا الزراية والاستخفاف ثم التعريض بهزيمته في أحد ثم النذير باستئصاله وابادته هو ومن معه جميعاً.

وانطلق قادة اليهود يجددون وعودهم لرجال الأحزاب، أن يتركوا لهم أموال المدينة ان هي سقطت.. وأن يعطوهم مزيداً من المال.. وهمسوا لقادة غطفان الذين أرهقهم الانتظار. أن يصبروا وأن يحاولوا احداث معبر في الخندق يقحمون منه الخيل،

وينقضـــون على المسلمين.. ولهم اذا نجحـوا نصف ثمـار واحـة خيبـر.. الغنيـة بالثمرات!!.

ولكن بني غطفان كانوا قد تأكدوا أنه لا سبيل الى اقتحام الخندق.. فعلي بن أبي طالب يقف من ورائه على رأس فرقته دون المدينة، يصرع من يحاول اقتحامه، كما وقف عمه حمزة دون الماء في بدر!!..

ومن الواضح أن محمداً وجنوده قد أقبلوا في هذه المعركة بنفس الروح التي أقبلوا بها في بدر؟.

ومع ذلك من أجل أية مكاسب، يتعرض قادة بني غطفان لكل هذا الخطر؟.

انهم لم يفكروا أبداً في أن يناقشوا دعوة محمد.

لقد حاولوا أن يفاوضوه على الانسحاب في مقابل ثلث ثمرات المدينـة فوافق، ولكن قادة الأوس والخزرج لم يطب لهم هذا الاتفاق.. فلماذا لا يفاوضونه من جديد على شروط يقبلها زعماء المدينة!؟.

وتسلل نعيم بن مسعود، زعيم بني غطفان الى محمد..

لم يقبل هذه المرة مفاوضاً، ولكنه أقبل يعلن اقتناعه بفساد هذه الحرب، وبرغبته في الانسحاب بلا شروط، لأنه بعد تفكير طويل قد آمن بدعوة محمد!

ونعيم رجل واسع الدهاء..

وخشي بعض أصحاب محمد أن يكون نعيم قد أقبل بحيلة أو مكيدة فنصحـوا بالتريث معه للاستيثاق منه!.

ولكن بأية حيلة أو مكيدة يمكن أن يقبل نعيم وحده على معسكر المسلمين؟!.

لقد استوثق محمد من صدقه على أية حال فاطمأن اليه..

وقال نعيم:

ـ يا رسول الله ان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت. فقال له الرسول: انما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا فان الحرب خدعة.

ومضى نعيم بكل دهائه الى بني قريظة قائلاً: «قد عرفتم ودي».

فأجابوه: «لست عندنا بمتهم».

فقال لهم مصطنعاً العطف عليهم:

ان قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فان البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم، وان قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فأموالهم ونساؤهم في بلادهم فان ضاقوا بالمقام هنا لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونوا بأيديكم حتى لا يغدروا بكم وينسحبوا!

ثم مضى الى قريش والى قومه غطفان فقال لهم:

انه قد بلغني أمر فاكتموه عني..

وأخذ يقنعهم أن يهود بني قريظة قد ندموا على موقفهم من محمد فأرسلوا ليصالحوه، على أن سلموه رؤوس أشراف قريش وغطفان..

ثم أكمل:

فان بعث اليكم بنو يهود يلتمسون رهناً منكم من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً.

فلما أصبح الصباح.. أرسل أبو سفيان الى بني قريظة يطالبهم بأن يبدأوا الهجوم على محمد... فردوا عليه قائلين:

لسنا بالذين يقاتلون معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فاننا نخشى ان اشتد عليكم القتال أن تنسحبوا من المعركة الى بلادكم، والرجل في بلدنا لا طاقة لنا بذلك منه..

وتأكد عند غطفان وقريش ما قاله نعيم!.

فردوا على بني قريظة أنهم لن يرسلوا اليهم رجلاً واحداً..

واذ تلقى بنو قريظة هذا الرد تأكد عندهم أن حلفاءهم يريدون أن يخذلوهم فينسحبوا اذا اشتد القتال.. تماماً كما قال نعيم!

وهكذا تفرق الحلفاء.. بدأت قريظة تخشى من انسحاب الأحزاب.. وبدأ قادة الأحزاب يخافون غدر بني قريظة.. والطعام ينفد ولا مرعى للخيل.. والعاصفة تتجمع في الأفق وتقترب نذرها!

وهبت الريح العاتية فجأة فاعتصم المسلمون منها وراء أسوار المدينة ولكنها دكت معسكر الأحزاب. اقتلعت كثيراً من الخيام وقلبت كل شيء.

والسأم يبلغ أوجه!!

ووقف أبو سفيان يصرخ وعواء الريح يغمر صوته:

ـ يا معشر قريش، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام! لقد هلك الخيل والابل وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فاني مرتحل..

وقام الى جمله فركبه.

انسحبت قريش.. وانسحبت وراءها غطفان.. والأحزاب.

والريح تثير من ورائهم الرمال، وتحجبهم عن العيون، وهم يضربون في الصحراء: الرؤوس منكسة والأجسام تنحني تحت وطأة الاحساس العقيم بالخيبة!

وارتفعت من معسكر المسلمين صرخات النصر.

ووقف محمد ينظر الى وجوه الناس من حوله وهو لا يكاد يصدق نفسه! كيف نجت المدينة من هذا الحصار؟

كيف انهزم أمامها كل هذا الحشد من أقوى الفرسان والمحاربين في الجزيرة العربية.

لن يغلبوه بعد يومهم هذا أبداً.. لن يقووا على أن يجمعوا مثل هذا العدد مرة أخرى!

إذاً فقد نجا بدعوته وصحابه. وانها لهيبة جديدة تلك التي تنتظره منذ اليوم.. ووقف يقول:

ـ الحمد لله.. نصر عبده وأيد جنده وهزم الأحزاب وحده. لن تغزوكم قريش أبداً، بل تغزونهم أنتم وتدخلون مكة وتحطمون أصنام الكعبة!

وتهيأ المسلمون للعودة الى دورهم في المدينة تهز أعطافهم كبرياء النصر فوضعوا السلاح وانصرفوا.. ولكنهم تهامسوا فيما بينهم وهم ينصرفون:

«وبنو قريظة؟!».

وناداهم محمد ألا يعودوا الى ديارهم حتى ينزلوا الهزيمة ببني قريظة!

لقد ذهب الحلفاء عن بني قريظة فليواجهوا الآن مصيرهم!

وتقدم علي بن أبي طالب يقود فرقته الى حصون بني قريظة وأقسم أن يقتحم عليهم أسوارهم أو يلقى دون هذه الأسوار ميتة كميتة عمه حمزة!

واعتصم بنو قريظة في حصونهم فلم يخرجوا للقتال.. وضرب المسلمون عليهم الحصار..

وذات ليلة سمع المسلمون رجلاً يصرخ من وراء الأسوار في قومه اليهود. «أنا قلت لكم لا أغدر بمحمد أبداً».

وعرفوا صوته.. انه عمر بن سعد القريظي!

ورأوه يتسلل من الأسوار بعد قليل فتركوه يهرب.

ومضى الرجل يضرب في الصحراء المترامية تحت الظلمات ولم يدر أحد أبداً أين توجه من الأرض.

وفي الصباح ذكروا حكايته لمحمد فقال:

«وذاك رجل نجاه الله بوفاته».

ولم ترتفع صيحة احتجاج أخرى من بني قريظة.

كانوا كلهم قد أجمعوا أمرهم على حرب محمد.

واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً:. فأرسلوا الى محمد أن يفك عنهم الحصار وسيرحلون كما رحل من سبقهم من اليهود.

ورد عليهم محمد: ان لهم لشأناً آخر وان ما صنعوه به ليس كغدر من خرجوا من يهود المدينة فليستسلموا اذا شاؤوا بلا شروط، والا فهي الحرب حتى يستأصلوه كما دبروا هم أو يستأصلهم هو!

وأذعنوا آخر الأمر.. ونزلوا على حكمه واستسلموا بلا شروط فتواثب رجال من الأوس قائلين:

ـ يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت بالأمس في بني قينقاع موالي اخواننا الخزرج ما قد علمت، فهب لنا بني قريظة.

فقال محمد:

ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

فوافقوا. واختار محمد للحكم سعد بن معاذ زعيم الأوس.

وفرح بنو قريظة، أن يوضع مصيرهم بين يدي سعد بن معاذ.. مهما يكن من غلظتهم معه حين جاءهم يسألهم العدول عن الغدر بمحمد، فانه لراعيهم القديم، وهو رجل عادل ما يعرف عنه غير الحلم والعفو وحسن الرأي!

وكان سعد ما زال جريحاً في خيمة امرأة تعمل بالطب، وتحتسب بنفسها على خدمة الجرحى من المسلمين.

وذهب بعض الأوس الى خيمتها وحملوا سعد بن معاذ على دابة وأقبلوا به الى حيث كان المسلمون يحاصرون بني قريظة.. وقالوا له في الطريق:

ـ أحسن في مواليك فان رسول الله ﷺ انما ولاك ذلك لتحسن فيهم.

فأجاب:

ـ قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم!..

ان سعداً ليذكر الآن أنه ما من يهودي خرج من هذه المدينة الا كان حرباً على من فيها!. تجمعوا كلهم في واحة خيبر وانضموا الى يهود آخرين هناك ومضوا يؤلبون القبائل ضد محمد والمسلمين!.. ماذا صنع بهم محمد ليلقى منهم كل هذا.. لقد أحسن اليهم دائماً وتزوج منهم، وحض أصحابه على أن يعاملوهم بالحسنى!.

ولكنهم بدلاً من أن يعرفوا له هذه اليد مضوا يكيدون له في مدينته، ويسخرون به، ويخربون اقتصاديات دولته الجديدة، ويدمرون نفسيات الناس، ويبثون الفتنة بين صحابه ويتهمونه في عرضه.

كم من مرة شهروا السلاح ضده.. وعفا عنهم، وترك الذين حملوا السلاح ضده يخرجون آمنين!.

وخرج بنو قينقاع من قبل ثم بنو النضير.. فماذا كانت النتيجة!؟

حشدوا آلاف المقاتلين ورموا بهم المدينة ليستأصلوا محمداً وصحبه!. الغدر دائماً!!

ألم يكن من الممكن أن تنتصر الأحزاب فيقتحموا المدينة على من فيها ويقتلوا آلاف الرجال والنساء والأطفال!؟.

ان مثلهم كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ولقد طالما عاهدوا المسلمين ولكنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم. بل أكثرهم لا يؤمنون!.. سماعون للكذب أكالون للسحت!..

ولكم حاولوا أن يشعلوا نار الحرب.. وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين، هكذا تلا عليكم محمد يا سعد!.

وهذا السهم الذي تعاني منه الآن يا سعد أما هو من غرس هؤلاء اليهود من بني قريظة؟.

لو أنهم أخرجوا كما أخرج غيرهم، فسيؤلبون القبائل من جديد.. ومن يدري ماذا يحدث بعد.. ربما عادت الأحزاب تدك المدينة على من فيها وتستولي على كل المتاع والنساء والأطفال وتسحق قلعة الاسلام!

ولم يكد سعد بن معاذ يبلغ مكان محمد وسط عسكره، حتى قام محمد يستقبله ويأمر الناس أن يقوموا لاستقباله.

وعرض عليه محمد أن يحكم في أمر بني قريظة.. فقال سعد وهو يقلّب عينيه في كل الوجوه من حوله:

ـ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت..

فقالوا: «نعم».

وأخذ نفس الموثق على محمد نفسه فقال له: «نعم».

فقال سعد:

ـ فاني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء..

واقتحم المسلمون الحصن، فغنموا ما فيه من أنواع السلاح الحديثة. وغنموا الخيل والأموال جميعاً. كميات ضخمة من السلاح والخيل والكنوز.. وغنموا الدور أيضاً، ثم قتلوا الرجال واقتسموا النساء والصغار..

ووقع من نصيب محمد من نساء بني قريظة فتاة اسمها ريحانة، فعرض عليها أن تكون له زوجة لا جارية على أن تسلم ولكنها رفضت الاسلام وقالت له:

- بل تتركني في ملكك فهو أخف علي وعليك.

على أنها لم تلبث أن أسلمت فعاملها كما يعامل زوجاته..

وقتل جميع رجال بني قريظة ومن دخل معهم حصونهم ليدبروا المعركة ضد محمد، وكان من بينهم حيي بن أخطب زعيم بني النضير!

ولم يكد يفرغ من أمر بني قريظة حتى عاد الى المدينة يسوس الحياة فيها، وقد ثبتت هيبته في الجزيرة العربية كلها..

وحسبت قريش أن يرد محمد على عدوانها فيقطع الطريق على تجارتها الى الشام..

وبدأت تفكر في الصلح معه، أي صلح يضمن سلامة القوافل وطرق التجارة؟.. فهذا هو المهم الآن!

وخشيت بعض القبائل أن ينزل بها محمد ما أنزله ببني قريظة، فبدأت تفكر في أسلوب جديد للتفاهم..

أما اليهود في الجزيرة، فقد أقاموا المأتم على ما وقع لبني قريظة.. وبدأوا كلهم يتوافدون الى خيبر ليفكروا في طريقة رهيبة للانتقام.

أما محمد فقد قال للمجاهدين معه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم..».

وبعد أيام قليلة تلا عليهم وهم خاشعون: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم الا ايماناً وتسليماً، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا.

ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفوراً رحيماً. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها، وكان الله على كل شيء قديراً».

٢٣

ستة أعوام بأسرها، لم ير خلالها أرض الوطن.

لم يتصل بينه وبين مواطنيه في مكة شيء غير الكيد والحرب..

وأحياناً كان يقبل من مكة رجل أو امرأة يحكي للذين هاجروا عما صنع الزمن بمعاهد الصبا، ومراتع الشباب. كيف المدينة البيضاء بعدنا يا رجل؟.. كيف خلفت وراءك الديار يا امرأة؟!.. الصفا؟!.. الكعبة.. المراعي البعيدة المترامية وراء الجبال!؟ كل شيء هناك يشوقنا حتى الرمضاء..

ومهما تقدم الحياة في المدينة للمهاجرين، فما زال في الأعماق من كل قلب شوق الى مكة، وانهم ليفتحون البلاد ويخوضون المكاره وينتصرون، ويزحفون برايتهم المظفرة من مكان الى مكان وينعمون بالحقول الخضراء حول المدينة.. ومن وراء الأفق تلوح لعيونهم دائماً: مكة: مدينتهم العزيزة الكبيرة البيضاء المضيئة!

متى يأذن الزمن فيعودوا الى ديارهم، هؤلاء الغرباء المشتاقون؟!

وها هو ذا جيل آخر من الأبناء والأحفاد ينطق أول الكلمات، ويروح ويجيء ويملأ عالمهم بالضجيج الحلو والزحام، ولكن هذا الجيل كله لم ير أرض الوطن.. وانه ليعرف اسم مكة فيما تعلم من أسماء.. ولكنه لا يعرف ما مكة بعد!!

ونظر محمد الى حفيديه الحسن والحسين، وهما يلعبان أمامه.. الحسين يختبىء في حجره والحسن يطارده فيمتطي ظهر الجد.. والجد يتأملهما ضاحكاً مشفقاً.. هذان الغريبان الصغيران.. ولدا ونقلا أول الخطوات بعيداً عن أرض الوطن!!

وتأتي أمهما فاطمة فتنهرهما ولكنه يشير أن تتركهما، ويأتي أبوهما علي فيزعجه أن

يعلو أحد ولديه كتف محمد مثله الأعلى، ولكن محمداً يطلب من علي ألا يزعج الطفلين. .

حسبهما أنهما يعيشان في الغربة؟.

وسألت فاطمة أباها لماذا هو مهموم؟. . لقد انتصر على الأحزاب، وظفر ببني قريظة، وما عرفت العرب نصراً مثل هذا من قبل. .؟ أتراه الآن يذكر أمها الراحلة خديجة أعز زوجاته عليه. !

وتلمح في عينيه دموعاً لا تنسكب فتنسحب وتشير الى زوجها أن ينسحب. ويتركان طفليهما، فما مثل الأطفال من يستطيع أن يفرج عن القلب الكبير اذا فاض منه الحزن.

وتسمع فاطمة من الخارج طفليهما يتجادلان. . وتنطلق ضحكة الجد، وهو يعلم الطفلين ويحسم ما اختلفا عليه. .

ويخرج محمد الى ابنته فاطمة وزوجها علي. . فيسألهما ان كانا لم تهج لهما الذكرى في هذه الأيام، فنحن في ذي القعدة. . وقد بدأ موسم الحج!!

وتنطلق الزفرات من أعماق فاطمة ويشرق وجه علي بشعاع غريب.

أجل يا ابن العم! وهناك يتدفق الناس أرسالاً الى البيت العتيق الذي حرسه جدنا عبد المطلب ذات يوم، وما زال عمنا العباس يقوم على سقايته!!

وهناك حول الكعبة التي شهدت كبرياءك وقلة حيلتك وروعة مقاومتك وازدراء السادة عليك، وايمان المستضعفين بك. . هناك ما زال السادة يجلسون وما زالت الصفقات تعقد. . وعلى الرغم من كل التضحيات، فما زالت الأوثان تنتصب شامخة!

هناك في مدينتنا العزيزة البيضاء يلتقي الآن رجال ونساء من كل مكان يبحثون عن الحقيقة، وينشدون منافع لهم. .

الأشعار الجديدة تذاع الآن في الأسواق، والمبشرون يلقون بمواعظهم، والقبائل تعقد المحالفات، ولكننا نحن هنا، نحن أصحاب هذا البيت وسدنته نحن هنا لا نستطيع أن نطوف بالبيت كما يطوف كل الناس!!

ولكن محمداً كان قد قرر أن يطوف بالبيت من عامه هذا. .

كان قد قرر أن يدخل مكة في موسم الحج بالمسلمين كغيرهم من الحجاج . .
وخرج الى المهاجرين يستشيرهم . .

أخيراً . . فها هم أولاء يعودون الى مكة . . ليروها مرة في العمر بعد كل هذا الغياب المعذب . .

لكم اضطرمت صدورهم بأحلام العودة الى أرض الوطن، لطالما كتم الواحد منهم حلمه العزيز، ومشى يصنع الحياة الجديدة في أرض الهجرة، والحنين يهز منه القلب . . ولكنه يتجنب الذكريات لكيلا يؤلم أخاه المهاجر!

وأذن محمد في الناس أنه خارج بهم الى الحج حيث يلتقي العرب حول الكعبة في سلام . . وطالبهم بأن يرعوا حرمات الحج وأن يتهيأوا له، لأنهم يدخلون مكة حجاجاً ورعين لا غزاة فاتحين! .

واجتمع اليه من أراد الحج حتى بلغوا ألفاً وأربعمائة ساقوا أمامهم سبعين من الذبائح السمان لينحروها أمام الكعبة ويطعموا الجائعين والمحتاجين لحوم هذه الأضاحي . .

ودخلوا جميعاً في الاحرام . فنبذوا من نفوسهم كل رغبة في المتاع والزينة وتهيأوا لحالة النسك التي يقتضيها الحج : لبسوا أرديتهم بلا خياطة، وامتنعوا عن النساء، والعطور والطيب وأرسلوا الشعور والأظافر .

اندفعوا الى مكة . . في هذه الحالة المتقشفة، بلا سلاح، ليطوفوا بالبيت العتيق، وليقوموا بشعائر الحج لأول مرة منذ هاجروا الى المدينة .

وعلمت قريش أن محمداً وألفاً وأربعمائة من المسلمين خرجوا يريدون مكة . !

ها هو ذا بعد أن ارتدت قريش والأحزاب منهزمين عن مدينته، وبعد أن حطم بني قريظة الأشداء في حصونهم، يقبل الى موسم الحج بالمسلمين من المهاجرين والأنصار، ليلقى الناس من قريش ومن القبائل العربية الأخرى، ويدعوهم الى دينه الجديد مستنداً الى انتصاراته المدوية المذهلة، هو الذي خرج من مكة ضعيفاً وحيداً مطارداً؟ .

أيريد هو أن يجرع قريشاً مرارة الهزيمة حتى آخر قطرة! .

وجمع أبو سفيان رجال الحكومة في قريش، فقرروا بالاجماع أن يمنعوا محمداً ومن معه وأن يردوهم الى المدينة.

لن يدخلوا مكة عليهم عنوة! .

وجمعوا فرسانهم وجعلوا عليهم خالد بن الوليد.

ان خالد بن الوليد من بين قواد قريش، لهو الوحيد الذي هزم المسلمين!
لن ينسى المسلمون ما صنعه بهم في أحد! .

واندفع خالد بن الوليد على رأس فرسانه ليحارب محمداً ومن معه.. وعلم محمد بما كان، فأشار على من معه أن يتجنبوا القتال، فما أقبلوا للحرب وليس معهم سلاح يحاربون به ان فرض عليهم القتال في سعيهم الورع الى البيت الحرام.

واختار أن يسير من طريق آخر غير الطريق المألوف لكيلا يلقوا فرسان قريش.

فقاد الركب بين الشعاب المهجورة تحت وطأة حر لافح، بين صخور لا زرع فيها ولا ماء..

وعانى الناس من العطش وهو يطوف بهم يدعوهم الى الصبر ويذكرهم بالنعيم الذي ينتظرهم، وبكل الطيبات التي أعدت للصابرين.

حتى اذا بلغوا سهلاً به آبار مهجورة على مقربة من مكة أذن بالناس أن ينزلوا فليشربوا وأقاموا في هذا السهل عند الحديبية.

وأرسل الى قريش من يؤكد لحكومتها أن المسلمين انما جاءوا للحج لا للقتال!

ولكن رسوله رجع يقول له: ان قريشاً لبست جلود النمور وانها تتهيأ للحرب..
ثم أرسلت اليه قريش لتنصحه أن يعود.

وأخبر رسل قريش أنه انما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته وأنه لا يريد حرباً..
وسكت رسل قريش فاستطرد محمد قائلاً:

- يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب.. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فان أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام

صاغرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة! فما تظن قريش؟. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو أموت دونه!.

وعادت الرسل من عنده فقالوا لقومهم «يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد. ان محمداً لم يأت للقتال وانما جاء زائراً هذا البيت».

ولكن سادة قريش أغلظوا لهؤلاء الرسل وقالوا: «والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً».

ورأت قريش أن ترسل الى محمد رسولاً يهدده.. فأرسلت اليه قائد الأحابيش..؟! لا ينسى المسلمون ما ذاقوه منهم في أحد!!

واذ قدم قائد الأحابيش على المسلمين، أمر محمد أن يعرضوا عليه الذبائح التي يسوقونها الى الكعبة..

ورأى الرجل هذا كله، ورأى المسلمين جميعاً في ثياب الإحرام بلا سلاح، فعدل عن رسالة التهديد التي يحملها، ولم يجد في نفسه ما يدفعه الى أن يقابل محمداً.

رجع من فوره الى مكة فروى لحكامها ما رآه.. فقالوا له ساخرين: «أنت لا علم لك بشيء».

فأجابهم مغضباً: «والله ما على هذا حالفناكم! أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له. والذي نفسي بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد».

واذ وجدوا قائد جيشهم الرسمي يهددهم بثورة الجيش ان حاربوا محمداً قرروا أن يصطنعوا سياسة أخرى غير منع محمد بالقوة..!

وذهبوا الى قائد الأحابيش يرجونه أن يكف عنهم حتى يأخذوا لأنفسهم من محمد ما يرضون به.

ولكن قائد الأحابيش كان قد امتلأ بروعة ما رآه في الحديبية: عديد من رجال ونساء في ثياب بيض.. جاءوا مسالمين بكل الشوق الى أرض الوطن، وبكل الرغبة الصادقة في الحج!.

وتمسك قائد الأحابيش بتهديده.. أن ينفر بالأحابيش ضد قريش ان هي حاولت العدوان على هؤلاء الحجاج القادمين من المدينة ـ بلا سلاح ـ في الأردية البيض!.

وأرسلت قريش رجلاً آخر من دهاة سفرائها لعله يستطيع أن يقنع محمداً بالعودة..

فقال محمد: «انا لم نأت لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وان قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فان أظهر؛ فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وان هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره».

فرد سفير قريش: «أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك، وان تكن الأخرى فاني أرى حولك وجوهاً وأثواباً من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك».

ولم يجبه محمد ولكن أبا بكر شتم سفير قريش وسأله مستنكراً أنحن نفر وندعه..

وحاول الرجل أن يتحدث الى محمد كما تعود أن يتحدث الى غيره من الرجال فأمسك بلحيته متردداً، ولكن بعض صحاب محمد قالوا له: «اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل اليك».

وعاد الرجل الى قريش يقول: «يا معشر قريش اني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمدٍ في أصحابه ولقد رأيت قومه لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم»..

ولم تقرر قريش شيئاً..

ورأى محمد أن يرسل الى قريش رجلا له حسابه.. فاختار عمر بن الخطاب، وكان هو في الأيام الماضية من يتحدث بلسان قريش ويقوم بالسفارة عنها..

ولكن عمر بن الخطاب اعتذر قائلاً: «يا رسول الله اني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من عشيرتي أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي اياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان».

وأرسل عثمان بن عفان الى أبي سفيان وحكومة قريش ينبئهم أنه لم يأت لحرب، وأنه انما جاء حاجاً.

ولعثمان صداقات وقرابة بسادة مكة. . وبصفة خاصة بأبي سفيان رئيس الحكومة. .

ولكن أخبار عثمان انقطعت وأذيع بين الناس أنه اغتيل في مكة. .

ليت المسلمين جاءوا بأسلحتهم، ما دامت قريش تضمر غدراً!. .

وأرسل محمد الى المدينة من يستنفر أهلها والحلفاء ويعود اليه بالسلاح وعدة الحرب والرجال والخيل. .

ووقف تحت ظلال شجرة يطلب البيعة ممن معه. . فبايعه الجميع تحت الشجرة، على القتال حتى الموت. .

ولكن عثمان ما لبث أن عاد فاستقبله محمداً مستبشراً وشاعت الفرحة بين المسلمين جميعاً. .

كان عثمان قد أقنع قريبه أبا سفيان وبعض صحابه القدامى من كبار تجار قريش أن الصلح خير. . فليس من حق قريش أن تمنع المهاجرين من أهل مكة أن يعودوا اليها، ليس من حقها أن تحرم أحداً من الأرض التي رعته والتي تستلقي تحتها عظام آبائه. . أو أن تصد المسلمين عن الحج الى البيت العتيق دون سائر العرب؟

ولم يكد عثمان يفرغ من رواية ما دار بينه وبين حكام قريش حتى أقبل مندوب من قريش، عرف عنه حب السلام.

فلما ظهر قال محمد: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». .

وتفاوض الرجل طويلاً للصلح. . واتفق آخر الأمر مع محمد على كل شروط الصلح ولم يبق الا أن تكتب الشروط في صحيفة. .

ودعا محمد اليه بعلي بن أبي طالب ليمليه صيغة الصلح. . قال له: «أكتب بسم الله الرحمن الرحيم». . فقال مندوب قريش: «لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم» فوافق محمد وأمر علياً أن يكتب «باسمك اللهم».

ثم أملى محمد: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. . . . .

فاعترض مندوب قريش: «لو شهدنا أنك رسول الله لم نقاتلك، اكتب اسمك واسم أبيك. .».

فقال محمد: «أمح رسول الله واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله».

وهنا توقفت يد علي، وانتفض مغضباً وهو يقول لمحمد: «لا والله لا أمحوك أبداً».

كانت غضبة علي هي الصيحة التي انفجرت وراءها من صدور المسلمين كل صرخات الاحتجاج..

ما بال محمد يسلم لمندوب قريش! ما باله يتنازل له عن الديباجة التي ألفها المسلمون؟!

ولم يجد واحداً من صحابه يمحو «من محمد رسول الله» فتناول محمد الصحيفة من علي ومحا ما كتبه علي، وكتب هو ديباجتها كما أراد مندوب قريش.

كانت هذه هي أول مرة يكتب فيها، بعد أن تعود ملاحظة الحروف من طول ما أملى كتبة القرآن..

وانفجر عمر غير بعيد يقول لأبي بكر: «يا أبا بكر أليس هو برسول الله؟..».

ورد أبو بكر.. بلى.. فقال عمر: «أولسنا بالمسلمين» وأجاب أبو بكر «بلى» وقال عمر: «أوليسوا بالمشركين؟» فأجابه «بلى» فصاح عمر: «فعلام نعطي الدنية في ديننا؟..».

ونصحه أبو بكر أن يلزم حده، ولكن عمر اندفع يعيد على محمد نفس الأسئلة، فأجابه محمد في غضب: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني».

وانصرف عمر مغضباً لا يكلم أحداً، وهو يخوض في صفوف رجال غاضبين!..

وعاد محمد يكمل املاء شروط الصلح مع قريش: أن يضعوا الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير أذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وان من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن تطوى الصدور على ما فيها، ولا خيانة ولا غدر..

وحين أعلن محمد هذه الشروط، تواثبت خزاعة فأعلنوا انضمامهم الى محمد، وتواثب بنو بكر معلنين الانضمام الى قريش.

واشترط مندوب قريش أن يرجع محمد وصحابه عامهم هذا فلا يدخلوا مكة على هلها وأنه اذا كان العام القادم دخلها محمد بأصحابه فأقام بها ثلاثة أيام معهم سلاح لراكب: السيوف في قرابها لا يدخلونها بغيرها . .

ووافق محمد ووقع عقد الصلح . . وسط همهمة ضيق من كل أصحابه . .

ولهو يوقع الصلح ، اذ برجل مصفد يرسف في الحديد، انه ابن مندوب قريش كان يريد الهرب الى محمد فأدركه رجال من قريش وصفدوه في الأغلال. فقام مندوب قريش يلطم ابنه على وجهه.

وطالب محمداً بأن يعيد اليه ابنه بمقتضى الصلح الذي لم يجف مداده بعد!.

والابن يصرخ: «يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوني في ديني؟!.

ولكن محمداً كان قد وقع الصلح وانتهى الأمر. . وأمر بأن يرد الرجل الى قريش كما تقضي شروط الصلح. وأعيد الرجل. .

وصيحات الاحتجاج ترتفع!.

كان المسلمون في الحق قد ضاقوا بمفاوضات الصلح وبكتابة الديباجة التي طلبها مندوب قريش، ورد من يلجأ اليهم من قريش مسلماً!.

وكان الناس قد ضاقوا بصفة خاصة بنـزول محمد على حكم قـريش أن يعودوا أدراجهم. . وهم على أبواب مكة!!.

لقد حلموا طويلاً في الليالي الحالكة الماضية أن يأتي يوم يزورون فيـه وطنهم ويطوفون بالبيت كما يفعل كل الناس. . حتى اذا جاء هذا اليوم المرتقب، ولاحت لهم مكة. صدتهم قريش. . وبدلاً من أن يثبتوا ويحاربوا من أجل حقهم في زيارة مكة اذا بهم يذعنون، ويستسلمون لقريش! . .

لماذا يصنع بهم محمد مثل هذا؟.

وقال أحدهم لمحمد في غضب «أما وعدتنا أن نزور مكة»؟. فأجابه في حلم: «نزورها في العام القادم».

وأخذ يقنعهم بمزايا الصلح، وهو يعاني في أعماقه مما جرح أصحابه!!.

من الحق أن قريشاً ستفيد منه.. ستطمئن على تجارتها التي تهددها الحرب ولكنهم هم أيضاً الكاسبون!..

لن تهددهم قريش بعد، ولن تتردد القبائل في الانضمام اليهم خشية قريش.

من واجبهم الآن أن يوجهوا كل نشاطهم للدعوة الى الدين الجديد وهم آمنون.. من كيد قريش..

فليتأملوا الموقف ليعرفوا كيف يواجهون المستقبل وليرتفعوا فوق انفعالات اللحظة العابرة، وليتقبلوا الصلح بفهم للضرورة وبتقدير للأحداث جميعاً..

سيكسبون من الصلح أضعاف ما كسبوا بحد السيف!..

ان هذا الصلح الجديد لا يحمل تنازلاً عن شيء.. فالذين يريدون أن ينضموا اليه من قريش يستطيعون أن يصبروا في مكانهم وأن يحملوا العقيدة لآخرين.آمنين بعدذلك من الأذى الذي تعرض له المسلمون الأوائل..

أما الذين يريدون أن ينضموا الى قريش من المسلمين، فلا خير فيهم أبداً ولا في اسلامهم، فليعلنوا الردة منذ اليوم!.

أما الشكليات التي رفضتها قريش، فهي لن تغير من الحقيقة شيئاً!!

فليفرح المسلمون بهذا الصلح بدلاً من هذا الخلاف وليعلموا أن مزايا هذا الصلح أنه حرم أعداءهم الآخرين من تأييد قريش وأنه عزل قريشاً عن اليهود.

فليذكروا أن يهود المدينة المطرودين يتجمعون الآن في وادي خيبر ليزحفوا على المدينة في يوم قريب مستعلين بانضمامهم الى يهود خيبر.

فلو أنه لم يعزل عنهم تأييد قريش لشكلوا خطراً جدياً على المدينة وسكانها وعلى العقيدة نفسها..

فليستعدوا هم الآن ليواجهوا حرب اليهود، وليواجهوا من يفكر في ضربهم من قبائل العرب الأخرى، واثقين من النصر بعد أن حرم معسكر الأعداء من قوات مكة!..

واقتنع المسلمون..

كل هذا صحيح!.. ولكن لماذا يعودون بلا حج؟!.

لماذا لا يدخلون مكة في عامهم هذا وهم على أبوابها!؟
أينتظرون عاماً آخر؟..

وناداهم أن يخلعوا ملابس الاحرام.. وأن يعودوا الى حياتهم العادية وأن يتهيأوا للرجوع الى المدينة..

ولكنهم تلكأوا جميعاً..

ما زال في الأعماق من كل نفس، أمل أخير أن يقتنع هو بالسير الى مكة على الفور، على الرغم من كل شيء!!.

وناداهم أن يتحللوا من مناسك الحج، ولكنه لم يلق استجابة من أحد!.

لماذا يحدث هذا!؟

انهم خالفوه في أحد، فانهزم المسلمون وأوشك هو نفسه أن يقتل.

لماذا يواجهونه بهذا التمرد مجتمعين!؟

لقد خالفه علي.. حتى علي!! ورفض أن يكتب ما أملاه!.

وخالفه عمر.. حتى عمر.. وأغلظ له..

وانطلقت همهمة السخط من الجميع لبعض الوقت، ولكنه كان قد شرح لهم ما في الصلح من مزايا، وطالبهم بأن يتهيأوا للعودة ولقتال يهود خيبر الذين يحتشدون للزحف على المدينة، ولقد خيل اليه منذ لحظات أنهم اقتنعوا بما صنع وبما قال.. ولكنهم جميعاً يرفضون الآن!.

ودخل خيمته مهموماً معذب القلب.. في عينيه دموع..

واستقبلته زوجته الحكيمة الحسناء أم سلمة..

ان لها نفس الابتسامة الحانية التي شجعته بها خديجة في الأيام السود الماضية، ولها نفس النبرة المطمئنة..

وأفضى اليها بيأسه وهو يهمهم: «هلك الناس!».

وسألته أم سلمة ألا يهن ولا يحزن فكم احتمل قلبه من صدمات!.

فليخرج الآن الى الناس.. وليتحلل أمامهم من الاحرام.. لأن تأثير العمل أقوى من أثر الكلام، ولن يناقشه أحد بعد أن يروه ينفذ بنفسه ما طالبهم به.

وخرج محمد الى الناس فنحر هديه ثم جلس فحلق رأسه..

فلما رأى الناس أنه قد نحر وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون.. ويعتذرون عما كان..

وعاد معهم الى المدينة.. ولكنه لم يكد يمضي في المدينة أياماً حتى جاءه رسول من حكومة قريش يستحلفه أن يقبل في مدينته من يسلم من أهل مكة.. لأنهم يثيرون المتاعب ويحرضون الآخرين، ويعتصمون خارج مكة يهددون طرق التجارة.

واستقبل محمد نحو سبعين مهاجراً جديداً من قريش دخلوا كلهم في الاسلام يوم أعلن الصلح..

وتصايح المسلمون في طرب: انه نصر على قريش لم نكسبه في كل معاركنا من قبل!.. ما كان أحكمه حين عقد هذا الصلح!.

هذا حق.. فاسمعوا إذاً لما يتلوه عليكم: «لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فعجل لكم هذه، وكف أيدي الناس عنكم».

٢٤

انه ليقبل الآن على أيام حاسمة يتقرر فيها مصير كل شيء..
ولكنه متعب القلب من كل شيء!..

لم يكد صلح الحديبية يؤتي ثمراته، لينعم هو والمسلمون بفترة من الأمن، ولم يكد المسلمون يقتنعون بما في هذا الصلح من مزايا، حتى وضعته الحوادث في امتحان عسير. فقد هاجرت امرأة من قريش فخرج أخواها حتى قدما عليه يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية.

ونساء أخريات هاجرن من مكة.. وخرج وراءهن الأزواج يطالبونه بأن يرد عليهم نساءهم تنفيذاً لشروط صلح الحديبية.

بم تستفيد قريش من هذا الصلح إذاً ان كان سيسمح للمدينة أن تفتح ذراعيها للنساء القريشيات المهاجرات..؟

ولكن أن يتخلى المسلمون عمن يفزع اليهم من النساء..؟

واضطربت قلوب المسلمين. أيقهرون امرأة منهم على أن تعاشر رجلاً من عدوهم لا ترضاه..؟

وارتفعت على نبضات القلوب المغضبة صيحات العار، ولكنهم ان نقضوا الصلح مع قريش، أعلنتهم الحرب متعاونة مع يهود خيبر.
وشعر هو بحرج عظيم..

من الحق أنه عاهد قريشاً أن يرد من يخرج عليها مهاجراً اليه.. ولكنهم حينما اتفقوا على هذه الشروط لم يفكروا في النساء..

وعاد أصحابه يتساءلون. ماذا يصنعون بالنساء المهاجرات؟

ولكن النساء شيء آخر. . هذا حق!

أي هو أن يفرض على الناس باسم هذا الصلح . .؟ ألكي تقول العرب أن محمداً وأصحابه عجزوا عن حماية أعراض نساء لذن بهم فسلموهن الى العدو، يغتصبونهن عنوة؟. .

وخرج محمد الى الناس يتلو عليهم، «يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بايمانهن، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن. .»

قضي الأمر إذاً. .

وعاد رجال قريش الى مكة، يضيقون على النساء حتى لا يهاجرن. . ولم يجدوا في امتناع محمد عن رد النساء ما يخالف شروط صلح الحديبية لأن الصلح لم يتعرض لهجرة النساء!.

فليستمراحترامهم للصلح، فهذا أجدى على تجارتهم، ولينعموا هم أيضاً بفترة من الأمن تزدهر فيها الثروات.

واستراح قلب محمد بعد أن خرج صلح الحديبية سليماً من التجربة وخرج المسلمون مرفوعي الجبين من المحنة. .

ولكنه كان يفكر في خيبر. .

فهناك في هذا الوادي الظليل تعيش أسطورة غريبة. . ان بني اسرائيل حين أخرجوا من مصر وعبر بهم موسى البحر، وضاعوا في التيه أياماً طوالاً، لم يجتمع لهم شمل الا في خيبر فلتكن خيبر بحقولها الخصبة إذاً قاعدة لليهود الى آخر الزمان!.

وتحت تأثير هذه الأسطورة عاش في خيبر يهود استقروا جيلاً بعد جيل.

وأصبحت خيبر ملاذاً لكل يهودي لا يطمئن به مكانه. . وهكذا لجأ اليها فلول يهود بني قينقاع وبني النضير وانضموا الى سكانها الأصليين وأخذوا يعملون على تكوين دولة ضخمة تبسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها. .

كانت أحلام السيطرة هي التي تحركهم، ثم الرغبة التي لا تهدأ في أن ينتقموا من محمد. .

وانهم الآن ليستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينة التي بدأت تزدهر، وانهم ليحشدون قواهم ـ بكل ما يملكون من رغبة في الانتقام ليزحفوا في يوم قريب على المدينة نفسها. . فلئن كانت قريش قد صالحت محمداً، فليبحثوا لهم في طول الجزيرة وعرضها عن حلفاء آخرين. .

انه لخطر رهيب جديد يهدد المسلمين ويعذب قلب محمد. . أينتظر حتى يحركوا حشودهم وحشود حلفائهم أم يبادرهم بالحرب؟!

ولكن كيف يفضي اليهم وهم في خيبر خلف المعاقل، والمرتفعات والقلاع؟!

لكم هو محير أمر هؤلاء اليهود في خيبر. .

كل هذا. . والزوجات أيضاً. . عائشة تضيق بجويرية، وزينب تكيد لعائشة، وحفصة تحرض عليه الأخريات وتتهمه بأنه يفضل عليهن زينب بنت جحش. . وانه ليحرم على نفسه طعاماً كانت تتفنن زينب في صنعه ارضاء لبقية الزوجات، ولكنهن لا يرضين. . فعائشة تغار من حفصة . . وحفصة تغاضبه لأنه يفضل عائشة.

دوامة من الصراع المنزلي في ظروف ليست صالحة للغيرة بعد. . وكلهن يشكون شظف العيش، ويبكين لأنه لا يمنحهن خز الشام ولا كتان مصر ولا حلل اليمن. . وعيناه هو على اليهود الذين يتهيأون في خيبر لتهديد مدينته!. .

ويسأل زوجاته أن يتصافين فيما بينهن وأن يزهدن في الزينة. . ويستنجد بأم سلمة، فتتهمه الأخريات أنه يؤثر عليهن أم سلمة لأنه يحس فيها ريح زوجته الراحلة خديجة. . وتنفجر الغيرة حتى من ذكرى خديجة!.

وتواجهه عائشة أنها أفضل من خديجة وأكثر جمالاً وصبا من تلك العجوز التي لا يكف عن ذكرها!.

ويغضب هو لذكرى زوجته الراحلة التي ساندته في اللحظات الحالكة من كفاحه. .

وتغضب ابنته فاطمة لذكرى أمها. . ويزجر عائشة وينهي زوجاته عن التعرض لذكرى خديجة. . وتعود عائشة فتقارن بين النعيم الذي عرفته خديجة وبين ما تعيش هي فيه من شظف. . وانها لجميلة وصغيرة لا نظير لها في قصور الملوك!.

وتضيق حفصة هي الأخرى بحياتها الخشنة. . لقد نشأت في بيت أبيها عمر بن الخطاب بين الحرير!.

أيام كان عمر في مكة سيداً غنياً!

نساؤه جميعاً يعلن في وجهه الاحتجاج لأنهن ـ وهن صغيرات جميلات لا يعشن بعد كما يجب أن يعيش نساء رجل مثله يحكم الآن دولة كبيرة!.

ويصارحهن: «ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً. .».

ولكن. . حتى هذا التهديد بالطلاق لا ينفع. .

ويحاول أن يعلمهن أنهن لسن كأحد من النساء. . فليكن صابرات قانتات، وليكن فيهن أسوة حسنة لنساء صحابه المجاهدين. . ويتلطف بهن ثم يجرب الشدة ولكنهن لا ينتهين أبداً. .

ويطلق حفصة ويهجر عائشة وزينب ويهددهما بالطلاق. . ثم يعتزلهن جميعاً وعيناه على ما يحدث في خيبر!!

ويشكو الى أبي بكر وعمر أن زوجاته يفسدن عليه الحياة، حتى في اللحظات التي يهدد فيها الخطر مصيره ومصير رسالته. ويطالبه عمر بالقسوة عليهن فالنساء جميعاً ناقصات عقل ودين حتى أمهات المسلمين ثم يندفع عمر الى ابنته حفصة فيؤنبها ويضربها. . ويكبر على أبي بكر أن تغضب ابنته عائشة قائده وصديقه محمد فينهرها ويهددها.

وتتوالى صيحات الاستنكار من آباء الزوجات وأقاربهن. . أن يرتفعن الى مسؤولياتهن فهن شريكات محمد وأمهات المؤمنين.

وتعيش الزوجات في القطعة أيضاً يحاصرهن اللوم ويشعرن بما ارتكبن من خطأ حين سمحن للغيرة أن تسيطر عليهن.

ويعرفن أنهن لا يسلكن كأمهات للمسلمين ولا كشريكات لمحمد حين يطالبنه بأن يمتعهن بالحرير والذهب.

ويعتذرن اليه. . . ويعاهدنه أن يعشن معه على ما يهوَى وأن يكن جديرات بشرف المسؤولية وبشرف مشاركته الحياة.

ويعفو عنهن ويرد حفصة. . ولكنه يستمر على هجرهن تأديباً لهن الا أم سلمة. .
وعيناه على يهود خيبر!

وفي المدينة، غير بعيد من بيوته، ما زال رجال يستلقون في المسجد بلا عمل. . استراحوا بعد الصلح، واطمأنوا الى الحياة، واكتفوا بما يمنحون من أموال الصدقات!

ويشيع في الناس احترام جديد لهؤلاء المتعبدين الذين ينقطعون للعبادة في المسجد، ويرى هو أحدهم قتيلاً هزيلاً لطول ما يقوم الليل ويصوم النهار ويرى اعجاب الناس به فيسأل: «ومن يطعمه؟» فيقول قائل: «أخوه» فيقول لهم: «أخوه أعبد منه». .

ومضى يطالب الناس بأن يعملوا. فما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، أن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده.

ويعمل الناس، ففي المدينة عمل لكل رجل ولكن الأغنياء يطمعون في الفقراء ويستولون على المراعي والآبار التي تركها اليهود ويردون عنها من لا يملكون فيقول: «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والملح».

ويهود خيبر يستعدون للانقضاض ويؤلبون القبائل المجاورة، الى غزوة أحزاب جديدة. . لقد نجحوا بالفعل في اجتذاب بعض غطفان التي لم تنس بعد انهزامها أمام المدينة في غزوة الأحزاب.

ويقرر محمد أن يبادر بالعمل الحاسم قبل أن يفلح يهود خيبر في تحزيب الأحزاب عليه. . فليهاجم يهود خيبر في خيبر مهما يكن الثمن. . فهذا خير من الانتظار!. .

كان يعلم أن اليهود قد أقاموا مدينتهم خلف سلسلة من القلاع الحصينة ولكنه رسم خطة لمهاجمة الحصون اليهودية السبعة. .

وحشد من الفرسان أكبر عدد استطاع أن يحشده. . وانهم اليوم مائتان!

وجمع نحو ألفين من المقاتلين. . وقادهم جميعاً الى خيبر.

وأصبح الفلاحون اليهود في خيبر ذات يوم فرأوا محمداً يتقدم الى حقولهم. وعادوا الى خيبر مذعورين وهم يتصايحون: محمد والخميس.

وقسم جيشه قسمين: قسم فيه الفرسان وفي هذا القسم حشد معظم الجيش. وقسم آخر يحرس الطريق بين خيبر وغطفان، حتى لا يفاجأ المسلمون بجيش غطفان من خلفهم. .

وتحصن اليهود في قلاعهم، فأمر محمد بأن تحاصر القلاع وأن يقطع النخيل المحيط بها، وأن يعسكر جيشه في الحقول. . فليأكلوا منها وليطعموا الخيل والابل ليحرموا أهل خيبر كل ما في هذه الحقول وليذكر كل رجل في جيشه أن الناس شركاء في الماء والكلأ.

واضطر اليهود أن يخرجوا من حصونهم ليحاربوا في السهل المكشوف دفاعاً عن حقولهم التي استولى المسلمون على ثمراتها. ودفاعاً عن الآبار والمراعي.

وهكذا حرمهم محمد ميزة التحصن وراء القلاع المنيعة، وأصبح عليهم لكيلا يهلكوا من العطش والجوع أن يخرجوا من قلاعهم ليجلوا جيوش المسلمين عن الحقول التي تمدهم بالأقوات يوماً بعد يوم. . وعن الآبار التي يستقون منها.

ودار القتال. . يخرج اليهود كل نهار ليحاربوا المسلمين في السهل، حتى اذا جاء الليل لجأوا الى الحصون. .

وقال محمد لرجاله وهو يرى نجاح خطته في حرمان اليهود من مزايا التحصن وراء القلاع. . «خربت خيبر. . انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وفطن اليهود للخطة فاجتمعوا كلهم وراء حصن واحد. . يوجهون سهامهم ونبالهم الى عسكر المسلمين، لعلهم أن يقهروهم من وراء هذا الحصن.

ورأى محمد أن يحشد كل قواه الضاربة لفتح هذا الحصن، فاجتماع اليهود فيه يجعلهم أقدر على الفتك بالمسلمين. .

وجمع محمد جيشه، وأمرهم أن يقتحموا الحصن وسلم أبا بكر راية الجيش.

ولكن أبا بكر لم يستطع أن يقتحم الحصن . .

وفي اليوم التالي جعل القيادة لعمر بن الخطاب . .

وحارب عمر يومه كله، ولكنه لم يستطع أن يقتحم الحصن، وان كانت أبواب الحصن قد بدأت تلين . . غير أن اليهود ظلوا في موقعهم المنيع يسددون سهامهم دون أن يخرج منهم رجل واحد للقتال في السهل المكشوف.

فدعا محمد اليه علي بن أبي طالب وقال له: «خذ هذه الراية فتح الله عليك».

وخلع علي عنه الدرع ليكون خفيف الحركة وطالب رجاله بأن يتخففوا من الدروع التي تثقلهم ليكونوا خفافاً . . وانصرف وفي ذهنه وصية محمد: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يطيعوا فقاتلهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم».

وتقدم علي فدعاهم الى الاسلام، ولكنهم سخروا به.

فطالبهم بأن يحاربوا المسلمين رجلاً لرجل ويبعثوا اليه شجعانهم ليبارزهم هو بنفسه: الواحد بعد الآخر.

وخرج اليه الحارث أحد شجعانهم فصرعه علي.

وخرج اليه رجل آخر فصرعه . .

واذ تعالت من المسلمين صيحات السخرية بقوة شجعان اليهود . . وسأل علي شجعان خيبر أن يبعثوا اليه برجل يثبت في المعركة.

وخرج اليه زعيمهم مرحب . . وكان هو حقاً سيد فرسان خيبر . .

خرج الى علي بطيئاً في كبرياء واثقة مطمئنة مهيباً ضخماً بيده حربة مخيفة ذات ثلاثة رؤوس، وكل جسده الفارع الشاهق في الزرد. والحديد يغطي رأسه وساقيه . . وليس في كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف!.

وتقدم اليه علي بقامته المعتدلة، بلا درع، في يده السيف وحده.

وتوقع المسلمون واليهود جميعاً أنها نهاية علي . .

ولكن علياً استطاع أن يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد، وترك مرحب يتقدم اليه بدروعه وزرده وحربته . . حتى اذا أوشك سن الحربة أن يمس صدر علي،

تراجع علي فجأة ثم قفز في الهواء، متفادياً حربة مرحب، ثم اقتحم وأهوى بكل قوته على رأس مرحب بالسيف.

وانفلق الحديد من على رأس مرحب.. وسقط سيف علي على الجمجمة فشقها نصفين!.

وهوى مرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم، وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين..

واندفع علي الى باب الحصن هو ورجاله يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه، واليهود الذين أذهلهم موت مرحب، يفرون فزعين الى حصن آخر.

غير أن المقاومة لم تدم طويلاً.. فقد أعلن اليهود أنهم مستعدون للاستسلام أن ضمنوا حياتهم.

وتم الاتفاق على أن يخرج الرجال من خيبر، كل بثوب واحد يغطي جسده، على أن يتركوا السلاح والأموال والكنوز والنساء والذراري.

وجلا الرجال.. الى التيه حقاً هذه المرة!..

واستولى المسلمون على كل ما في خيبر من خيرات..

وأمرهم محمد ألا يعاشروا الحبالى من السبايا وألا يبيعوا المغانم حتى تقسم.

وقسمت الغنائم.. ودوت الصحراء بصيحات النصر.. فقد استراحوا الى الأبد من تهديد اليهود، وأعطي محمد من نصيبه في الغنائم بعض ثياب لزوجاته.

وبينما كان محمد يسير في ميدان المعركة، وجد فتاتين جميلتين تصرخان وتبكيان وبلال يدفعهما وسط جثث القتلى من اليهود ويريهما القتلى وما صنع المسلمون...

وزجره محمد: «أنزعت الرحمة من قلبك يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما..!».

وألقى برده على احداهما..

كانت هي صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني قريظة استوطنت خيبر منذ قتل أبوها وقومها في غزوة بني قريظة..

وقال لها محمد في حزن: «أما اني لأعتذر اليك ياصفية مما صنعت بقومك ولكنهم..».

وكانت صفية تعرف ما صنع قومها به فردت عليه رداً جميلاً..

وعرض عليها الاسلام فأسلمت وتزوجها وأقاما معاً في خيمة واحدة. وعندما أصبح الصباح وجد على باب خيمته رجلاً من المسلمين في سيفه فسأله عما يصنع على باب خيمته فقال الرجل «خفت عليك من هذه المرأة فقد قتلت أباها وزوجها وقومها وهي حديثة عهد بكفر فخفتها عليك..».

فابتسم محمد وقال: «اللهم احفظه كما بات يحفظني».

غير أن كل يقظة صحابه لم تستطع أن تحفظه من مكيدة أخت مرحب، بعد أن استخلصها مع صفية من يد بلال وهو يمر بهما على قتلى اليهود..

اذ دست اليه السم في الطعام.. وكان أحد صحابه يأكل معه، وأخذ محمد قطعة من اللحم فتعجب من طعمها ولفظها ولكن صاحبه أساغ الطعام وأكل اللحم المسموم، فمات من فوره..

وأمر محمد بالقبض على المرأة فاعترفت أنها دست السم في اللحم.. وقتلت بالنفس التي قتلتها..

وأذن في الناس بالرحيل.. وانتصاره على يهود خيبر يدوي في كل مكان..

وفي الطريق كان كلما نزل بمكان ليستريح فيه جاءه وفد من القبائل اليهودية الصغيرة المجاورة تطلب منه الأمان وتعرض عليه الطاعة والخضوع، وتلعن أمامه يهود خيبر..

ودخل في الاسلام منهم غير قليل.

ولم يرفض اسلامهم وان كان ليشعر أنهم غير صادقين.

ووصل الى المدينة بعسكره آخر الأمر وقد غنموا كما لم يغنموا في غزوة أخرى من قبل..

لم يعد الآن من يهدده..

لم يعد شيء يتعبه. . انتهى من اليهود، وله مع قريش عهد أن يستمر السلام عشر سنوات، أما غطفان فقد تخاذلت عن نصرة يهود خيبر ولن تستطيع أن تحالف أحداً ضده بعد.

والقبائل من هنا وهناك تدخل في الاسلام بعد أن زايلها الخوف منذ صالح قريشاً في الحديبية، ومنذ سقطت في يده قاعدة اليهود في خيبر. .

فليوجه دعوته الى الناس خارج الجزيرة وفي أطرافها النائية إذاً. .

ليوجه دعوته الى العرب في أطراف الجزيرة والى غير العرب بعد أن اطمأن الى مصير الدعوة بين عرب الحجاز. .

«يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض».

وأرسل الى قيصر الروم وكسرى الفرس. ومقوقس القبط في مصر. .

ثم أرسل الى أمراء العرب النائين. . الى صاحب نجد وصاحب البحرين وملك غسان.

دعاهم جميعاً الى الاسلام، وحملهم مسؤولية رعاياهم. . أما ملك الروم فقد أكرم رسل محمد ولكنه لم يعطهم رداً أي رد. .

وأما كسرى فقد مزق الكتاب وطرد الرسول، وكتب الى عامله على صنعاء أن يرسل الى المدينة قوة تقبض على محمد وترسله الى العاصمة في الأصفاد. ولم يقو حاكم صنعاء على هذا، وظل يراوغ حتى مات كسرى وتولى مكانه ابنه، فأرسل كسرى الجديد الى والي صنعاء: «امهل الرجل الذي كتب فيه أبي اليك فلا تقبض عليه حتى يأتيك أمري».

وأما مقوقس القبط في مصر فقد أكرم الرسول ومنحه مائة دينار وخمسة أثواب. ولكنه لم يرد على الرسالة بل بعث مع الرسول هدايا لمحمد فيها أثواب فاخرة من كتان مصر، وذهب، ومسك، وند، وقوارير، وعسل كثير، وبغلة شهباء، وفرس بلجام فضة، وحمار أشهب، وجارية سوداء مليحة اسمها بريرة، وجارية بيضاء جميلة اسمها سيرين، وفتاة من أجمل نساء مصر أبوها مصري وأمها يونانية اسمها مارية. .

وتقبل محمد كل هذه الهدايا عن طيب خاطر وأرسل يشكر المقوقس، وضم الهدايا الى خزانة الدولة، ووهب الجارية البيضاء شاعره حسان بن ثابت وعرض على مارية الزواج بعد أن أسلمت فقبلته. . وأصبحت من أحب زوجاته اليه، وسعد هو بهذا الزواج، انه أصبح صهراً لأقباط مصر. .

أما صاحب البحرين فقد اقتنع بالاسلام فأسلم ودعا رعاياه الى الاسلام، وأحسن صاحب نجد الرد على الرسالة وبعث مع الرسول ببعض الهدايا، ولم يسلم هو ولكنه أباح لمن شاء من رعاياه أن يدخل في الدين الجديد.

ولكن ملك غسان مزق الرسالة وأعلن التعبئة العامة وقال للرسول «أبلغ صاحبك أني سائر اليه، وأنه لن ينتزع مني ملكي».

ثم أرسل يستأذن قيصر الروم في غزو المدينة فلم يأذن له قيصر. .

وعندما اجتمعت عند محمد كل الردود. . رأى أن يعاود الكرة مرة أخرى وأن يرسل الى كل الذين رفضوه أو مزقوا رسائله أو اكتفوا من الرد عليه بارسال الهدايا فليرسل اليهم للمرة الأخيرة: دعوة السلام قبل أن يعلنهم بالحرب. . وأنه ليقاتل دفاعاً عن المستضعفين وفي سبيل العدل، ومن أجل حرية الانسان في كل مكان. . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً».

ولكن قبل أن يشهر هذه الحروب التحريرية فليرسل نداء الاسلام لآخر مرة: تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم. . !

٢٥

رسخت أقدامهم في أرض الجزيرة كما لم ترسخ من قبل أبداً بعد أن عادوا من خيبر فاتحين محملين بـالأسلاب والغنـائم، ووراءهم الأسرى الأشـداء والسبـايـا الجميلات وأصبحوا ذات يوم فاذا برجال ونساء وأطفال يقرعون عليهم الأبواب: الثياب غربية، واللسان عربي مبين. . !

انهم لبعض السابقين من أتباع محمد هاجروا الى الحبشة فراراً من أذى قريش، يوم أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت، وأوصدت كل المدن أبوابها في وجوههم، فلم يجدوا غير البحر مركباً، وغير نجاشي الحبشة حامياً لا يضام عنده أحد . .

هناك في تلك البلاد البعيدة أقاموا، وسعوا الى الرزق، ونشروا الدعوة التي هاجروا بها، وولد لهم جيل من البنات والبنين لم ير أرض الجزيرة، وان كان ليعرف أنه عربي .

وهناك تحت ثرى تلك البلاد البعيدة، أودعوا فلذات أكباد، وذكـريات عـزيزة، وأحياء كثيرين . .

فلما أتيح لهم أن يعلموا أن محمداً واخوانهم المسلمين، قد حالفوا قريشاً على أن يضعوا الحرب فيما بينهم، شدوا رحالهم واستأذنوا النجاشي، فحملهم بالهدايا من ماله الخاص، وبعثهم في سفينتين كبيرتين.

أقبل على رأسهم جعفر بن أبي طالب، فتى فارعاً جسوراً يحمل جسارة عمه حمزة وشجاعة أخيه علي، وقد أتيح له أن يتعلم من الحبشة كثيراً من فنون الحرب التي لا تعرفها العرب. . بأحد هذه الفنون صرع حمزة مفخرة بني هاشم!

وأقبلت معهم رملة بنت أبي سفيان: رأس الطغيان في قريش.

كانت هي الأخرى قد هاجرت مع زوجها منذ نحو عشرة أعوام، أنجبت هناك، ولكن المسيحية استهوت زوجها، فتنصر وطلق الشابة الحسناء، أم ولده، وتزوج امرأة حبشية نصرانية.. وعرف محمد وهو في المدينة قصتها.. فخطبها دون أن يراها، وأناب عنه النجاشي في عقد الزواج، وكان النجاشي قد بدأ يعتبر محمداً ملكاً على الحجاز فهو يعامله كما يعامل الملوك، ويقبل أن ينوب عنه.

ولم تكد رملة تعود الى المدينة مع المهاجرين بابنتها حبيبة، حتى تم الزواج..

وحين علم بنو أمية أن محمداً قد تزوج بنت كبيرهم أبي سفيان شعروا بشيء من الزهو: فمحمد الآن سيد المدينة، تتبعه خمس عشرة قبيلة من أقوى أهل الجزيرة.. وقال أبو سفيان: «هذا الفحل لا يجدع أنفه».

واستقبل محمد أتباعه العائدين بفرح كبير.. وأقام وليمة في بيته.. ليلة زواجه من أم حبيبة، بنت الثلاثين، وأعلن: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر، أو بقدوم جعفر».

فليأخذ جعفر مكانه الآن في طليعة الجيش الاسلامي ان كتب على هذا الجيش أن يقاتل من جديد.

ولكن الوقت لم يحن بعد لقتال جديد، وما من شيء يشغل محمداً قدر تدبير المعاش للذين عادوا من الحبشة. وكان بعضهم قد ألف الحياة هناك على عطايا النجاشي..

وطالبهم محمد بأن يعملوا ليأكلوا..

ولكن بعضهم مضى يسأل الناس ومنهم من زعم أنهم أحق بالصدقات لأنهم مساكين لا يجدون الطعام... وقال لهم محمد: «ليس المسكين هو من ترده الأكلة أو الأكلتان ولكن المسكين الذي ليس به غنى ويستحي، أو لا يسأل الناس الحافاً».

فليكفوا عن السؤال.. وليكف معهم هؤلاء العشرات الذين جاءوا من هذه القبائل أو تلك، وأقاموا بالمسجد، يتعبدون النهار والليل بلا عمل، معتمدين على أموال الصدقات..

لا يمكن أن تجري الأمور في المدينة على هذا النحو. يجب ألا يعيش أحد على

حساب الغير.. انه لا يريد من أحد أن ينقطع للعبادة ويقعد عن طلب الرزق ثم يسأل الآخرين طعاماً..

ليس هذا هو ما جاء به!.. انما جاءهم بما يرفع الرأس..

انما جاءهم بالكبرياء.. بأنه لا فضل لانسان على آخر الا بعمله..

وشعر بعض الذين كونوا من التجارة ثروات أن أمور المدينة لن تستقيم..

وبدأ الذين كسبوا من أموال الغنائم يكتزون أموالهم ويخافون أن تضيع في الصدقات فخرج محمد اليهم يطالبهم بأن يدفعوا.

انه ليطالب كل انسان بأن يعمل ليكسب عيشه، ولكن على الأغنياء ألا يكنزوا وعلى الذين أخذوا أن يعطوا.

وظل يقول لهم: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره طاو».. «أي رجل مات ضياعاً بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله». «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، من كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له، فلا حق لأحد منهم في فضل».. «من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» وهزت كلماته كثيراً من الأغنياء..

وعرض أحدهم أن يتنازل عن كل ماله للصدقات..

فقال له: أمسك عليك مالك فهو خير لك.. خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

ومضى هو الى المسجد فوجد فيه هؤلاء الذين انقطعوا الى العبادة وتعودوا السؤال.. فطالبهم بأن يعملوا وأن يكسبوا عيشهم، وأن يكون لهم مال يدفعون هم منه أنفسهم الصدقات لأبناء السبيل وللذين لا يستطيعون أن يعملوا ويجدون حرجاً أن يسألوا غيرهم شيئاً!

وحرم عليهم أن ينقطعوا الى العبادة ويتركوا السعي في طلب الرزق، فما جاءهم بهذا!! ليهتم كل منهم بأن يعمل ويكسب.

ليهتم كل منهم بأن يؤدي حقوقه.. كل حقوقه الى زوجته، والى أولاده.. ولتهتم النساء أيضاً بأن يعملن في طاعة الأزواج، فما جاء بعبادات تحرج الرجل من النظر الى امرأته أو تدفع الزوجة الى الضيق بزوجها!

لتتخذ الزوجات زينتهن أمام الأزواج، وليكن الانسان قوة منتجة صالحة، يؤدي ما عليه من عمل، ويستمتع من طيبات الحياة الدنيا بلا تأثم، في حدود ما جاءهم به فلا رهبانية ولا تنطع في الاسلام!. «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟».

فليتمتعوا بالطيبات من الرزق، وليكفوا عن الانقطاع للعبادة وليعمل كل منهم ما دام يستطيع أن يعمل فينتفع بعمله وينفع الآخرين، فخيرهم هو أنفعهم للناس.. ولينتشروا في الأرض سعياً عن الرزق بدلاً من الانقطاع للعبادة وسؤال الناس الحافاً.!

ان السؤال مذلة.. وما جاءهم الا بالذي يحرر النفس ويملأ القلب بالعزة.
اعملوا إذاً.. فان أشرف الكسب كسب الرجل من يده..

ولأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو الى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس!.

وذو الحجة يقترب من جديد.. قد مضى نحو عام على صلح الحديبية..
هذا هو موسم الحج إذاً..

وحشد محمد كل الذين صدوا عن مكة في العام الماضي، وأمر كل زوجاته بالاستعداد للرحيل معه.. وجهز الخيل المدربة على القتال!!

لئن كانت معاهدة الحديبية تسمح لهم أن يزوروا مكة من عامهم هذا ـ في أمان ـ فمن الخير مع ذلك أن يحتاطوا..

وخرج محمد مع رجاله في ملابس الاحرام، ومعهم السلاح..
وعندما اقتربوا من مكة قال من معه:

ـ لا تدخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريباً منا، فان رأينا منهم الغدر كان السلاح قريباً..

وأمرهم أن يلقوا السلاح قريباً من مكة وترك على حراسته مائتي رجل على خيلهم.

ولكن أهل مكة كانوا قد قرروا أن يذعنوا لشروط صلح الحديبية فتركوا محمداً ومن معه يدخلون في الاسلام..

دخل محمد مكة للمرة الأولى بعد سبعة أعوام. . كان على ظهر ناقته، ومن ورائه ومن حوله المهاجرون والأنصار. . القلوب تضطرم بانفعالات كثيرة. فأخذوا يطوفون بالكعبة، وقد وقف على جانبيها عدد كبير من سادة مكة ينظرون، وهم يتهامسون: ان الضعف يعصف بالمسلمين. . وقال محمد لصحبه: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة» وخرج يهرول في نشاط وهم يهرولون وراءه.

وعندما انتهى محمد وصحبه من الطواف أمر مائتين من رجاله أن يذهبوا الى خارج مكة فيرسلوا اخوانهم الذين يحرسون السلاح ليقضوا مناسكهم هم أيضاً.

وعلى الرغم من أن حكومة مكة قررت أن تقاطع المسلمين فلا بيع معهم ولا شراء، وعلى الرغم من أن بعض سادة مكة لم يطيقوا البقاء بها فخرجوا الى الجبال حتى يقضي المسلمون مناسكهم ويرحلوا عن مكة. وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد قائد فرسان قريش حذر أهل مكة أن يكلموا أحداً من المسلمين وخرج منها مع من خرج من سادة مكة، على الرغم من هذا كله، فقد انعطفت القلوب الى القلوب، فلم يكد بعض أهل قريش يلقون أهلهم المهاجرين حتى سقطت الأحقاد تحت الأقدام دفعة واحدة، وأقبلوا عليهم يعانقونهم ويحدثونهم ويكرمونهم ويسألونهم عما صنع بهم الزمان. .

ولقد أحسن المهاجرون الاستفادة من الوقت فدعوا كثيراً من أهلهم وصحبهم الى الدين الجديد وكسبوا عدداً منهم أقبلوا على محمد يعلنون أنهم يسلمون. كان من بينهم الوليد بن الوليد شقيق خالد بن الوليد. . أقبل على محمد مسلماً فأحسن استقباله ودعا له وسأله: «أين خالد؟ فقال «يأتي الله به» فقال محمد: «ما مثله يجهل الاسلام ولو جاءنا كان خيراً له ولقدمناه على غيره». .

وصمم الوليد ألا يترك أخاه حتى يقنعه بالدخول في الاسلام.

votes وروعت حكومة قريش مما تراه. . ها هم الرجال والنساء من أسر المهاجرين وأصدقائهم يدخلون في الاسلام أفواجاً!!.

وأقبل مندوب حكومة قريش على محمد يسأله أن يرحل فقد أقام المسلمون في مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك الحج والعهد في صلح الحديبية لا يسمح للمسلمين بأن يبقوا بعد. .

وأمر محمد رجاله أن يشدوا الرحال، ولكنه سأل مندوب مكة أن يسمح له بالبقاء يوماً آخر، فقد خطب امرأة من قريش ومن الخير أن يدخل عليها في مكة. وانها لامرأة شريفة عريقة وقد عرضت نفسها عليه فقبلها وهو يريد أن يقيم العرس في مكة وقال محمد «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين ظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟..

فأجابه مندوب قريش: «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا».

وخرج محمد ومعه صحبه.. وخلف أحد أصحابه فجاء بخطيبته ميمونة فلحقه في الطريق، وبنى بها بالقرب من مكة.. وهي ارملة جاوزت الخمسين من عشيرة خالد بن الوليد، ذات نفوذ واسع في قريش.

وفي الحق أنها لم تكن تملك من المزايا الأنثوية ما يثير غيرة أي من زوجاته! ولقد أقبلت عليهن بوقار سنها وهيبة نفوذها في قريش فأحسنَّ معاملتها.. ولم يجدن فيها منافسة جديدة بقدر ما وجدن فيها أمومة حانية.

على أنه أعلم زوجاته على أية حال أنه لا يحل له الزواج من بعد..

وعاد الى المدينة سعيداً بكل ما حدث..

لقد حقق للمسلمين أمنية عزيزة وقد تفتحت لهم هناك في مكة قلوب كثيرة على الرغم من تحذيرات حكومة قريش.

ان دخوله مكة ـ وحده ـ لكسب كبير يدوي صداه الآن بين القبائل جميعاً.. لقد أتاح لهم هذا الحج أن يحادثوا كثيرين من أهل مكة ومن أهل القبائل الأخرى وأن يدعوهم الى الاسلام.. وحتى الذين لم يستجيبوا بعد، لم يرفضوا الإسلام بمثل الغلظة القديمة فقد بهرتهم الانتصارات المتوالية عبر سبعة أعوام حين خرج محمد من مكة غريباً طريداً مستخفياً، الى مصير مجهول ليعود بعد ذلك حاجاً ضارعاً لا يخفي روعة جلال انتصاراته ولا قوته. ثم هذا الزواج من ميمونة بنت الحارث الشيخ، واسعة النفوذ في عشيرتها.. انه لكسب آخر!!.

وفي المدينة عاد محمد يكتب الى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية أن تعالوا الى كلمة سواء.

وأرسل الى أمير بصرى في سوريا يدعوه الى الاسلام.. انه ليعرف بصرى منذ كان

شاباً يخرج مع عمه أبي طالب في رحلات الشتاء والصيف.. وهو يعرف أهلها ويذكر عذاب الناس هناك تحت مظالم الامبراطورية الرومانية، ويذكر بصفة خاصة بحثهم الدائب عن العدل وعن حل انساني للفوضى الرهيبة التي يعيشون فيها.

وانتظر محمد أن يعود الرسول.. ليت أمير بصرى ـ ان لم يقبل هو الاسلام ـ يترك الناس أحراراً يختارون ما يشاءون..

وانتظر محمد عودة رسوله الى أمير بصرى..

وذات صباح وهو ينتظر عودة رسوله، أقبل عليه الوليد بن الوليد يخبره أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص أقبلا على المدينة يريدان مقابلته ليعلنا اسلامهما.

أخيراً يقبل خالد بن الوليد الذي دوخ جيوش المسلمين!!!

واستقبلهما محمد فرحاً.. هو ذا سيد فرسان قريش ينضم اليه آخر الأمر.. سيعتز به الاسلام كما اعتز بحمزة وعمر من قبل..

وقال محمد وخالد يعلن أمامه دخوله في الاسلام:

ـ الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك الا الى خيره، فقال خالد:

ـ يا رسول الله ادع الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك.. فقال محمد:

ـ الاسلام يجب ما كان قبله.

وخصص محمد دارا لخالد وداراً لعمرو بن العاص، ثم دخل هو الى بيته يستريح..

كانت النوبة لحفصة من بين الزوجات، ولكنه وجدها قد ذهبت الى بيت أبيها.. ولبث محمد في بيت حفصة، ودخلت عليه هناك زوجته المصرية مارية، كانت من أجمل نساء مصر.. وكانت حفصة وعائشة وزينب قد ألفن الغيرة منها..

وعادت حفصة فوجدت مارية مكانها فقالت له: «والله لقد سببتني وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك».

وحاول أن يسترضي حفصة فوعدها ألا يقرب مارية بعد أبداً ان كتمت عليه حفصة الأمر ولم تفض به الى غيرها من الزوجات.

كان يريد أن يتجنب انفجار الغيرة مرة أخرى.. فما يطيق أن تتحول الحياة الى دوامة الغيرة..

ووعدته حفصة أن تكتم عليه الأمر، ولكنها لم تحتمل عذاب الغيرة من مارية فروت لعائشة!.

وروت عائشة لزينب.. ويوماً بعد يوم عرفت صفية وكانت تعتز بجمالها هي الأخرى.. وعرف غيرها من الزوجات! لماذا يفضل مارية ويؤثرها بنوبة حفصة؟! مهما تكن المصرية عذبة رائقة فكل واحدة منهن تشعر في أعماقها أنها أجمل من هذه المصرية، فلماذا يؤثرها عليهن جميعاً ويدخلها في فراش صاحبة النوبة!.

وثارت الدوامة من جديد.. وانفجرت غيرة عائشة ضد كل الزوجات الجميلات لا ضد مارية وحدها.. ومن جديد اعتزلهن جميعاً شهراً كاملاً وطلق حفصة لأنها أفشت سره مع مارية بعد أن وعدته بالكتمان، وأطلقت غيرة زوجاته عليه وهدد الأخريات بالطلاق..

وخلال هذا الشهر.. كان ينتظر عودة رسوله من بصرى.. ولكن الرسول لم يعد أبداً..

وخرج هو الى زوجاته بعد أن أضناه النوم على الحصير الجاف يعلن أنه لن يحرم مارية على نفسه ابتغاء مرضاتهن!.

انه ليغفر لهن الآن على ألا يعدن الى تكدير الحياة عليه مرة أخرى.. ولئن عدن ليطلقهن جميعاً.. عسى ربه أن يبدله أزواجاً خيراً منهن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً.

واعتذرن اليه، وعاهدنه ألا يعدن الى تكدير الحياة بالغيرة.. وأعاد اليه حفصة.. عادت كل واحدة منهن الى مكانها في قلبه.

ورأى بعض أصحابه أثر الحصير في جنبه فقالوا له: «يا رسول الله ألا أذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً».

فقال لهم: «ما لي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

وجاءته الأنباء من بصرى أن رسوله اليها قد قتل!. ولكن الرسل لا يقتلون!!

أيسكت على هذه الاهانة فتسقط هيبة الدين الجديد بعد أن دعمها بشقاء الايام والليالي؟.

مهما تكن سطوة الامبراطور الروماني ومهما يكن من قوة جيوش الرومان فلن يسكت!.. وقرر أن يرسل جيشاً الى المدينة الرومانية التي قتلت رسوله.. ليؤدب قاتليه.. لقد عاد جعفر من الحبشة بعد أن درس فنون الحرب فيها، وانضم اليه خالد!. هذا هو يومهما.

وحشد ثلاثة آلاف مقاتل وأمرهم أن يسيروا الى سوريا وجعل القيادة لزيد بن حارثة.. ووضع في هذا الجيش ابن عمه جعفر بن أبي طالب.. وقائد الفرسان الشجاع خالد بن الوليد، والشاعر عبد الله بن رواحة ليلهب حماسة المقاتلين..
وحشدت الامبراطورية الرومانية مائتي ألف مقاتل!..

وتشاور قادة الجيش الاسلامي في الأمر حين وجدوا أنفسهم أمام كل هذا الحشد كيف يواجهون مائتي ألف في عدتهم وخيلهم وهم ثلاثة آلاف.

ورأى أحدهم ألا يدخلوا المعركة وأن يرسلوا الى المدينة يستشيرون قائدهم هناك ويطلبون الامدادات.

ولكن عبد الله بن رواحة الشاعر وقف بين الناس يؤدي دور الكلمة في المعركة.. وأنشأ القصائد يثير بها حماسهم ثم قال لهم: «ما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة».

وزحفت الجيوش الرومانية. والتقى الجمعان عند قرية مؤتة بالقرب من القدس.

واقتحم زيد بن حارثة المعركة والراية في يده ولكن الرماح الرومانية تلقفته فخر صريعاً عند أول اشتباك وهوت راية الجيش الاسلامي من يده وحمل جعفر بن أبي طالب

الراية، واقتحم عن فرسه فعقره وتقدم على قدميه يخوض بسيفه صفوف جنود الرومان.. وقطعت ذراعه التي تحمل الراية فأمسكها بذراعه الأخرى فقطعت فضم الراية الى صدره وهو يزحف، ولكن السيوف تكاثرت عليه حتى مات:

وتقدم الشاعر عبد الله بن رواحة بالراية فقاتل حتى قتل وهو ينشد شعره.

واضطربت القوات الاسلامية وانسحبت سريعاً قبل أن تسحقها الجيوش الرومانية الهائلة. وقرر قادة الجيش أن يسلموا الراية الى خالد بن الوليد. ورأى خالد أن يلجأ الى الحيلة لينجو بجيشه. ولم يحارب خالد بن الوليد في يومه ذاك.

وفي الصباح غير مقدمة الجيش، ووضع المؤخرة بدلاً منها وجعل الجناح الأيمن مكان الجناح الأيسر.. واقتحم المعركة ثم تقهقر.. ليستدرج جنود الرومان الى الصحراء..

وخيل للجيوش الرومانية أن المسلمين تلقوا امدادات جديدة.. وأنهم يريدون أن يوقعوا بهم في الصحراء، وحيث يمكن أن تكون السيطرة للعرب، فلا علم للرومان بدوربها.

ورأى الجيش الروماني أن يتجنب الدخول في حرب الصحراء حتى لا يقع في الفخ واستطاع خالد بن الوليد أن ينجو بالجيش كاملاً بعد أن تعرضوا للابادة الشاملة لبعض الوقت.. وعاد بهم الى المدينة.

وكانت قد سبقتهم الأنباء الى المدينة فاستقبلهم الناس منكرين، وأخذوا يحثون عليهم التراب، قائلين: «يا فرار!».

أما محمد فقد استقبلهم قائلاً: بل هم الكرار ان شاء الله.

ودخل محمد الى بيت جعفر.. فعانق أبناء جعفر الصغار وهو يبكي.. وذهب الى بيت زيد ولم يستطع أن يكتم دموعه حين رأى أطفاله.. ولبث عندهم قليلاً ثم خرج يواسي أهل الشهداء.. أما رجال الجيش فقد لزم كل منهم بيته لا يستطيع أن يخرج من وطأة احساسه بالعار اذ عاد منسحباً ولم يستشهد هناك!

واشتد أهل المدينة في اللوم على رجال الجيش..

ولم يطق محمد صبراً على هذا الحال فأعلمهم أن جيشه لم ينهزم وما كان لقائده أن يرمي به في المذبحة.

ما جدوى أن يموت ثلاثة آلاف مقاتل وينتهي الأمر وتتسامع العرب أن الروم سحقت عسكر المسلمين!! ان جيش الروم هو الذي عجز عن الاشتباك معهم حين استدرجه خالد الى الصحراء لقد صنع كل رجل في الجيش ما يستطيع، وعلى أهل المدينة أن يشكروا الجيش وأن يحمدوا لقائده خالد بن الوليد أنه استطاع أن يدافع الروم حتى انصرف بالجيش سليماً، ليأتي يوم يخرج المسلمون في عدد كبير فيظفروا بالروم!

وكف أهل المدينة عن الزراية بالجيش.. واستطاع رجاله أن يخرجوا من بيوتهم ليلقوا الناس.

ولكن نبأ انسحاب الجيش أمام قوات الروم، كان قد بلغ مكة.

وعلى الرغم من صلح الحديبية فقد وجدت حكومة قريش في انسحاب جيش محمد، فرصة سانحة للوثوب عليه.

ولم تفكر قريش في أن تجهر بالعداء ولكنها رأت أن تفتك بالقبائل الضعيفة التي انحازت لمحمد عسى أن ترهبها وأن ترد عنه حلفاءه الآخرين!

على أن قريشاً لم تسفر بالعدوان وانما أغرت حلفاءها بالوثوب على حلفاء محمد وأمدتهم بالسلاح، وببعض فرسانها، وهكذا وثب بنو بكر حلفاء قريش على خيام خزاعة حلفاء محمد، فنهبوها وقتلوا منهم عشرين مسلماً.

وأرسل الخزاعيون الى محمد يستصرخونه ويستنصرونه على قريش التي أيدت بني بكر.

وسمع محمد أنباء عبث قريش بصلح الحديبية فلم يقل شيئاً.. ولكنه أضمر أمراً..!

٢٦

اجتمع رجال قريش وتجارها الكبار يتشاورون بعد أن عرفوا أن خزاعة استنجدت بمحمد. ما العمل بعد؟! كل شيء باطل، وسينتصر محمد آخر الأمر بلا مراء. . !! لكأنه لا يقهر. . !!

لو أنه كان من الممكن أن يقهر، لسحقته قريش عندما ظهر، ولردعته ثقيف عندما طارده أهلها بالحجارة الى خارج أسوارها، أو بالقليل لاستطاعت الأحزاب المؤتلفة أن تقتحم عليه مدينته!!.

لئن كان قد هزم أمام جيوش الروم، لقد هزم من قبل في أحد. ومع ذلك فأين هو من تلك الأيام. ان خمس عشرة قبيلة لتتبعه الآن من بينها قبيلة بني سليم وبني المصطلق. . وكل القبائل التي ذاعت شهرتها الحربية في الجزيرة.

ومن الخير إذاً ان ترعى قريش صلح الحديبية، فقد كفل لها هذا الصلح طوال العامين الماضيين حياة أكثر استقراراً. فسارت قوافلها مطمئنة في رحلات الشتاء والصيف، وأمنت على تجارتها. .

ولكنها تضيق اليوم بهذه التجارة فالقبائل التي تنضم الى محمد ترفض أن تتعامل مع قريش.

وعكاظ وغيره من الأسواق التي كانت تزدهر في المواسم، وتكتظ بالحرير والكتان والتمر والفراء والتحف الذهبية وقطع السلاح. . والتي كانت تدوي بالقصائد الجديدة وأغاني المنشدات الفاتنات. كل هذه الأشياء التي كانت تمنح المواسم بهجة خاصة. . لم تعد بعد. . فالذين دخلوا في الاسلام قد قاطعوا أسواق مكة. وانهم ليتبادلون التجارة

فيما بينهم، وينقلون الازدهار الاقتصادي الى المدينة ويرسلون قوافلهم الخاصة التي تنافس قوافل قريش الآن الى الشام واليمن والحبشة والأسواق الأخرى التي كان يحتكرها تجار مكة وحدهم. . !

الناس كل الناس في مكة يعرفون هذا. . وآثاره تنعكس على تجارتهم وعلى مكانتهم الاقتصادية وعلى نفوسهم أيضاً. أما كبار التجار الذين يحكمون فيدركون أنهم يفقدون الأرض التي وقفوا عليها طويلاً وأنه لا سبيل على الاطلاق الى مقاومة الدولة المتزايدة الاتساع التي أنشأها طريدهم القديم. محمد بن عبد الله!!

وأما بقية الناس في مكة فقد أدركوا منذ زمن بعيد أن سلطان السادة في قريش يزداد عنفاً على رقابهم كلما أفقدهم المنافسون الجدد أحد الأسواق. . وأنهم ليعانون الآن من صلف السادة في مكة ومن سطوة القوانين ومن جشع المرابين ومن الحاجة التي تنهشهم. لكم كلفتهم الحرب ضد محمد. . ولكم تكلفهم هزائم كبار التجار أمام محمد. . وانصراف العرب عن أصنام الكعبة الى الاله الواحد الأحد الذي يدعو محمد الى عبادته هو وحده. . !

وفي كل يوم ينزل رجل منهم لدائنه عن الحرية بكل انسانيته ليصبح عبداً يمتلكه هذا الدائن. .

وفي كل يوم يسلم رجل منهم امرأته أو بنته الى أحد بيوت البغاء المنتشرة في مكة، ليدفع ديناً يطارده به أحد المرابين!.

وفي كل يوم يتمزق القلب المعذب. . بينما العبيد ينضمون الى محمد، فيصبحون أحراراً ويتساوون مع السادة في كل شيء. . فهناك حيث يقوم مجتمع جديد لا ربا فيه بعد، ولا سلطان للدائن على حرية المدين ولا على امرأته أو بناته. . هناك يستطيع عبد حبشي أن يقود رجالاً من أعرق الأسر وهناك يحكم زاهد فقير من بني غفار مدينة محمد اذا غاب عنها محمد. . وهناك يستطيع الرجل أو المرأة أن يكون ما يريد. . هناك يصبح الانسان هو ما يعمله. . عمله هو الذي يشكله، وهو الذي يحدد له مكانه. . العمل وحده، لا الغنى، ولا صداقة محمد ولا القرابة ولا شيء غير ما قدمت يداه. . لكم يبدو هذا كله عادلاً ورائعاً. .

وهناك يحض محمد أتباعه على أن يحرروا العبيد فهم ينقلون عنه أنه رأى أحد أصحابه يضرب عبده فغضب وقال له: «الله أقدر عليك منك عليه» فقال له صاحبه معتذراً: «هو حر لوجه الله» فقال له محمد أما انك لو لم تفعل للفحتك النار!!.. وهو ما برح يحضهم على تحرير العبيد ويقول لهم: «أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار» وهناك يطالبهم بأن يفروا لانقاذ المستضعفين في كل مكان وينذرهم ان تخلفوا، ويتلو عليهم: «الا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم».

لو أن محمداً قاد جيشه الى مكة، منتصراً لحلفائه بني خزاعة لانضم اليه كل المستضعفين الذين ما زالوا يمثلون غالبية السكان في مكة.. ولانضم اليه التجار الذين أوشكت أن تفقرهم منافسة المسلمين.

يجب ألا يحدث هذا!! يجب ألا يحشد محمد جيشه ويتحرك الى مكة!.. ليستمر صلح الحديبية وليجدد الى الأبد..

لقد حدث خطأ رهيب بلا ريب فما كان ينبغي أن تترك قريش حلفاءها يغزون حلفاء محمد ويقتلون منهم، وما كان ينبغي أن تظن قريش بمحمد الضعف بعد انهزام جيشه أمام الروم فتساعد بني بكر على بني خزاعة.. ولكن هذا الخطأ يجب أن يصلح. فلترسل قريش رئيس حكومتها الى محمد.. فلترسل اليه أبا سفيان نفسه.

ومضى أبو سفيان الى المدينة، فذهب الى ابنته أم حبيبة زوجة محمد.. لم يكن قد رآها منذ سنوات طوال.. منذ تركت مكة الى الحبشة.

وفاضت أشواقها وهي تستقبل أباها بعد غياب طويل، واطمأن أبو سفيان وأفضى الى ابنته بما جاء من أجله..

لقد جاء لا ليدخل في الاسلام كما يخيل اليها، ولكن ليأخذ العهد على رعاية صلح الحديبية فلا يعاقب محمد قريشاً بما صنعت، ولا يطالبها بدية القتلى لأنها لم تعد تحتمل خسائر مالية جديدة.

ودخل غرفة نومها وجلس على فراش زوجها وسألها أن تكلم زوجها في الامر،

وكان أبو سفيان يعلم حسن موقع ابنته عند محمد.. ولكنها لم تجبه بل طوت الفراش عنه..

وقال لها أبو سفيان: «يا بنية. والله ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟».

فقالت له ابنته: «بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ».

وردع أبو سفيان مما تقوله ابنته!.. من أين تنبع هذه الشجاعة الغريبة التي تنطق هؤلاء المسلمين بكلمات رهيبة حاسمة أمام من يجب أن يرتجفوا أمامهم.

مشرك نجس..؟ أأنت نجس يا أبا سفيان.. نجس كالرمة.. هكذا قالت لعمر بن الخطاب ذات يوم بعيد أخته التي كانت ترتجف منه قبل أن يدخل الاسلام قلبها.. وها هي ذي ابنتك الضعيفة تواجهك بنفس الشيء، وتطردك أيضاً.. ولكنها زوجة محمد..

ان هذا الاسلام ليملأ قلوب المستضعفين ـ حتى النساء ـ بشجاعة خارقة وخرج أبو سفيان يلتمس محمداً. فليحادثه بلا وسطاء.

وأتى محمداً، وحاول أن يكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، فذهب الى أبي بكر يسأله أن يكلم له صديقه محمداً، فرفض أبو بكر!

فجاء عمر بن الخطاب.. هو ذا عمر الصديق القديم.. لن يخيبه عمر..

ولكن عمر قال له: «أأنا أشفع لكم اليه؟! فوالله لو لم أجد لا الرمل لجاهدتكم به».

وانصرف حتى طرق باب علي.. ودخل عنده وهو ينظر الى ابنه الحسن بين يدي فاطمة.. وسأل علياً أن يشفع له فاعتذر علي، والتفت أبو سفيان الى فاطمة قائلاً: «يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب» فقالت فاطمة: «والله ما بلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله».

ومضى يقول لعلي في يأس: «انك لأمس القوم بي رحماً.. واني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني يا أبا الحسن.

فنصحه علي أن يقف في المسجد فيعلن أن قريشاً تحترم صلح الحديبية وترعاه.

وعمل بنصيحة علي . . ثم عاد الى قريش . . يروي لهم ما لاقاه . .

وسألوه هل أجاز محمد ما قلته في المسجد؟ قال: «لا» . . فقالوا له: ويلك ما زاد علي بن أبي طالب على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت» فأجابهم أبو سفيان: «والله ما وجدت غير ذلك» .

لم يقتنع أحد في المدينة أن قريشاً غير مسؤولة عن الخطأ الذي حدث . . ولكن الناس جميعاً في المدينة، شعروا في أعماقهم بالزهو لأن أبا سفيان طاغية مكة جاء اليهم بنفسه ينشد رضاهم .

أما محمد فقد أدرك أن أبا سفيان ـ بكل صلفه وكبريائه وعنفه ـ انما جاء يسعى الى المسلمين في مدينتهم معتذراً عن خطأ قريش لأن الأمور في مكة تسير على غير هوى السادة هناك . . ؟

ان مكة لتشعر الآن بالضعف، وهي من أجل هذا تسعى الى الرجل الذي نبذته وحاربته . .

ومحمد يذكر يوم دخل مكة حاجاً ورعاً في موكب المسلمين من المهاجرين والأنصار، انه لا ينسى أبداً كيف ظهر غريباً للناس هناك كل ما أقيل فيه: البساطة . . والمساواة . . والطريقة التي يتعامل بها المسلمون فيما بينهم على سواء . . انه لا ينسى نظرات الاعجاب بالمسلمين، ولا ينسى لهفة المستضعفين اليه، لولا الحصار الذي فرضته حكومة قريش عليهم! . .

ولكنه على الرغم من كل حصار كان قد نفذ الى قلوب الناس . . الرجال الذين فرضت عليهم الذلة يتمنون أن يرفعوا الرؤوس وأن يسيروا جنباً الى جنب مع الذين ولدوا في النعيم كما يحدث بين المسلمين . . النساء اللواتي يعمرن ليالي مكة بالغناء ويبعن أجسادهن للغرباء يتمنين أن يطفن في البياض، ناصعات طاهرات تضيء وجوههن بنضرة الراحة كما يحدث للنساء المسلمات: والتجار أيضاً . . التجار الكبار الذين أرهقتهم منافسة التجار المسلمين، يتمنون أن يدخلوا في المجتمع الجديد عسى أن يلعبوا دوراً آخر أهم من دورهم كتجار . . دور القادة في الدولة الجديدة! .

محمد يدرك هذا كله. . ويدرك أنه قد آن لدعوته أن تنشر ظلالها على مكة وستجد في مكة أتباعاً يدخلون فيها أفواجاً ان رفع عنهم سيف الارهاب. . وما له لا يدعو مكة الى الدين الجديد، وهي على الرغم من كل شيء، ما زالت مركز كل نشاط في الحجاز. . وما زالت القبائل تأتي اليها من كل فج عميق لتطوف البيت العتيق وتركع أمام أصنام الكعبة. . ؟

ليطهر هو هذا البيت للمسلمين وللطائفين وللركع السجود.

ان مكة هي عاصمة الحجاز حقاً. . فلتكن بكل ما تفضل به غيرها من المدن عاصمة الدولة الجديدة. . لتزدهر أسواقها من جديد، فكل طرق الجزيرة توصل اليها، ولترتفع عليها راية الاسلام.

ودخل محمد على أهله فأمرهم أن يجهزوه.

وبدأت كل زوجة تستعد للرحيل. . ودخل أبو بكر بيت عائشة فوجدها تحزم متاعها فسألها: «أأمركم رسول الله أن تجهزوه» فقالت: «نعم فتجهز (قال: أين ترينه يريد؟» فأجابته: «والله ما أدري».

وخرج أبو بكر فوجد محمداً في المسجد يعلن للناس أنه سائر الى مكة. . وسألهم الرأي فأيدوه جميعاً. .

وفرح المهاجرون. أخيراً ها هم أولاء يعودون الى مكة ليعيشوا ما بقي لهم من العمر في أرض الوطن!!.

وأمرهم محمد أن يتهيأوا وأن يكتموا الأمر لأنه يريد أن يبغت قريشاً. . وانطلق حسان بن ثابت يحرض الناس على الاحتشاد لغزو مكة للأخذ بثأر اخوانهم المسلمين من قتلى خزاعة. .

ولكيلا تتنبه قريش للأمر، حشد محمد بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا في الطريق المؤدي الى سوريا. .

وانطلى التمويه على قريش، وتسامعت أن محمداً أرسل جيشاً ليثأر من الروم. .

ثم انه وضع حراساً على كل الطرق المؤدية الى مكة لكيلا ينفلت من المدينة من

يحمل الى قريش خبر الحملة فيفسد التدبير. . غير أن أحد المهاجرين من الذين أحسنوا البلاء في بدر كتب الى قريش يخبرهم بالحملة، ودفع بكتابه الى امرأة. . وعلم محمد فأرسل وراءها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركاها في الطريق فسألاها عن الكتاب. . وأنكرت ولكن علياً هددها بالقتل ان لم تعترف. . وأخرجت المرأة الرسالة من بين ضفائرها، وعاد بها علي والزبير.

واستدعى محمد الرجل فسأله: «ما حملك على هذا»؟.

وأطرق الرجل والأسف يمزقه. .

ثم اعترف أنه أراد أن يصانع قريشاً لأن له هناك زوجة وأطفالاً صغاراً يخشى عليهم. .

وطلب عمر أن يضرب عنق الرجل لأنه قد نافق. . ولكن محمداً ذكر بلاء الرجل في بدر، فعفا عنه!. . وانصرف الرجل حزيناً. .

وأرسل محمد الى القبائل المسلمة يطالبها بأن ترسل اليه جيوشها. .

وعندما اكتمل له العدد الذي يريده خرج بعشرة آلاف رجل ذات يوم بارد من يناير سنة ٦٣٠، في حرص شديد على ألا يبلغ قريشاً عنهم خبر. .

وباتوا في الطريق، حتى اذا اقتربوا من مكة كان الليل يهبط بريحه الباردة.

وأذن محمد الناس أن يوقدوا النار. . وخرج عمه العباس بولده وزوجاته مهاجراً اليه فلقي محمداً على مقربة من مكة، واستقبله محمد مرحبا وعرف العباس منه أنهم يريدون مكة. .

وتمنى العباس لو أنه استطاع أن يلقى أحداً من الرعاة أو بعض الحطابين أو تجار اللبن أو أحد أصحاب الحاجة الذين يأتون مكة فيخبر أهل مكة بمكان محمد ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. .

وانه ليبحث في شعاب مكة عمن يحمل رسالته اذ به يلقى أبا سفيان، قد راعته النار التي أوقدها المسلمون فقال لرجل معه: «ليست هذه نار خزاعة». خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها». .

وتحدث العباس مع أبي سفيان في الأمر واقترح عليه أن يذهب وهو سيد مكة الى محمد فيستأمنه.

واقتنع أبو سفيان.. فعاد به العباس الى معسكر المسلمين..

ولم يكد أبو سفيان يدخل المعسكر على بغلة العباس حتى رآه عمر فانقض عليه صائحاً: «أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد»..

ولكن العباس نحى عنه عمر بن الخطاب.

واختلف العباس وعمر حول مصير أبي سفيان.. عمر يطالب برأسه والعباس يجيره. ومحمد صامت لا يتكلم..

وقال العباس غاضباً «مهلاً يا عمر والله لو كان من عشيرتك ما طالبت برأسه ولكنك قد عرفت أنه من رجالنا» فقال عمر منكراً: «مهلاً يا عباس، فوالله لاسلامك، يوم أسلمت كان أحب الي من اسلام أبي لو أسلم وما بي الا اني قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله من اسلام الخطاب لو أسلم».

وعلى هذه الكلمات الرقيقة التي قالها عمر صفت نفس العباس.

وقال محمد: «اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتني به..» وانصرف أبو سفيان مع العباس الى خيمته.

ومضى محمد يضع خطة دخول مكة..

قسم الجيش أربعة أقسام: الميسرة وعليها الزبير بن العوام، والميمنة وعليها خالد بن الوليد، والقلب وعليه أبو عبيدة بن الجراح.. أما الطليعة فقد جعل عليها سعدين عبادة.. كان كل القواد من المهاجرين الا سعد بن عبادة الأنصاري.

حتى اذا أصبح الصباح جمع محمد قواده وأمرهم أن يدخلوا مكة بأقل ما يمكن من الدماء، فما اختارهم من المهاجرين الا لأنه يعلم أنهم لن يثخنوا في أرض الوطن..

ولكن سعد بن عبادة خرج من عنده يتطوح متوعداً وهو ينظر الى مكة من بعيد قائلاً «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

أية حرمة يا سعد!؟

انها لحرمات هؤلاء القادة والجنود من أهل مكة! وحرمات محمد نفسه! . .

كم من رجال القبائل الأخرى يمنون النفس بسبايا من القريشيات الجميلات!

واتجه عمر بن الخطاب الى محمد قائلاً: «يا رسول الله، أسمعت ما قال سعد بن عبادة ما نأمن أن يكون له في قريش صولة».

فقال محمد لعلي بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها!».

وقبل أن يأمر محمد جيشه بالتحرك أقبل عليه عمه العباس بأبي سفيان فقال محمد: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله؟!».

وقال أبو سفيان . . «بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد».

- «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله . . ».

- بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . . أما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً . . فأرجئها».

ولكن العباس قال له: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك.

وما زال به يناقشه حتى أعلن أبو سفيان أنه قد دخل الاسلام . . فقال العباس لابن أخيه: يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً.

فأعلن محمد: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ووقف أبو سفيان يتأمل الجيش . . وينظر في رايات القبائل المختلفة متعجباً كيف استطاع محمد أن يضم اليه كل هؤلاء . . ثم انصرف يبلغ أهل مكة ما رآه وقال للعباس وهو ينصرف.

- لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

وأجابه العباس: «انها النبوة» فقال أبو سفيان ضاحكاً في اذعان «فنعم إذاً؟».

وأقبل اثنان من سادة قريش وتشفعا أم سلمة عند زوجها فكلمته أم سلمة فيهما

فقالت يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك، فأجابها: «لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال».

فلما سمعا رده قال أحدهما: «والله ليأذنَن لي أو لآخذن ولدي بيدي ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً». .

وسمع محمد ما يقوله الرجل وأدرك أنه مستعد أن يحمل أهله ويضرب في التيه كطريدي اللعنات حقاً، فرق له، وأذن لهما كليهما فدخلا عليه وأسلما. . انضما الى الجيش. .

أما أبو سفيان فقد وقف خطيباً في أهل مكة: «يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وصرخت زوجته هند بنت عتبة في وجهه تلعنه، وتنعته بألفاظ فاحشة أمام الجميع وتحرضهم على قتله.

أما الذين كانوا يتوقون الى لقاء محمد من سادة مكة فقد اندفعوا الى دار أبي سفيان وقد وجدوا السيف يسقط فجأة بعيداً عنهم.

أما الآخرون فقد كانوا يعرفون أن أبا سفيان هو ألد عدو لمحمد، وأشدهم عناداً وصلفاً فما باله اليوم يعلن أنهم لا قبل لهم بالجيش الذي جاء به محمد. .

وآثر بعضهم العافية ودخلوا الى دورهم ـ لا الى دار أبي سفيان ـ فأغلقوا عليهم أبوابها وقرروا ألا يقاوموا.

ولكن عكرمة بن أبي جهل نادى جيش مكة أن يخرج الى المقاومة.

وخرج فيمن استطاع أن يجمعه من الفرسان. . متجهاً الى الناحية التي يتقدم منها خالد بن الوليد.

وأمر محمد جيوشه أن تتقدم لتدخل مكة من كل أقطارها في وقت واحد على ألا يقاتلوا الا من قاتلهم. . ولكنه ذكر لهم عشرة رجال وامرأتين أمرهم أن يقتلوهم حيث وجدوهم وان وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

كان منهم جاريتان تغنيان بهجائه فتذيع أغانيهما هنا وهناك. . وكان منهم رجل

أسلم وعهد اليه محمد بكتابة القرآن، ولكن الرجل كان يغير في القرآن على هواه.. يمليه محمد «وهو السميع العليم» فيكتب وهو الخبير الحكيم.. ثم يذهب الى المنافقين في المدينة ويتندر بما صنع..

وظل يصنع هذا حتى اكتشف محمد أمره، فهرب الى مكة وظل يهزأ بمحمد وبالقرآن ويؤكد للناس أنه حرف كثيراً من آياته لم يكتشفها محمد بعد!

ورجل أخر كان محمد قد دفع له دية عن أخ قتل خطأ، فقبل الدية ثم وثب بالقاتل فاغتاله وهرب الى مكة.

ورجل ثالث كان محمد قد أرسله يجمع الصدقات وأرسل معه أحد أتباعه فلما جمع الصدقات أخذ يختلس منها وينفق على نفسه، ونبهه التابع فكبر عليه الأمر فقتل التابع وهرب بالصدقات الى مكة يسخر من محمد الذي يسوي بين السادة والأتباع وكان للآخرين جرائم مشابهة!.

وأعطى محمد إشارة البدء بالهجوم.. وتقدمت الجيوش الأربعة إلى مكة لا تلقى مقاومة.. وتقدم خالد بن الوليد بجيشه فاصطدم بجيش عكرمة..

وبعد ساعات قلائل كان خالد قد استطاع أن يهزم جيش عكرمة بعد أن قتل منه نحو عشرين رجلاً.. وفر عكرمة الى الصحراء.. وتقهقر جيشه المهزوم الى مكة.. فألقى الرجال السلاح، ولجأ بعضهم الى المساجد وأغلق بعضهم على نفسه باب داره، ودخل بعضهم دار أبي سفيان.

وفي الصباح التالي كانت مكة تفتح أبوابها على مشرق الشمس لاستقبال محمد.!

من هنا خرج وحيداً خائفاً يصحبه أبو بكر الى مصير مجهول وها هو ذا يعود اليوم فاتحاً ظافراً والى يمينه أبو بكر نفسه!!

ونزل من على جبل الصفا متجهاً الى الكعبة..

من على هذا الجبل نفسه ارتفعت دعوته.. كانوا اذ ذاك نحو أربعين رجلاً وامرأة..

من على هذا الجبل نفسه وقف وهو الأمين يحدثهم عن الوحي فقالوا انه كاذب هو

الذي لم يعرف عنه أحد من قبل غير الأمانة والصدق! . أبلغهم القرآن فقالوا عنه ساحر . .

دعاهم الى اله واحد فاتهموه بالجنون . . حدثهم عن النبوة فاتهموه بأنه يريد الملك، وعرضوا الامارة عليه فرفض فاتهموه باثارة الفتنة . .

من على هذا الجبل نفسه حمل اليهم رسالة القلم هو الأمي الذي لم يقرأ من قبل فقالوا عنه شاعر لبسته الشياطين . . ولكنه احتمل وظل يجذب اليه الذين تفتحت قلوبهم للدعوة واحداً بعد واحد! . لكم عانى في الليالي السود واحتمل! .

كان عليه أن يبلغ رسالة ضخمة .

ولقد أنذر بها: «انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً»، وحمل كل الأثقال وحده! في أرض الوطن وفي أرض الهجرة . . ولكنه يعود اليوم في عشرة آلاف . .

ومشى حيث طاردته الأوحال والسخرية والاهانة وزراية الأغنياء . .

وتقدم الى الكعبة وعلى وجهه ضراعة الحاج الورع، لا زهو الفاتح المنتصر وتمتم لنفسه وعيناه تدمعان . . «انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً» .

انه ليذكر كل شيء الآن . . ان هذه اللحظة القصيرة لتعكس كل حياته .

ان قصة ماضيه لتنفض الآن فجأة . . تذكر جده عبد المطلب وعمه أبا طالب . . وتذكر خديجة . . ليتها عاشت لترى هذا اليوم وتنعم ببهجة النصر التي شاركته الضنى في أيام الجهاد . . وتذكر عمه حمزة! . . ليته عاش ليرى . .

ودمعت عيناه من جديد! .

ولكن ما بال علي بن أبي طالب ينقض على رجل لينتزع منه شيئاً . . انه ينتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة . . لا . . ليبق المفتاح مع عثمان! .

ويندفع عثمان بن طلحة دامع العين متأثراً من عطف محمد، فيعلن دخوله في الاسلام . .

ويقبل بعض المسلمين يستشفعونه فيمن أمر بقتلهم فيعفو عن معظمهم . . أما

الرجل الذي حرف القرآن فيعلن توبته ويحرق النسخة المحرفة أمام الجميع!.

ولهو يتجه الى بئر زمزم ويشرب من مائها اذ برجال يقبلون فيشكون اليه جنده.. لقد نهب بعضهم.. وها هي ذي بنت صديقه أبي بكر قد نهب عقدها من على نحرها..

ويعلن محمد أنه سيعاقب من ينهب عقاباً رادعاً ويسأل بنت أبي بكر أن تحتسب عقدها الضائع.. انه ليعلم أن جيشه فقير.. وأن منهم لمن يطمع في مغانم مكة!.. ولكنه يعلم أن مكة حرام!.

ثم يطالب أبناء قريش المتخمين بثرواتهم بأن يدفعوا.. ويفرض على كل منهم قدراً من المال.. يوزع على المحتاجين من رجال الجيش ومن أهل مكة فيحصل كل محتاج على خمسين درهما! ولكيلا يشعر الفقراء بأنهم أقل ممن يعطونهم قال: ما الذي أعطى عن سعة أفضل أجراً من الذي يقبل حاجة.

ويطالب المسلمين بأن يشدوا شدة رجل واحد لتحطيم أصنام الكعبة.

ويتقدم هو لتحطيم أول الأصنام ويندفع من ورائه الرجال يحطمون مئات أخرى من الأصنام والتماثيل التي تملأ البيت العتيق.

ثم يعود الى خيمته ليعلن دستور مكة.. لا قتل بعد ولا قتال.. ولا ربا!! فليترك الناس ما بقي لهم من الربا وليكتفوا باسترداد أصل الدين.. ولتغلق البيوت التي يعرض فيها الرجال بناتهم وزوجاتهم وفاء بما عليهم من ديون!

وأقبلت نساء كثيرات يبايعنه.. وركعت أمامه امرأة صغيرة حسناء فأمر بأن تنهض فلا ركوع لغير الله.

بايعته على الاسلام وسألته العفو عن زوجها عكرمة.. وأمنها على زوجها فليعد من الصحراء آمناً.. واندفعت المرأة لتبحث عن زوجها في الصحارى المترامية ونظر هو الى النساء اللواتي يبايعنه فارتجفت احداهن قائلة: نعم أنا هند بنت عتبة!..

هند.. التي دفعت وحشياً لقتل حمزة ومثلت بجثته في أحد، ولاكت كبده وقلبه!.

وارتمت هند باكية على قدميه «اعف عني» وأطرق لحظة ثم تلا: «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وأعلن أنه يعفو عنها..

وبايعته على الاسلام وبايعه من معها من النساء . .

فلما أخذ عليهن العهد ألا يسرقن قالت: «هل تسرق الحرة؟ لكن يا رسول الله أبو سفيان رجل بخيل وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده» . .

وكان أبو سفيان حاضراً، فضحك عمر وهو ينظر الى وجه أبي سفيان . .
وقال أبو سفيان: أنت في حل مما أخذت . .
وعاهدن محمد على ألا يزنين فقالت هند: «وهل تزني الحرة يا رسول الله» ثم عاهدهن على ألا يقتلن أولادهن فقالت هند: «والله قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كباراً».
واذ ذاك ضحك عمر حتى مال. وبعد أن تعاهدن ألا يأتين ببهتان ولا يعصين في معروف استغفر لهن، وبايعهن عمر نيابة عنه.

وانصرفت هند . . ومن معها من النساء . . وتبعها نساء ورجال كثيرون يعلنون الاسلام ويأخذون عليه العهد أن ينفذوا تعاليمه.
وعاد الى الكعبة فوجد زعماء قريش بها يتشاورون. انهم الآن جميعاً في قبضة يده وما منهم رجل لم يسيء اليه . . ولكنه قال لهم: «يا معشر قريش . . الناس من آدم وآدم من تراب . . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . . يا معشر قريش ما ترون أني صانع بكم . .». قالوا: «خيراً أخ كريم وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وجاءه رجل كان قد بالغ في ايذائه وهو في مكة . . ولاحظ أن الرجل يخشاه ويهابه حتى ليرتعد أمامه، وابتسم قائلاً «هون عليك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة! .».
وضاق بعض المسلمين لأنهم كانوا يريدون أن يثأروا من أهل قريش . . وتهامس الأنصار أن دولة المدينة قد زالت فسيقيم محمد في مكة فهي بلده . .

ولكنه سمعهم فقال لهم «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

لن يغير عاصمته اذاً . . وسيعود الى المدينة . . لكن بعد أن يفرغ من تحطيم الأصنام التي تعبدها بعض القبائل المجاورة لمكة. يجب أن يهدم معبد العزى في وادي نخلة . . وأصدر أمره الى خالد ابن الوليد أن يستعد! . .

٢٧

انطلق أصحابه في ـ مكة ـ مدينتهم الكبيرة العزيزة التي ملأوها ذات يوم بالضجيج والزحام، والضحكات والغزل، يطلبون الى الناس أن يسلموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون مهما تكن جسامة ما سبقوا به من اساءات!

طاف أصحابه على التجار والصعاليك، وعلى البيوت التي تألقت بمرحهم في الأيام الخالية، فساقوا كثيراً من الأغنياء والنساء والخمارين ليعلنوا توبتهم مما سلف، وليدخلوا في الدين الجديد.. وأذنوا في مكة «من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن في بيته صنماً الا كسره أو حرقه فثمنه حرام».

وانقض أهل مكة على أصنامهم التي احتفظوا بها في البيوت يحطمونها أو يحرقونها!!..

لم تكن هي ما يصد بعضهم الآن عنه فما أغنت عنهم هذه الأصنام شيئاً، وما انتفعوا بما يعبدون كما انتفع المسلمون بمعبودهم هذا الذي يسمونه «الله الرحمن الرحيم!».

ولكن الذي صد بعض قريش عن محمد حقاً، هو ما يدعو اليه: أن يتساوى السادة والعبيد، وأن يعفو صاحب الحق عمن أساء اليه، ثم هذه الأخوة بين الناس مهما تكن أنسابهم وأحسابهم.. وقبل كل شيء هذا البذل من أموالهم من أجل المحتاجين وأبناء السبيل.

على أنهم وجدوا محمداً ينتصر، ويدخل عليهم مكة عنوة فما بقاؤهم بعد على مخالفته!؟

فلينضموا اليه، فربما جعلهم الاسلام أسعد حظاً وربما نالوا بعض المناصب أو المكاسب في الدولة التي يحكمها محمد! . .

ولم يشأ محمد أن يرفض يداً، متدلية بالمبايعة فما له من سبيل على القلوب . . وتقبل انضمام أهل قريش الى الاسلام بنفس راضية، وتطلعت عينه الى المعاقل البعيدة حيث ما زالت تقف أصنام أخرى، وتسود قيم أخرى . . لقد هدم تماثيل هبل واللات والعزى ومناة من فناء الكعبة ومن بيوت أهل قريش . . ولكمن ثمة معابد ضخمة لبعض هذه الآلهة في وديان متناثرة، حيث تعيش قبائل قوية يرفض سادتها المساواة ويقيمون نظامهم الاجتماعي على التحكم وسيطرة الغنى والحسب.

وجهز خالد بن الوليد بعدد من الفرسان وجهز غيره من القواد ووجههم الى هذه المعاقل.

واستطاع خالد أن يقتحم بفرسانه وادي نخلة، ودخل معبد العزى فحطم تمثالها الكبير، واذ ذاك برزت له من وراء التمثال امرأة عارية تصرخ وتولول . . وذعر جنود خالد وفروا . . فهذه هي روح العزى خرجت تنتقم ونصيب من يتعرض لها بالبرص!!
انها لا تموت!!

وعبثاً حاول خالد أن يحرر قلوب المسلمين الجدد من سيطرة تقاليد الوثنية! .

عبثاً حاول أن يقنع فرسانه بأن هذه التي برزت عارية انما هي امرأة:

امرأة تعبد عارية . . وهي من أجل ذلك ليست أخطر شأناً من نساء يبعن المتاع في بيوت عرفوها قبل الفتح في مكة كانت تخفق عليها الرايات!!

وتقدم خالد بنفسه الى المرأة ليؤكد لرجاله أنها مثلهم من لحم ودم لا روحاً خالدة . . امرأة يمارس معها كهنتها عبادة الجسد! وضربها خالد بسيفه، فسال الدم منها . . وماتت كما يموت كل النساء!

وتابع خالد حملاته على المعاقل الأخرى، كما اندفع رجال من المخلصين السابقين الى الاسلام مثل عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام، اندفعوا جميعاً يهدمون الأوثان ويدعون القبائل الى الاسلام.

ولكم مروا بقبائل مسلمة.. كانت عدواً له بالأمس..

كان عليهم أن يضعوا الثارات القديمة تحت أقدامهم وأن يقبلوا أخوة الذين خاصموهم بالأمس، ما داموا كلهم قد أصبحوا مسلمين! ان هذه الأخوة لهي روح الدين الجديد..

غير أن خالد بن الوليد مر بقبيلة كانت قد قتلت أباه، وخرج اليه رجالها في سلاحهم فسألهم عن دينهم فقالوا له صبأنا، وكانوا يعنون أنهم خرجوا عن دينهم القديم.. وأسلموا، ولم يرق له أنهم لا يصرحون بالاسلام.. أمرهم أن يضعوا السلاح، حتى اذا وضعوه أسرهم جميعاً، وقتل كما شاء.. وعندما بلغ محمداً أمر هذه المذبحة أعلن براءته مما صنع خالد، وأرسل علي بن أبي طالب ليسترضيهم ويدفع دية القتلى.. وعنف خالد بن الوليد وحاكمه.. فأكد خالد أنه لم يفهم قولهم «قد صبأنا» وما أغراه بقتالهم الا أنهم خرجوا اليه في السلاح..!

تبين محمد أن خالداً أساء الفهم وأساء تقدير الموقف فاكتفى بلومه وتعنيفه.

على أن خالد بن الوليد لم يكد يلقى عبد الرحمن بن عوف حتى عنفه عبد الرحمن وقال له: «انما ثأرت لأبيك» وأغلظ خالد بن الوليد لعبد الرحمن بن عوف وقال له «كذبت».. وبلغ ذلك محمداً فأرسل يستدعي خالد بن الوليد وقال له «مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك جبل مثل أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته».

واعتذر خالد، وبقي لحظة تحت طرقات الندم.. ان كبرياءه ليست فوق هؤلاء السابقين الى الاسلام، انه ليس فوق الخطأ ثم خرج فاعتذر لعبد الرحمن بن عوف.

وعاد علي بن أبي طالب بعد أن واسى جراح القبيلة التي فتك بها خالد يحمل أنباء استعداد الطائف للهجوم على مكة.

فوجىء المسلمون جميعاً بهذه الأنباء ولكنها تأكدت عند محمد.

والطائف بلد كبير مزدهر وغني كمكة، ولقد تحالف بعض تجار الطائف مع تجار قريش، منذ ظهرت في المدينة سوق تجارية.. وتعاونت التجارتان معاً في وجه المدينة.

ولكن تجار المدينة قد فتحوا مكة الآن وانضمت اليهم قريش، وأذعن أبو سفيان، فشعرت الطائف أنها مهددة بالضياع حقاً!.

وجمعت الطائف كل القبائل التي لم تتحالف مع محمد بعد وقررت أن تزحف الى مكة فتستولي عليها فيرث تجار ثقيف مكانة تجار قريش وتجار المدينة جميعاً.. وتحكم ثقيف الحجاز كله، ويصبح آلهتها ـ بدلاً من اله محمد ـ هم آلهة الجزيرة جميعاً!.

ودخلت فاطمة ذات مساء على أبيها لتجده مهموماً حزيناً يفكر.. يجب ألا ينتظروا حتى تدهمهم ثقيف وحلفاؤها بجنود لم يعرفوا مثلها من قبل.. عشرون ألفاً من خير المحاربين في الصحراء معهم العبيد المدربون وآلات جديدة للقتال زودهم بها فلول اليهود الذين تاهوا في الجزيرة يؤلبون ضد محمد ويبذلون المال والنصيحة والنساء والأدوات الحديثة الفاتكة!.

مهما يكن من شيء فيجب ألا ينتظر حتى يزحف الجيش الى مكة.. فمكة ليست ذات أسوار.

ولئن دخلوا مكة لسحقوا كل شيء، ولخربوا أرض الحضارة التي سقاها الشهداء بالدم المسفوك.

وقام محمد يستقبل ابنته فاطمة فقبلها وأجلسها الى جواره كما تعود وحاولت فاطمة أن تخفف عنه.. انها لا تبالي بالضرة!

ما هذا الذي تقوله فاطمة!.. في أي شيء تفكر هي إذاً؟!

واضطربت فاطمة فقد كانت تحسب أن أباها يعلم! ونظرت في وجوه أصحابه المقربين الذين يجلسون معه تسألهم بنظراتها ان كان أبوها لا يعلم.. ولكنهم كانوا ايضاً لا يعلمون.. لا أحد يعرف أن زوجها علي بن أبي طالب قد فتن بابنة أبي جهل الصغيرة الجميلة الغنية فأراد أن يتزوجها على فاطمة التي تعتل صحتها من كثرة ما تكابد ويزيدها أنها تصبح في أيام كثيرة وما لها من طعام تأكله!.

وقالت فاطمة «زعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي قد خطب بنت أبي جهل»!.

علي الزاهد!.

أبعد أن شاركته فاطمة اللحظات الحالكة من العمر وولدت له البنين. واختلطت دموعها بدموعه في أيام الهزيمة وتألق قلباهما بالأمل معاً.. أبعد هذا كله يضعف علي حين يدخلون مكة فيدير رأسه جمال بنت أبي جهل ويطمعه مالها؟!.

وأرسل يستدعي علي بن أبي طالب، وقد انتفض في جبينه العرق الذي ينفر عند الغضب، وغام وجهه من الضيق!

وأقبل علي فابتدره محمد قائلاً: «اني زوجت أبا العاصي من بنتي زينب فحدثني وصدقني ووعدني فوفى لي، وكذلك فعل عثمان، وان فاطمة بضعة مني واني أكره ما يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد، أجل يا علي.. فما جدوى زواجك من بنت أبي جهل.

لقد أعجبك حسنها، وفتنك مالها.. هذا هو كل ما في الأمر.. عليك أن تتركها أو تترك فاطمة، أم البنين!

وخرج علي ففسخ خطبة بنت أبي جهل.. وعاد يعتذر لفاطمة.

ومحمد ما برح يفكر في الجيوش الزاحفة ويستشير أصحابه.

ورجع علي منكس الرأس تحت وطأة الخجل، فأعلن أنه فسخ خطبة بنت أبي جهل.

ولم يكن الوقت صالحاً للحديث في الأمر مرة أخرى، فحدثه محمد عن القوات التي تحشدها ثقيف وسأله الرأي كما سأل الصحاب الآخرين.

وتشاوروا طويلاً، ماذا يريد أصحاب مزارع الطائف، وملاك البساتين وحدائق الكروم هناك؟. ماذا يريد أصحاب الحانات ومعاصر الخمور وتجار الرقيق وموردو أجمل الفتيات الى بيوت مكة! ماذا يريد الذين يكونون ثرواتهم من تربية الخنازير ومن الربا.

ليست السيطرة على مكة هي ما يحرك سادة ثقيف وانما البطش بمحمد وطمس كل تعاليمه، لتحرير مصيرهم وثرواتهم وحياتهم المترفة من تهديد هذه التعاليم!.

ان محمداً لا ينسى أبداً كيف طاردوه عندما ذهب اليهم منذ أعوام قبل الهجرة. لقد عذبوه وامتهنوه أكثر مما صنعت قريش، وحرموه حتى الماء ولم يتركوه ليستريح على

أسوار المدينة، وظلت الحجارة والسخرية تنهال عليه من كل جانب!.

حتى المستضعفين الذين فتح عيونهم على طريق الخلاص أغمضوا عيونهم عن الطريق.. كانوا هم أيضاً قد سقطوا تماماً في قبضة السادة ملاك البساتين والخمارات والمرابين ومصدري الجواري وتجار الخنازير.. ولم يعد يشغل عقولهم غير القيم التي فرضها السادة على الحياة جيلاً بعد جيل.

من هؤلاء المستضعفين. ومن مستضعفين آخرين من القبائل المجاورة للطائف؛ استطاع سادة بني ثقيف أن يحشدوا اليوم عشرين ألفاً من أفتك المقاتلين ليفتكوا بمحمد ويقتلعوه من الأرض وليستولوا على مكة والمدينة.. فيمتلكوا الكعبة وأسواق المسلمين..

ورأى محمد أن يخرج بجيشه الذي فتح مكة فيلقى حشود ثقيف وحلفاءها في الصحراء قبل أن يتمكنوا من محاصرة مكة.. فان جيشهم ليضم بقايا من اليهود الذين حملوا معهم الى الطائف كمل غيظهم من محمد وكل أحقادهم، وتقدمهم في صناعة السلاح، وفنون القتال انضم اليه من قريش ألفان من الرجال!..

واستعار من تجار مكة بعض الدروع والأسلحة.. وولى على مكة أحد شبانها من المسلمين القدماء.

وقاد محمد الاثني عشر ألف مقاتل.. ووصل بجيشه الى وادي حنين. والليل يهبط.!

وأمر جيشه أن يعسكر في الوادي وخرج محمد الى العراء يصلي بين خيمتين له؛ في احداهما زوجته أم سلمة وفي الأخرى زوجته زينب بنت جحش! لقد لقي الأحزاب من قبل وهو في مدينته، ولكن المقاتلين الذين جمعهم سادة ثقيف شيء آخر. وانهم ليخوضون اليوم معركتهم الفاصلة.

وفي هدأة الليل سمع المسلمون أصوات رجال ونساء يعسكرون.. كانت ثقيف وحلفاؤها يعسكرون في واد قريب.. وحمل هواء الليل البارد الى آذان المسلمين صوت رجل عجوز من معسكر الأعداء يقول لمن حوله: «ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير»..

كـان هو الشاعر دريد بن الصمة أقبل بأعوامه المائة بكل تجاربه لها في الفتك والمعارك! .

وارتفع من معسكر ثقيف صوت يرد على دريد: «سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم ماله وأهله ليقاتل عنهم».

وأدرك المسلمون مما سمعوه أن عدوهم يخـوض معركة الحياة أو الموت حقاً! .

وعلى أول شعاع من الفجر أمر محمد جيشه أن ينحدر الى الوادي الفسيح.

أمرهم أن يتبينوا طريقهم جيداً قبل أن يتقدموا حتى لا يفاجئهم العدو من شعاب المنحدر! .

انهم اثنا عشر ألفاً. . عشرة آلاف حققوا فتح مكة، وألفان من مكة.

وتقدم المسلمون. . في الطليعة خالد بن الوليد على رأس فرسان بني سليم على خيولهم الصهالة، مزهـوين بسمعتهم الحربيـة وبما حققـوه من انتصارات تحت رايـة محمد.

وتدافع وراءهم الجنـود صفا بعـد صف. . وقد أعجبتهم كثـرتهم وهم يملأون الوادي، حتى لقد نسوا أوامر قائدهم أن يتحسسوا طريقهم وألا يتقدموا خطوة الا بعد أن يتبينوا أنهم آمنون.

وفجأة. . وهم يتخايلون بكثرتهم انهمرت عليهم السهام كالأمطار من شعاب كل المنحدرات المحيطة بالوادي. وانفجر الرعب من كل المضايق وبرزت كتائب بني ثقيف وحلفائهم تحاصرهم من كل أقطارهم.

واضطربت الخيل والابل، وفر فرسان بني سليم من حيث أقبلوا. . وعماية الفجر تحجب عنهم الكتائب التي تهبط من مضايق المنحدرات المحيطة بالوادي. . وتتابع فرار الجنود المسلمين.

وتلفت محمد فجأة فلم يجد من كل جنوده الاثني عشر ألفا غير عشرات قليلة من المسلمين الأوائل ومن أهل بيته على رأسهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأسامـة بن زيد! ! . . ستبيدهم ثقيف جميعاً بلا مراء! .

وصرخ محمد في جنوده الفارين: «الى أين أيها الناس، هلموا الي.. أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله فقال له أحد من وقف معه في يأس:

«فلا شيء! حملت الابل بعضها على بعض فانطلق الناس».

وخلال الهرج تقدم رجل من المسلمين يحاول طعنه بثأر أب له مات في أحد. ولكن عمر قتل الرجل!

مرة أخرى كما حدث في أحد يعصونه ثم ينهزمون عنه. ويفرون.. من صحابة المقربين اليوم يلقى مصير حمزة!

وارتفع صوت أبي سفيان من بعيد يقول في شماتة وهو يجري ويغري من معه بالفرار: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.. وصاح أحد فتيان قريش وهو يفر ضاحكاً: «ما جئنا الا لنلتمس نساء الطائف الجميلات».

وتختلط صرخات الفزع بضحكات الشامتين ومحمد يصرخ في الناس بلا طائل.. ثم يندفع على ظهر بغلته ليقتحم كتائب عدوه ولكن عمه العباس يمنعه ويلوي زمام البغلة ويصيح العباس في الفارين بلا جدوى.. ويأمره محمد يا عباس: «أصرخ يا معشر الأنصار» ويصرخ العباس: «يا معشر الأنصار».

فتجيبه بعض أصوات «لبيك لبيك».

ان ألفين من قريش على رأسهم أبو سفيان اعتنقوا الاسلام خوفاً أو طمعاً، وقد جاءوا معه اليوم لا لينصروه بل ليخذلوه وليشيعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء!!.

وفي هذه اللحظات الحاسمة يتذكر بعضهم قتلاه الذين سقطوا قديماً في بدر ويحاول أن يعمل سيفه في المسلمين الأوائل!.

فلينذرهم إذاً..

فلينذر هؤلاء الألفين، وليعتمد على المهاجرين والأنصار الذين خاضوا معه المكاره خلال الأعوام القاسية الماضية، وخرجوا معه في كل مرة يبتغون الاستشهاد.. لا السبايا الجميلات والغنائم.

وظل العباس يستصرخ الأنصار..

وتـاب بعض الذين كـانوا يفـرون. . ورأوا العباس ومن معـه يحيطون بمحمـد ويجعلون من أجسادهم دروعاً له.

عادوا اليه. . واحداً بعد واحد. . الأنصار. . ثم المهاجرون. . وعـاد خالـد بن الوليد. . كلهم يقسم أن يدفع حياته اليوم تكفيراً عن الفرار. . حتى اذا اجتمع منهم مائة رجل جعلهم محمد تحت قيادة علي ابن أبي طالب، وأمرهم أن يخوضوا في قلب جيش العدو.

واندفع علي، فعمد الى قائد جيش العدو الذي يحمل رايته فضرب ناقته حتى اذا هوت به. بارزه علي فطعنه.

وسقطت الراية وسقط القائد. . فدبت الشجاعة في قلوب بعض الفـارين الذين وقفوا يراقبون المعركة من مشارف الوادي.

ووجدوا بعض النساء يندفعن من معسكر المسلمين فيقتلن رجـالاً من الأعداء. . واستحيى كثير من الفارين فعادوا. . وانضموا الى اخوانهم بينما كان علي وعمر والعباس يعمدون الى سادة العدو ويبارزونهم فيصرعونهم.

وأمر محمد جنوده العائدين بعد الفرار ألا يخوضوا معركة الوادي وليحاصروا العدو ويرموه بالسهام من المرتفعات.

ودب الذعر في جنود العدو حين وجدوا سادتهم يسقطون الواحد بعد الآخر. . وقلة من جيش المسلمين يتوغلون في صفوفهم والآخرون يحاصرونهم من مشارف الوادي.

وأسرع الرجال من معسكر العـدو يفرون على حين كـان معظم الـذين فروا من معسكر المسلمين يعودون حتى بعض الذين كانوا يسخرون في شماتة أول الأمر.

عادوا الآن بعد أن قدروا أنه من الممكن أن ينتصر محمد. . فليشاركوا في الحرب ليظفروا بـأسلابهـا وأمامهم الأمـوال والنساء الجميـلات. . بدلاً من أن ينتصـر محمد بدونهم، فيحاسبهم على الفرار!!

ولم تكد الشمس تميل للمغيب حتى كانت ثقيف قد انسحبت لتعتصم بمدينتها الطائف خلف حصونها. . وكان الصناديد من حلفائها يفرون تاركين النساء والأموال.

ووقع أحد فتيان المسلمين على دريد بن الصمة فهمّ بأن يقتله ولكنه لم يحسن استعمال السيف فقال له دريد بئس ما سلحتك به أمك، وعلمه كيف يستعمل السيف، وحين عرف ابن الصمة أن الفتى من بني سليم قال له: «اذا اتيت أمك فاخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم والله قد منعت فيه نساءكم» كان دريد في غزواته السابقة قد أعتق أمهات له ثلاثاً: أمه وجدته وأم جدته!!

وأمر محمد أن يوضع الأسرى والغنائم في مكان أمين.. وجعل بعض أصحابه حراساً على الغنائم والأسرى من النساء والأطفال، وقاد جيشه الى الطائف ليقتحمها على ثقيف التي اعتصمت وراء أسوراها!

وفاضت الذكريات من نفسه أمام هذه الأسوار!.. هنا في هذا المكان بالتحديد جلس يبكي بعد أن امتهنوه وطردوه من الطائف منذ سنوات طوال!

وأرسل محمد الى بني ثقيف من يطلب اليهم التسليم.. ولكنهم رفضوا وأقسموا ألا يستسلموا حتى يدخل عليهم الطائف عنوة.

وظلوا يرمون جيشه بالسهام.. والذين فروا عنه في أول غزوة حنين يتبارون الآن في الأعمال الفدائية أمام أسوار الطائف، حتى لقد فقد أبو سفيان عينه في بعض هذه الأعمال ولكن كل هذا كان بلا جدوى.

وقدر محمد الموقف، فرأى أن ينسحب بجيشه على أن يعود الى حصار الطائف مرة أخرى.

وبعد أن أنفق عشرين يوماً في الحصار، مضى عنها قبل أن يتحول الأمر الى هزيمة تفسد انتصاراته.. حتى اذا بلغ المكان الذي ترك فيه الأسرى والغنائم أمرهم أن يحصوا الغنائم فاذا هي ثروة ضخمة تبلغ أربعين ألفاً من الابل ومثلها من الغنم وأربعة آلاف أوقية من الذهب.. ثم أحصوا الأسرى فاذا هم ستة آلاف أسير معظمهم من النساء.

وأقبلت وفود القبائل التي حالفت بني ثقيف، تلتمس منه الافراج عن أسراها من النساء!

ولمح من بين الوفود وجهاً حبيباً اليه.. وذكر أمه فجأة!!

وشيئاً فشيئاً تذكر صاحبة هذا الوجه.. انها لمرضعته حليمة السعدية.

وقام مرحباً بها وقريش لها بردته فجلست عليها، واستجاب الى طلبها فافرج عن كل نساء قبيلتها ورد اليهم أموالهم. . بعد أن استأذن صحابه.

وكان لهذا العمل أثره في نفوس وفود القبائل فأعلن كثير منهم اسلامهم.

وعاد يحصي ما بقي من الغنائم والسبايا، وسمع همهمة. . أنه سيرد الغنائم والسبايا الجميلات الى أهلهن. . ففيم اذاً كان القتال!؟

لماذا إذاً بعدما فروا وأمنوا على أنفسهم، رجعوا وعرضوا أعناقهم على سيوف العدو أمام أسوار الطائف ان لم يكافأوا بالأموال ونساء ثقيف الفاتنات!؟

ولم يحفل بما يسمع. . وأرسل الى سيد بني ثقيف يعرض عليه أن يرد اليه نساءه وأمواله ان جاءه مسلماً.

على أي أمل يحاربه الآن سيد بني ثقيف وقد خسر الحرب والمال والأهل جميعاً؟!

وجاءه سيد بني ثقيف فرد اليه محمد ماله ونساءه وأولاده. . وأهداه مائة من الابل!.

وكسب محمد من تصرفه هذا أضعاف ما كان يمكن أن يكسبه من حرب مع الطائف. . فقد أعلن الرجل اسلامه. . فتبعه عدد من سادة ثقيف، وتشجع المستضعفون فيها فدخلوا الاسلام جميعاً.

وارتفعت الهمهمة من صفوف المسلمين أن محمداً سيرد الأموال الى أصحابها كما رد السبايا. . وبدأ محمد يسمع صيحات الاحتجاج والمطالبة بتوزيع الغنائم.

وفي الحق أنه لم يكن قد حاسب المسلمين على فرارهم بعد. . ولكنه حين سمعهم يطالبونه بتقسيم الغنائم أخذ يؤنبهم على أنهم خالفوه في أول المعركة ثم فروا عنه من بعد. . وصارحهم بأنه يعلم أنهم استخلصوا لأنفسهم بعض الغنائم من وراء ظهره!

ونصحهم أن يردوها فهذا خير لهم.

ورد كل واحد اليه ما كان قد خص به نفسه.

ولكن صيحات المطالبة بتوزيع الغنائم لم تهدأ، ولم تهدأ أيضاً صرخات الاحتجاج لأنه وزع هذه الغنائم على بعض من يريد أن يتألف قلوبهم.

وحاول عمر أن يقتل بعض المحتجين لأنهم يحاولون اثارة الفتنة ولكن محمداً أمره أن يتركهم وشأنهم ومضى هو يقنعهم بصواب ما صنع.. وزاد أن ميز بعض قادة قريش وقادة حلفائه الجدد بأنصبة أكبر عند التوزيع وقال للمسلمين الأوائل: انه انما يتألف قلوب المؤمنين الجدد أما القدامى فانه يكلهم لايمانهم ان قلوبهم لعامرة، فلا يجب أن ينظروا الى المؤلفة قلوبهم!!

وأرضتهم هذه الثقة..

ولكن بعض الأنصار لم يحتملوا أن يجدوا أنفسهم محرومين من الغنائم وهم الذين أنجدوه عند الروع بينما فر عنه رجال يميزهم اليوم مثل عكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب.. ومضى اليه سعد بن عبادة قائد الأنصار يقول له:

ان هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت. قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب.. ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء.. فقال محمد:

ـ فأين أنت من ذلك يا سعد.

وأجاب سعد «ما أنا الا من قومي يا رسول الله» وجمع محمد الأنصار فخطب فيهم فذكر فضله عليهم وفضلهم عليه.. ثم قال لهم:

ـ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالنساء والعبيد وترجعوا برسول الله الى رجالكم، فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار.

وسلك شعب الأنصار حقاً..

عادوا الى المدينة.. وفي الطريق الى المدينة مر بقبر أمه.

هنا ترقد أرملة صغيرة مات زوجها وهو يبحث عن الرزق، وعانت هي من بعده ورفضت الرجال لتربي ولدها اليتيم.

ثم ماتت هي الأخرى في الحاجة.. ولكيلا يموت آباء وأمهات آخرون في الحاجة

بعد، وانتفض هو يطالب بالعدل والحب، وبأن يكون في مال الغني حق معلوم للسائل والمحروم!.

ودمعت عيناه.. هو ذا الغلام الذي تركته يتيماً، يحمل اليوم مسؤولية التنوير.

تلين له الطائف، وتتبعه قريش وترتفع رايته على المدينة وعلى مضارب الخيام العديدة في الصحارى الشاسعة! وهو مع ذلك يشعر اليوم على الرغم من كل انتصاراته أنه يتيم حرم حنان الأبوين قبل الأوان وأنه على الرغم من كل شيء لا يملك أمام قبر أمه غير الدموع!!

وانطلقت قافلة الأنصار الى المدينة بمحمد في رحالهم.. بعد أن ترك في مكة عدداً من صحابه يفقهون أهلها في الاسلام.

٢٨

بعد عشرين عاماً من الضنى والجهد المتصل ومكابدة الأهوال، أصبح الذين طاردوه بالأمس أتباعاً خاضعين. . والذين سخروا به وسبوه وأغـروا به السفهاء أقبلوا اليوم يلتمسون منه نظرة أو ابتسامة. . أو أي شيء يشير الى رضاه عنهم. . البيوت التي أغلقت في وجهه تفتح اليوم والأسوار تلين، وأكاليل الغار تضفر!.

ولكن لا أكاليل الغار، ولا الملك، ولا أبهة السلطان ولا شيء من هذا كله، كان من بين ما يبحث هو عنه. . !

لقد جاء يحمل كلمات مضيئة الى الناس. . وما كان يلتمس غير الحقيقة.

وكل ما ينشده الآن هو أن يجمع هؤلاء العرب المتنافرين تحت راية واحدة ليكونوا أمة واحدة، يتحرر فيها الانسان من سيطرة كل قوى الظلام. .

وها هو ذا اليوم بعد عشرين عاماً، واجه خلالها الموت نفسه، وعانى من طمع الأتباع، وغدر الحلفاء، والوصوليين، والمنافقين وقسوة الخصوم. . ها هو ذا في مدينته التي اختارها منذ عشرين عاماً للحياة والموت، وما زال يوجع جسده الحصير. وما زال يقعد في البيت حتى يغسل ثوبه وما زال يشد بطنه على الجوع. . ووفود القبائل من هنا وهناك تقبل اليه في المخمل والحرير والبرد المنسوج بخيوط الذهب، تلتمس منه نظرة أو ابتسامة أو أي شيء يشير الى رضاه. . !

ويدخل عليه عمر بن الخطاب فيقول له «يا رسول الله ان الناس يزيدهم حرصاً على الاسلام أن يروا عليك زيا حسناً من الدنيا فانظر الى الحلة التي أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها».

ونظر محمد الى أبي بكر فيؤيد أبو بكر كلام عمر ويضيف «فليروا اليوم عليك زياً حسناً» ويبتسم هو قائلاً.. افعل والله، لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيتكما في مشورة أبداً.

ويقوم الى وفد الطائف.

جاء وفد الطائف يعلن الدخول في الاسلام ولكنه يريد أن يناقشه في بعض المسائل!.

انهم ليطالبونه بأن يبقي لهم آلهتهم لبعض الوقت.. فسيأتي الناس الى الطائف ملتمسين بركة هذه الآلهة وتقوم حولها سوق تجارية، بعد أن تخلصت الكعبة من آلهتها.

ولكنه يرفض.. ويخفف عليهم فيأمر غيرهم بتحطيم هذه الآلهة..

ويناقشونه في الزكاة ولكنه يصمم على أنها حق الفقير في مال الغني.. ويسألونه أن يجعل للطائف مكانة مثل مكة فبنو ثقيف ليسوا أقل من قريش.. فيعلن أن الطائف حرام كمكة.

وينصرف وفد الطائف.. ليقبل الشاعر الكبير كعب بن زهير بن أبي سلمى لكم تمنى أن يكسب الاسلام هذا الشاعر، والشعراء الآخرين الذين تتغنى الجزيرة بأشعارهم مثل لبيد وعمرو بن معد يكرب كما كسب الاسلام حسان بن ثابت من قبل.. لقد تألفت قلوب بعض سادة القبائل بمئات من الابل وانه ليبذل أكثر من هذا ليتألف قلوب هؤلاء الشعراء.. فما من سيف كان أمضى من قصائد الشعراء المسلمين في المعارك الكبرى.. وما من طعنات كانت أقسى عليه من أهاجي أعدائه الشعراء!.

وقام مرحباً لاستقبال كعب بن زهير.. وأنشده كعب قصيدة طويلة بدأها بقوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكول

ثم خلص منها الى الاعتذار عما سلف ثم مدحه بأبيات كثيرة حتى اذا بلغ من القصيدة قوله:

ان الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

هتف محمد معجباً. فقام الى كعب يعانقه وخلع عليه بردته.. البردة الرائعة التي أهداها اليه سعد بن عبادة!.

وعاد كعب بن زهير سعيداً بهذا اللقاء. يعلن اسلامه في كل مكان ويكتب القصائد في فضائل الدين الجديد.

ودخل محمد الى بيته ليلقى من ينعي اليه ابنته زينب.

لم يستطع أن يتمالك نفسه فبكى.. على أنه لم يكد يعود الى داره بعد أن واراها التراب، حتى كانت يد الحياة تمتد اليه لتأسو هذا الجرح الجديد.. ولدت له مارية المصرية ولداً ذكراً.. وهو الذي لم يعش له ولد من قبل.. وليس الذكر كالأنثى.. وأسماه ابراهيم!.

ولم يكن لديه وقت للبكاء ولا الضحك.. فالوفود تقبل بلا انقطاع تعلن الدخول في الاسلام وتسأله أن يرسل معهم من يفقه الناس في الاسلام.

كل المبادىء التي جاء بها لم تثر مناقشة مع أحد الوفود.. الا الزكاة من أجل ذلك رأى ألا يكتفي بارسال من يفقه الناس في الدين.. فالنظام الآن يتطور الى نحو آخر.

وبدلاً من هذه القبائل المتنافرة أصبح من المحتم أن تقوم دولة واحدة، عاصمتها المدينة.. دولة تؤمن بنفس القيم وتسودها نفس القوانين.. وينظم العلاقات فيها نفس الدستور.

وعين حكاما على القبائل والمدن البعيدة وعين عمالا للصدقات مسؤوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها.. من اليمين في أقصى الجنوب الى نجران على حدود بلاد الرومان، مضى رجال مؤمنون بالدين الجديد من صنف آخر غير الذين دخلوا في الاسلام التماساً لفائدة أو لمنصب.. رجال من الذين كابدوا وعانوا وواجهوا الموت في مواقع كثيرة، وفي رأس كل منهم ترسخ نصيحة محمد: احكم بالقرآن أو بالسنة أو اجتهد رأيك.. والأمر شورى بينكم لا تختلفوا أو لا تعلوا في الأرض مفسدين.

وكل عامل منهم يحفظ ما كان مع علي بن أبي طالب.

سأل علي: «يا رسول الله، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة» فأجابه: «اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقطعوا فيه برأي واحد».

ولكن بعض الذين دخلوا في الاسلام ليصلوا الى مغانم أو ليثبوا الى مناصب ساءهم أن محمداً يفضل عليهم رجالاً من الذين حاربهم في معارك سابقة وساءهم بصفة خاصة أن تفرض عليهم الزكاة، وأن يجعل للفقراء في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وكتموا السخط حيناً ثم انفجر سخطهم فجأة.

وانتقضت بعض القبائل على الأمراء الذين عينهم.. فسير محمد جيوشاً الى هذه القبائل ليخضعها.. كانت تميم في مقدمة المتمردين وحين ظفر جيش محمد عليهم ساق منهم الأسرى والأسلاب.. وجاء وفد تميم اليه ولم ينتظروا حتى يخرج اليهم كما تعودت الوفود بل أخذوا ينادونه من وراء الحجرات: «أخرج الينا يا محمد».

وضاق بعض المسلمين الأوائل من سلوك وفد تميم ولكن محمداً خرج لهم في مظهره الورع وثيابه البسيطة وهو يتلو: «ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون».

وقبل أن يسألوه العفو عن أسراهم طلبوا أن يناظروا رجاله فان انتصر عليهم رجاله أقرت تميم بالخطأ. وقام خطيب منهم يتكلم وأمر محمد أحد أصحابه أن يناظرهم فقام خطيباً عليهم.. ثم وقف شاعر تميم يفاخر فأرسل محمد الى حسان بن ثابت..

وأقبل يرد على شاعر تميم.. ودامت المناظرة طويلاً ومحمد ينظر الى رجاله في اعجاب ورضا حتى اذا انتهت المناظرة أقرت تميم بتفوق مناظريهم من المسلمين القدامى واعتذرت عما صنعت وسألته العفو ورد الأسرى وعاهدته على ايتاء الزكاة.

لكم تمنى محمد أن يجيء الشاعر لبيد في وفد تميم ولكن تميماً كانت قد اختارت شاعراً آخر غير لبيد:

وعلى أية حال فقد عاد الوفد بكثير من الهدايا.

وانتفضت مذحج.. كان وفدها قد جاء منذ حين ومعه قائدها الأسود فأعلنوا الاسلام.. وطمع الأسود في منصب. ولكنه لم يظفر بما طمع.

فيم أسلم إذاً ؟!

ولم يكد يعود حتى تشاور مع بعض أغنياء قومه في أمر الزكاة.. ما بقاؤهم عليها.. لم يدفعون من أموالهم هذا القدر كله، عشر غلة الأرض التي تسقى من السماء

أو العيون وشاة عن كل خمسة من الجمال وبقرة عن كل أربعين من البقر وسائمة عن كل أربعين من الغنم!.

وكان الأسود واسع الثراء قد طاف بكثير من البلاد وكان يعرف السحر فخرج على قومه ذات يوم ببعض الحيل السحرية كتلك التي رآها في بلاد زارها وذهل قومه. .فأعلن أنها لمعجزات النبوة. . فما هو الا نبي كفتى قريش!

وأعلن أن دينه الجديد يعفي الناس من الزكاة. . وتبعه الأغنياء وعبيدهم وكون جيشاً بماله وبمساعدة أغنياء قومه، وقتل الأمير الذي عينه محمد وزحف على اليمن فاستولى على صنعاء. . وانتزع زوجة الأمير المقتول، بعد أن قتل أباها أيضاً، وأخذ يسفل بالمسلمين ويفضح النساء. .

وروعت المدينة من هذه الأخبار فأرسل محمد الى الأمراء المجاورين أن يسيروا الى هذا النبي الكذاب فيقبضوا عليه ويرسلوه الى المدينة أو يقتلوه حيث ظفروا به.

وكان أحد هؤلاء الأمراء ابن عم أرملة الأمير المقتول التي اغتصبها الأسود وتزوجها على الرغم منها وضمها الى نسائه.

وكانت حسناء فاصطفاها من بين النساء وأقام لها بيتاً أثثه بمثل ما في قصور كسرى وقيصر وأقام عندها معظم لياليه. . وان كان قد أباح لنفسه ما شاء من فتيات يهتكهن في دورهن. . واصطنع لنفسه حراساً شداداً يحرسونه حتى في مخدعه. .

واحتالت الزوجة حتى أدخلت ابن عمها مخدع الأسود وهو نائم فطعنه ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فقام الأسود من نومه يصرخ في ذعر.

وأقبل الحراس فوقفت هي بالباب تصرفهم قائلة: «ان زوجي النبي يصرخ من شدة الوحي».

وانصرف الحراس مقتنعين بأنها نوبة الوحي، بينما أجهز عليه ابن عم زوجته.

وعندما قتل الأسود استطاع الأمراء المجاورون أن يطاردوا أنصاره الأغنياء وحراسه الأشداء، وعادت المنطقة كلها الى الاسلام. .

خلال هذه المتاعب جاءه وفد اليمامة. ومن بينهم رجل عجوز حكيم تعود منذ

أعوام طوال أن يركب حماره ويطوف بين الناس يدعوهم الى البحث عن الحقيقة.

وكان قومه يحتفظون له بالاحترام الذي تفرضه الحكمة والسن.. وكانت شهرته قد بدأت تتجاوز اليمامة وقد سمعت به قريش فاتهمت محمداً في أول ظهوره بأنه يتعلم من حكيم اليمامة.

وتأخر حكيم اليمامة «مسيلمة» وتقدم الوفد وحدثوه عن «مسيلمة»فقال لهم: «انه ليس شركم مكاناً».

وأعلنوا دخولهم في الاسلام وذهبوا الى مسيلمة فجاءوا به واستقبله محمد فأحسن استقباله.

وتحدث مسيلمة عما كان قد اهتدى اليه ثم سأل محمداً أن يقسم معه ملك الأرض.. وكان محمد ينكت الأرض بعود من سعف النخيل فقال لمسيلمة «لو سألتنيه لأبيته عليك».

وتحدثا طويلاً فشرح له محمد تعاليم الاسلام وأعلن مسيلمة أنه يقتنع بها..

وعاد مع قومه والياً على اليمامة.. ولكنه لم يكد يستقر في اليمامة حتى ضاق بالزكاة. وكان غنياً واسع الغنى، وحز في نفسه أن يكون والياً - أباح لنفسه من الأموال ما ليس له، واتخذ أبهة الملك.. فأقام له قصراً فاخراً وان ظل يحتفظ بحماره - تحت امرة محمد، وهو الذي ظل يبحث عن الحقيقة ويبشر بها قبل أن يدعو محمد الى دينه بثلاثين عاماً!.

فانتفض على محمد.. ودعا قومه الى دين جديد لا زكاة فيه ولا قيود.. لم لا يكتفي محمد بملك الحجاز، ويصبح هو ملكاً على ما بقي!؟.

وأرسل الى محمد كتاباً يقول فيه: «أما بعد فاني أشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون».

وسأل محمد رسولي مسيلمة.. فما تقولان أنتما فقالا «نقول كما تقول».
كان معظم أغنياء اليمامة في الحق يقولون كما قال..

وكتب محمد الى مسيلمة «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى

مسيلمة الكذاب، والسلام على من اتبع الهدى. أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

غير أن مسيلمة ظل يطلق على نفسه رسول الله.. وظل يتنقل على حماره بين القرى ـ كما كان يفعل المسيح ـ يدعو الناس الى دين آخر بلا زكاة؛ فهو المسؤول عن هذا الجزء من الجزيرة العربية»..

والأتباع يتزايدون من ورائه على حين أوشك محمد أن يوحد القبائل العربية جميعاً في أمة واحدة..

كل هذا التمزق، والمرض أيضاً.

ما زالت العلة تداهمه منذ ذاق الشاة المسمومة في خيبر!.. وها هو ذا اليوم يرقد موجع القلب مما يصنعه مسيلمة في اليمامة، متعب البدن من آثار السم.. وتدخل صفية عليه فتراه يشكو فتقول له: «لوددت أن الذي بك بي»..

وتسمعها عائشة وحفصة وزينب.. فيتغامزن عليها، هذه الزوجة اليهودية التي تحسن الدخول الى قلب الرجل بنعومتها! ويبصر بهن محمد فيقول لهن «مضمضن من تغامزكن بها، والله انها لصادقة».. ولكن عائشة تقول متهكمة «حسبك من صفية قصرها!» مرة أخرى تدفع الغيرة عائشة الى أن تسخر من امرأة مسلمة ألم تحفظ بعد: «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن».

فيلوي عنها وجهه في ضيق بغيرتها ويقول: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»..

ويشير اليهن أن ينصرفن.. فما تصلح اللحظة للغيرة، والمرض يرهقه، والأغنياء من المسلمين الجدد يرفعون راية العصيان ضده ويعطون الزكاة، والأنبياء الكذابون يمشون في الأطراف البعيدة.. ثم هؤلاء الروم أيضاً يحتشدون على الحدود!!

كل يوم تصل أنباء جديدة عن استعداد هرقل الروم!

ان هرقل ليشعر بنمو الأمة الجديدة ويدرك أن هذه الأمة ستكون خطراً عليه فرجالها

يقذفون أنفسهم على الأعداء بإرادة النصر لا يردهم شيء حتى الموت نفسه. انهم ليحاربون بحرص غريب على الموت. ولئن تركهم هرقل حتى يقبلوا فلن تقوم للدولة الرومانية في هذا الشرق قائمة بعد. فليبدأ هرقل!.

ورأى محمد ألا ينتظر حتى يقذف هرقل بجنوده عليهم وليدخل مكة أو المدينة. فليزحف المسلمون الى دولته ليخلصوا على بطشه بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

واستشار أصحابه، فأجمعوا أن يخرجوا للقاء جيوش هرقل وأن يقتحموا الى قلب دولته..

كانت الحملة تحتاج الى عدد كبير من الجنود، والى أموال كثيرة لتأمين امداداتها..

وأهاب محمد بصحابه أن يتطوعوا. فدفع أبو بكر كل ما يملك ودفع عثمان وعبد الرحمن بن عوف معظم ثروتهما الطائلة، ودفع عمر نصف ما يملك، واندفع من ورائهم المسلمون القدماء يتبرعون: النساء بحليهن والرجال بما يملكون.. حتى بالأقوات في بعض الأحايين.

وأقبل الناس على التطوع بحماس غريب ولكن عبدالله بن أبي وقف يعارض الحملة ويذكر الناس بما حدث في مؤتة: «أتحسبون لقاء الروم كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأنكم عند وصولكم أمام العدو المدرع قد أنهككم جهد الحال والحر والبلد البعيد!».

وعلى الرغم من فورة الحماسة التي حشدت كثيراً من الناس.. فقد هدت كلمات ابن أبي بعض العزائم.

انهم ليذكرون كيف أوشك جيش الروم أن يسحقهم في مؤتة!.

ثم هذا الحر!؟ لماذا لم يمهلهم محمد حتى ينتهي الحر؟ انه لموسم الحصاد أيضاً.. أيتركون الحصاد ليغامروا في بلاد مجهولة!؟

وترددت النداءات: «لا تنفروا في الحر»..

وتوالت الهمسات: «ما لهذا انضممنا الى الاسلام! أبعد أن أتاح لنا حياة ناعمة، أبعد أن أعطانا المناصب والجاه والغنى وكل ما يملأ النفس بالكبرياء يطالبنا بأن تنتزع أنفسنا من هذا كله لنخوض في الصحراء تحت شمس لا ترحم ونحارب الروم!؟

وبدأوا يعتذرون.. بعضهم يقول انه راجع نفسه فوجد أن ما يحركه الى القتال انما هو الطمع في الجواري الروميات، فهو يقعد إذاً خوف الفتنة!

ويهز محمد رأسه حنقاً عليهم وهو يتلو: يقعدون خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا! وبعضهم يطالب محمداً بأن يمهله حتى يفرغ من الحصاد.. وبعضهم يقول انه لا يجد ما يركبه.. وبعضهم ينصحه ألا يخرج الآن للحرب!.

ولكن محمداً أعلن الزحف.

وأذن للمرضى والضعفاء والذين لا يجدون ما ينفقون، أن يتخلفوا فما عليهم من سبيل، ولا على الذين لا يجدون دابة يخرجون عليها.. وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، «انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون».

وخرج معه كثيرون على الرغم من كل شيء.. ولم يجرؤ واحد على التخلف.. حتى ابن أبي نفسه..

ومضوا جميعاً يخوضون الصحارى الشاسعة.. الى الشام، للقاء جيوش هرقل.. وعلى الطريق لحق بهم أبو ذر ماشياً اذ لم يجد ما يركبه.!

ولكن عبد الله بن أبي انسحب بجزء من الجيش في بعض الطريق وانهارت حماسة الجنود، وأخذ محمد يشجع من بقي معه على السير.

وانطلقوا جميعاً الى حدود الشام تحت عواصف قاسية ملتهبة من رمال تشوه الوجوه والأبدان!

أما الذين انسحبوا فقد استقبلتهم النساء في المدينة بالعويل.. وحثوا في وجوههم التراب!!

وبدأ الندم يعصر قلوب بعض الذين هربوا.. ورأى رجل منهم نفسه ذات ضحى

يجلس تحت عريشة في الظل، وامرأة له تتزين وامرأة أخرى تدعوه. . فقام مروعاً يلعن نفسه أن يجلس في الظل بين امرأتيه، ومحمد يسعى في الهجير تحت لفحات الشمس. وركب وعاد الى الجيش.

وبعد سبعة أيام من السير المضني في الصحراء بلغ محمد وجيشه حدود الدولة الرومانية. وتقدم أمير المنطقة يعرض على محمد الصلح على أن يدفع له الجزية، وقبل محمد. .

ثم اندفع بجيشه فرحاً بهذا النصر الذي ملأ قلوب رجاله بالأمل والثقة بعد شقاء السير الطويل. .

وعلى أبواب مدينة منيعة اسمها تبوك وقف محمد بجيشه. . وكانت ضجة الجيش قد روعت قطعان البقر الوحشي التي ترعى في البوادي فاندفعت الى أسوار المدينة. . ورآها الملك هو وزوجته فقررا أن ينزلا للصيد في الليل. .

وأصدر محمد أمره الى خالد بن الوليد أن يقود هو الجيش للاستيلاء على حصون المدينة المنيعة.

وظل خالد يتربص، حتى اذا رأى الملك وزوجته وبعض الحاشية يخرجون للصيد تحت ضوء القمر. . هاجمهم جميعاً وقتل منهم وأسر الملك. .

واذ سقط الملك. استسلمت كل الحصون.
وأرسل خالد الى محمد طيلسان الملك.

وملأ هذا النصر الخاطف قلوب المسلمين بثقة جديدة غريبة، فانتقلوا من موقعة الى موقعة، وقهروا كل الحاميات الرومانية، وحرروا القبائل العربية هناك من حكم الرومان، وأعلنت تلك القبائل اسلامها. .
حدث هذا كله في عشرين يوماً. .

فاقترح عمر أن يعود الجيش الى المدينة مكتفياً بهذا القدر من الانتصارات ما دامت جيوش هرقل قد انسحبت منهزمة الى قواعدها البعيدة لتوقع المسلمين في المصيدة.

وأذن محمد بالرحيل . . وغادروا تبوك الى المدينة محملين بالغنائم . . وقد كسبوا الى الاسلام كل القبائل العربية التي كانت خاضعة لنفوذ الرومان.

وفي المدينة قرر محمد أن يعاقب الذين تخلفوا عنه وانسحبوا من الجيش فأعلن أول الأمر مقاطعتهم جميعاً، وحرم على الناس أن يكلموهم أو يتعاملوا معهم وظلوا محاصرين في القطيعة لا يكلمهم أحد . . حتى الزوجات والأبناء . .

وثقلت عليهم وطأة الاحساس بالذنب فأقبلوا يطلبون العفو.

ولكن محمداً كان قد صمم على أن يعاقبهم أشد العقاب . . هؤلاء الذين انضموا اليه بحثاً عن المكاسب وحدها . . حتى اذا جاءت ساعة الروع تخلوا عنه وآثروا لين العيش!

وتلا: «يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم. فأعرض عنهم انهم رجس، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون».

واقترح عمر أن تقطع رؤوس زعمائهم وفي طليعتهم عبد الله بن أبي.

ولكن عبد الله بن أبي كان قد مات. وأمام الموت، سقط الغضب وزالت الانفعالات، فلا عتاب بعد ولا عقاب.

وأقبل محمد يصلي على جثمان عبد الله بن أبي وعمر يحتج في عنف.

وأسكته محمد . . ولكنه خرج الى الناس بعد عدة أيام . . يأمرهم ألا يصلوا على أحد مات بعد من المنافقين والمتخاذلين، أو الذين دخلوا الاسلام ليثبتوا الى الغنى والجاه والسلطة.

واشتدت القطيعة عليهم حتى لقد هدد بعضهم بأن يمشي في الأرض بلا طعام حتى يهلك.

واذ استيقن محمد أنهم ما برحوا يملكون في الأعماق منهم ضمائر تستطيع أن

تعذيبهم. أصدر عفوه عنهم.. وأخذ عليهم موثقاً أن يخلصوا للناس ما بقي لهم من العمر.

ثم أخذ ينظم السرايا لردع الأغنياء الذين تمردوا على الزكاة ولتأديب الذين يريدون أن يمزقوا وحدة القبائل من جديد، بعد أن أعلن محمد في كل أنحاء الجزيرة بين القبائل: يأيها الناس أنتم أمة واحدة.

فلتعملوا بلا هوادة لتكونوا أمة واحدة، تحت راية واحدة..!

٢٩

أقبلوا على المدينة في ثياب خشنة، وجوههم يكسوها التزمت، والشعور مشعثة، وفي العيون طمع غامض، وقد نبذوا الثياب والعطر والزخرف والزينة التي ألفوها، عسى أن يقربهم هذا الزهد من قلب محمد، وينعم عليهم ببعض المناصب في الدولة الجديدة أو يحفظ لهم ما ورثوه أو يمكنهم من الأرض والثروة.. فاذا به يلقاهم في بردة حسنة، طيب الرائحة، منسق الهندام يفوح منه عطر هادىء باسماً حانياً يصافح بنظراته كل القلوب!!

وأعلنوا أنهم يدخلون في الاسلام.

وأخذوا يمدحونه، فطلب منهم ألا يمدحوه فما فسدت الدنيا من قبل الا لأن النابغين كانوا يمدحون من يتخذونه اماماً.

وبايعهم على الاسلام.. فقالوا له آمنا.. آمنا..!

بل قولوا أسلمتم ولما يدخل الايمان في قلوبكم!.. ان ما يشغل قلوبكم الآن هو التظاهر والمبالغة التي تبعد بكم في النهاية عن الحقيقة.. ان ما في القلب ليس هو الايمان بل هو البحث عما يوفره الايمان من مناصب وغنى! ولكن الايمان بذل لا نهب..

انه ليتألف القلوب. هذا حق.

ويمنح المال أحيان ولكن هؤلاء لمؤلفة قلوبهم ليسوا هم المؤمنين، وليس من حقهم أن يطالبوا بالمشاركة في مسؤوليات الحكم على أي نحو.. فلئن وثب الى السلطة بعض الذين يشغل قلوبهم شيء آخر غير الايمان، لقد تحولت المناصب إذاً من مراكز تشد أعصاب الدولة الجديدة وترسي قيمها وتؤكد العدل

والاخاء.. لقد تحولت المناصب إذاً الى أماكن للوثوب على حقوق الناس لاغتيال الأرزاق وتكديس الأموال، والاثراء على حساب الآخرين.

وإذاً ففيم كان هذا العناء طوال أكثر من عشرين عاماً..

فيهم كانت الصيحة في وجه الفوضى القديمة باسم المستضعفين في الأرض..!

أليحل جيل آخر من الأعراب مكان جيل آخر من السادة والمبتزين..؟

أتعرض المؤمنون الأوائل للموت، وما زالوا يبيتون ببطون خاوية، لكي يرث المتسلقون سطوة أبي جهل، ومال بني النضير، وكل الجاه الوحشي الذي فرضته الأوضاع القديمة؟.

أكان هذا الجهاد كله في سبيل تحرير العبيد والمستضعفين وكبرياء الانسان، لكي تأتي في النهاية أيام أخرى من العذاب تنشأ فيها طائفة من الأغنياء الجدد تستولي على المناصب، وتمسك يدها عن الفقراء وتمتلك الرقيق وتثري على حساب الآخرين، وتمارس باسم الاسلام كل ما انفجر الاسلام ليقاومه ويحطمه؟.

لا..!

فلتنفقوا مما تحبون، بدلاً من أن تكتنزوا الذهب والفضة والمال، وبدلاً من أن تبحثوا عما يمنحكم الجاه!.

ما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله، ولله ميراث السموات والأرض، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، والله بما تعملون خبير».

وطلب محمد من صديقه أبي بكر أن يذهب ليحج بالناس في عامه هذا، فما يستطيع هو أن يبرح المدينة والوفود تقبل عليه بطوفان من المطامع والمفاهيم الخاطئة يهدد القيم الفاضلة التي جاء بها!!

وسار أبو بكر الى الحج.. وبقي هو في المدينة يستقبل الوفود التي لا تنقطع ويعلم الناس المبادىء الأساسية في الاسلام، ويشرح لهم القيم الجديدة التي جاء بها، تعبيراً عن حاجة الانسان الى مجتمع أفضل، وأكثر عدلاً.

على أن أبا بكر لم يكد يمضي على رأس الحجاج في طريقه الى مكة حتى طلب محمد من علي بن أبي طالب أن يسرع ليبلغ أبا بكر والحجاج رسالة عاجلة تحدد علاقات المسلمين بالذين لم يسلموا بعد، وتضع قواعد للحج. . ان الذين لم يسلموا بعد ما زالوا يقبلون الى مكة ليطوفوا بالبيت الحرام وليشاركوا في النشاط التجاري الذي يبلغ أوجه في مواسم الحج. . لقد تكونت الآن طائفة من أغنياء المسلمين الجدد ممن أحسنوا استثمار الدين الجديد. . فليس من الضروري أن ترتبط مصالحهم بمصالح الأغنياء من غير المسلمين. . والا عرضوا الدولة الجديدة لهزة خطيرة. .

«براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين. . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم» «يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وان خفتم عيله فسوف يغنيكم الله من فضله».

ثم أكمل على بقية رسالة محمد الى الحجاج المسلمين: أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. .

وعاد علي وأبو بكر بالحجاج، بعد أن وصلت رسالة محمد الى كل الآذان، وبعد أن أصبح مفهوماً أن الذين يتظاهرون باعتناق الاسلام طمعاً في مكاسب من الدولة الجديدة، انما يحكمهم ما يحكم غير المسلمين. .

فليأذنوا بالحرب إذاً. . فقد صبر عليهم محمد أكثر من عشرين عاماً، ومنهم من تظاهر بالاسلام وغالى، واستغل ادعاءه حتى أثرى، وما زال قلبه يشغله الطمع في المزيد. . انهم لأثقال تعيق انطلاق الأمة الجديدة التي يسودها اليوم نفس القانون وتحكمها نفس القيم الروحية. .

لقد مات عبد الله بن أبي، ولم يعد هذا النفر يجدون فيما بينهم من يصلح للتعبير عنهم. . لكم صبر محمد على زعيمهم ذاك؛ ولو شاء لتركه لسيوف المؤمنين الأوائل تمزقه!.

ولكنه صلى عليه حين مات. . ولم يحس المنافقون الآخرون فهم موقف محمد من عبد الله في الحياة وبعد الموت؛ فانطلقوا في المدينة من جديد يتحدثون عن ضعف محمد. . عن علمه بما يرتكبه بعض الوصوليين من الذين لم يدخل الايمان قلوبهم، ثم سكوته عنهم خوفاً او مصانعة!!

وتلا عليهم جميعاً: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

وبدأت الرؤوس ترتفع بالتمرد في أطراف الدولة الناشئة. . مسلمون جدد يرفضون أن يدفعوا الزكاة والصدقات، وبدلاً من أن يحرروا ما عندهم من عبيد كما حضهم محمد، بدأوا يقتنون مزيداً من الجواري والغلمان، وينهبون حقوق الفقراء!.

وأنذر محمد المنافقين في المدينة أنه سيأخذهم بمثل عقوبة الأعداء في كل ما يقترفونه أثناء الحياة، وأنه لن يصلي على أحد منهم مات أبداً!

وأعلن أن من يعدون على حقوق الغير ويعطلون الأحكام التي جاء بها لتحقيق العدالة أو يدمرون مبادىء الأخاء التي تجعل من العرب المتنافرين أمة واحدة، انما هم المفسدون في الأرض، وما جزاؤهم الا أن تقطع أطرافهم. .

وسير الحملات الى الأطراف البعيدة التي أعلن أغنياؤها التمرد وامتنعوا عن دفع الزكاة والصدقات. واستطاع هؤلاء الأغنياء بنفوذهم التقليدي الموروث أن يسوقوا المستضعفين الذين شرعت الزكاة لمصلحتهم ولكي يحاربوا دفاعاً عن الحرمان!. .

على أن هذه الحملات بقيادة خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب استطاعت أن تحصد رؤوس التمرد. . فأقبل المستضعفون المقهورون يجددون البيعة على الاسلام.

وتلفت من حوله الى شؤون المدينة فلاحظ أن بعض المسلمين، قد أثروا أكثر مما يجب من التجارة، وأن بعضهم يحتكر تجارات بالذات فأعلنهم «المحتكر ملعون».

ومضى يأمرهم بأن ينفقوا مما يكسبون. . ومضى صحابته المقربون يعلمون الناس مما علمهم ويضربون الأمثال في البذل، حتى المقربون يعلمون الناس مما علمهم

ويضربون الأمثال في البذل، حتى لقد أراد أحد المسلمين أن يكفر عما كنز فسأل أبا بكر: كم تجب الزكاة في مائتي درهم؟.. فقال أبو بكر: «خمسة دراهم.. أما نحن فيجب علينا بذل الجميع».

وفي تلك الأيام التي سادتها الرغبة في المتاع بما كسب المسلمون من غنائم، شن محمد حملات قاسية على الغنى، ومن أجل المساواة حتى لقد رجع غاضباً من على باب فاطمة حين رأى ستاراً موشياً على الباب وخاصمها الى أن باعت الستار وتصدقت بثمنه، وخاصمها مرة أخرى لأنه رأى في يديها سوارين من فضة وفي المدينة فقراء..

وباعتهما بدرهمين ونصف وأرسلت الثمن الى أهل بيت بهم حاجة!.. وشن حملة المساواة نفسها على الوفود التي أقبلت تجدد البيعة.

وعندما كان يستقبل آخر هذه الوفود والراية الواحدة ترتفع أمام عينيه على أشتات القبائل المتفرقة، والفرحة تغمر قلبه بآخر انتصاراته، أقبل من بيت مارية من يطلبه.. ان ابنه الوحيد ابراهيم يعاني وطأة مرض غريب!..

ومات ابنه ابراهيم على ذراعيه.. الطفل الذي طالما علق عليه كثيراً من الآمال.

وسالت دموعه.. دموع أب لم يعد له أمل في أن ينجب ولداً آخر بعد!.

لماذا يجب أن يحدث له مثل هذا؟ ولكنه قال في استسلام مذعن: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يحزن الرب ولولا أن الموت وعد صادق وموعد جامع؛ فان الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا ابراهيم وجداً شديداً ما وجدناه؛ انا لله وانا اليه راجعون..».

وخرج يشيعه حتى القبر، في صمت فاجع ودمعه يسيل.. وعجب بعض أصحابه لبكائه هذا.. ان الميت طفل صغير وهو.. هو الشيخ الذي يقترب الآن من الثالثة والستين.. هو بكل جلاله لا يليق به أن يبكي!!

واقترب منه عبد الرحمن بن عوف وقال مستنكراً: «أولم تكن نهيت عن البكاء؟».
ولكنك لا تدري..

وأجابه: «ما عن الحزن نهيت، وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء.. وان ما

ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة، ومن لم يد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة».

وسوى التراب على جثمان الطفل، ووقف الأب الثاكل يصلي عليه.. وكسفت الشمس ولم يعد للنهار لون الضياء..

وعندما انتهى من الصلاة سمع الناس يتناجون وهم عائدون به الى المسجد: ان الشمس كسفت حزناً على موت ابراهيم..

لا.. يا أيها الناس لا تلصقوا بي ما ليس لي.

وقال لهم مغضباً: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته».. يا أيها الناس لا ترفعوني فوق مكاني.. لا تطروني «انما أنا بشر مثلكم».. «واني لأكره أن أتميز عليكم».

وعاد الى بيت.. مارية الأم الثكلى فواساها..

أما هو فلم يفلح أحد على الاطلاق في تخفيف لوعته على ابراهيم..

على أنه لم يعتزل الناس، بل خرج الى المسجد.. منهكاً هذه المرة..

عاد يحدثهم عن الحياة والموت والعدل والرحمة والاخاء، ثم يسكت قليلاً ليمسح دمعة خلطت لحيته.

ما رؤي حزيناً من قبل كما رؤي في تلك الأيام.. لماذا أصبح للحياة رنين مؤس كالوداع..؟

***

والألم الذي عرفه منذ سم خيبر يعاوده من جديد.. ولكنه لا يريد أن يستسلم لأية آلام.. لا لآثار السم التي تنهشه في بطء ولا للأحزان التي تعصر كبده بقسوة..

ان هؤلاء الناس العائدين من المدينة ومكة وكل مضارب الخيام وكل الأطراف البعيدة.. انهم في حاجة الى اجتماع ضخم يتلاقون فيه تحت راية واحدة يفعلون معاً نفس الأشياء بنفس الايمان ليعمق فيهم الشعور بالوحدة..

انهم جميعاً. . هؤلاء الذين يتحمل هو مسؤولياتهم لفي حاجة الى تدعيم التعاليم التي جاء بها. .

وأعلن أنه سيخرج الى الحج من عامه هذا. .

وسالت الجبال والوديان بعشرات الآلاف من الحجاج يسوقون أمامهم الآلاف من الهدى سالت بهن الأباطح. .

والتقى الجميع في مكة. .

وأخذ محمد معه كل زوجاته. . وتقدم أكثر من مائة ألف من الحجاج ليلتقوا به في مكة، وهو أمامهم يعلمهم الشعائر التي يجب أن يتبعها الرجال والنساء على السواء. . يعلمهم الاحلال والاحرام ويشرع من خلال ما يأمر به زوجاته ما يجب على المرأة الحاجة. .

ومن على قمة الجبل ارتفع صوت أكثر من مائة ألف مسلم لأول مرة يردد نفس الكلمات «لبيك اللهم لبيك. . لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك». .

وطاف أمامهم وسعى أمامهم. . وهم من ورائه يصنعون نفس الأشياء. . ويقولون نفس الكلمات، باحساس جديد خارق، بأن تمت ما يجعلهم أمة واحدة.

وعندما انتهت مراسم الحج عاوده الألم والحزن من جديد. .

لم يكن حزناً على ابنه الراحل هذه المرة. . ولكن شيئاً في أعماقه ملأه بأسى الوداع. . لكأنها حجة الوداع. . لكأنه لن يرى هؤلاء الناس، ولا هذه الأماكن مرة أخرى.

وغلبه الألم. .

ولكن. ما زالت في الأعماق منه أشياء يريد أن يقولها للناس.

والتف الناس من حوله. . مائة ألف جاءوا من كل مكان في الجزيرة يريدون أن يروه وأن يسمعوا صوته. ان لصوته رنة من السماء. . فيقول: «انما أنا بشر مثلكم».

ولكن همسات الآلاف تبلغه:

«ان في وجهه نوراً من الغيب، ويده تمس الصخر فيتفجر منه الماء». ولكنه حين يسمع هذا يغضب وينفر العرق من جبهته وينهي الناس عن أن يضيفوا اليه ما ليس له.. انه يقول: «انما أنا بشر مثلكم». بشر يحب الطيب والنساء وقرة عينه في الصلاة!.

بشر جاء بمكارم الأخلاق.. هكذا يقول دائماً.. وانه ليضحك ويبكي ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويستشير الناس لكيلا يخطىء، وينزل عند رأي الغالبية، ويغضب ويرضى، ويرفض أن يقبل يده أحد انه بشر لا يفجر الماء ولا يضيء الظلمات.. بشر من لحم ودم وأعصاب، وانما جاءكم بمكارم الأخلاق.. فلا تغضبوه أيها الناس.. لا تقولوا له سيدنا، فانه ليغضب من هذه الكلمة وينهي عنها..

وهدأت حركة الأعناق المتطلعة اليه.. هذا الرجل الذي يؤاخي بين العبيد والسادة، وبين المساكين والملاك الكبار ويجعل من الصدق والأمانة والوفاء دستوراً للعلاقات بين الناس، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه.. ويؤكد دائماً أنه بشر.. كالآخرين!.

وارتفع صوته يخطب في الناس الذين أقبلوا من كل مكان ليحجوا معه، وليروه ويستمعوا اليه..

ولكن صوته لم يبلغ الناس.. فأمر أحد الذين وقفوا الى جواره أن يردد ما يقوله بصوت مرتفع.. وليردده ثالث ورابع وآخرون حتى يسمع الناس جميعاً وعبرت كلماته من رجل الى رجل: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً».

ووجم الناس.. لعله لا يلقاهم بعد عامه هذا أبداً.؟

أممكن هذا.؟

ولكنه يقول لهم دائماً «انما انا بشر مثلكم». «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل».

وارتفعت الأصوات بكلماته: «ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان كان ربا موضوع،

وان لكم رؤوس أموالكم لا تظلمـون ولا تظلمـون. . قضى الله أنه لا ربا، وان ربـا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وان كل دم في الجاهلية موضوع. . أما بعد أيها الناس، فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً. . استوصوا بالنساء خيراً فـانهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله. . فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت. . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً. . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ اللهم أشهد. ».

وسكت قليلاً ودهمته حمى مفاجئة، ولكنه تلا عليهم: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا».

ومال الى الكعبة فجلس في ظلها. . وهناك وجد مظاهر الغنى تبدو على بعض الناس، ومظاهر الفقر تميز الباقين. .

وجاءه أبو ذر فوجده يتلو: والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم». ثم مال الى أبي ذر وصاح: هم الأخسرون ورب الكعبة» فسأله أبو ذر من هم فقال: الأكثرون أموالاً. . ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس. .

وقام في طريقه الى المدينة. . وانصرف الناس الى بلادهم يفكرون فيما سمعوه. .

وعندما بلغ المدينة استقبله أهلها، وتدفق عليه الأطفال. . ونزل من على ناقته فسلم على مستقبليه وداعب بعض الأطفال وأركبهم على ناقته. .

ودخل الى بيت زوجته زينب بنت جحش يستريح. .

كانت نفسه تفيض بالرضا مما رآه في موسم الحج. . هذه الآلاف العديدة من كل الجزيرة العربية. . يجب ألا يكون في الجزيرة دينان. .

* * *

غير أن الروم على الحدود الشمالية يهددون الأمة الجديدة ويفرضـون الأساليب

الوحشية على العلاقات بين الناس. ما زال السادة هناك يبطشون بالضعفاء..

فلتحرر أمته من تهديد الروم..

ليسر جيش جديد الى سوريا حيث سقط زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب منذ سنين.. ليقتحم الجيش أسوار دولة الروم وليضع حداً لتهديداتها الدائمة وليحرر الانسان المعذب المضطهد هناك!

وأمر بتجهيز الجيش وجعل عليه أسامة بن زيد بن حارثة.. انه لجدير بأن يثأر لأبيه ولكل شهداء مؤته..

ان حرباً مثل هذه لفي حاجة الى شباب يندفعون بالحرص على الاستشهاد يؤجج حماسهم حب الحرية.

وملأ الجيش بالشباب ووضع فيه كثيراً من القادة المجربين تحت امرة أسامة وتعالت الاعتراضات تطعن في هذا الاختيار..

وارتفعت أصوات تطالبه بألا يبعث مثل هذا الجيش تحت قيادة شاب في العشرين..

ولكنه واجه الاعتراضات قائلاً: «أيها الناس انفذوا بعث أسامة فلعمري لئن قلتم في امارته، لقد قلتم في امارة أبيه من قبله وانه لخليق للامارة وان كان أبوه لخليقاً بها»..

ولم يكد الجيش يخرج من المدينة حتى سقط محمد مريضاً، وعلم أسامة أن محمد لا يستطيع أن يخرج الى الصلاة.

فآثر أسامة أن ينتظر قرب المدينة حتى لا ينتهز المنافقون المستحقون فرصة خروج الجيش ومرض محمد فيحدثوا انقلاباً في المدينة..

وقرر أن يعاود السير حين تصله أنباء مطمئنة..

وقام محمد من بيت زينب بنت جحش الى بيت ميمونة صاحبة النوبة.. ولكنه شعر بحالته تسوء فاستأذنها أن يرقد في بيت عائشة.. وجر قدميه الى بيت عائشة مستنداً الى عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب ولقيته عائشة وقد عصبت رأسها بمنديل وشكت له من المرض..

فغالب ضعفه وقال مبتسماً: «وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟» فصاحت عائشة مغضبة. «ليكن ذلك حظ غيري والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت الى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك».

وضحك..

وضحك العباس وعلي.. وكانت هذه أول مرة تعرف البسمة طريقها الى شفتيه منذ مات وحيده ابراهيم..

وأقبلت ابنته فأجلسها الى جواره على الفراش.. قائلاً: «أهلاً بنتي»..

ومضى يداعبها كما كان يصنع معها وهي طفلة.

وقضى أياماً في بيت عائشة يشكو من آلام الكبد وارتفاع الحرارة وفاطمة وعائشة الى جواره يرطبان جبهته وأطرافه بالماء.

وأمر أن يصلي أبو بكر بالناس ولكن عائشة راجعته خشية أن يظن الناس أنها هي التي أثرت عليه أن يختار أبا بكر فنهرها معرضاً بالنساء جميعاً «أنتن صواحب يوسف».

وصلى أبو بكر بالناس..

وشعر محمد أنه يستطيع أن يمشي في البيت، وكان بيت عائشة ككل بيوت زوجاته يفضي الى المسجد.. ووقف بباب البيت واذ رأى الناس يتفرجون أشار اليهم أن يستمروا ودخل بيته..

ولكنه أنس في نفسه العافية ذات صباح فطلب من أصحابه أن يساعدوه حتى يلقى الناس بالمسجد..

وجلس على المنبر يقول: «أيها الناس، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد مني ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فانها ليست من شأني».

وطالبه رجل بثلاثة دراهم فأعطاها له قائلاً: «ألا ان فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»..

ثم أوصاهم بالأنصار، وأوصاهم أن يكون الاخاء دائماً هو ما يسود علاقاتهم وأن

يعاملوا كل من يدخل في الاسلام كما يتعاملون فيما بينهم وأوصاهم بالصلاة والزكاة!

لقد جاءهم بكل شيء فيه صلاحهم وجعلهم أمة واحدة تحت راية واحدة تؤمن باله واحد ودين واحد وقيم واحدة!

وناشدهم العدل فيما بينهم أن «يوم الوالي العادل أفضل من عبادة سبعين عاماً» وعلمهم: «أن من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فانه يطوقه يوم القيامة سبع أرضين».

وعلمهم الجهاد من أجل تحرير الانسان وقال لهم: لكل أمة رهبانية.. ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله».

علمهم الصدق وأن شهادة الزور هي أكبر الكبائر «وكبرت خيانة عبد الله أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب» ونهاهم عن البخل وسوء الخلق!!. وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت..

علمهم مقاومة الظلم، وقال لهم: «اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب».

وحذرهم من أمراء يكونون بعد. «يكلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه».

ونهاهم عن الرشوة: «من شفع شفاعة لأحد فأهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر».

وعلمهم أنه: «ما ينبغي لمؤمن يكون بخيلاً ولا جباناً».

وحذرهم من الربا: «اني تخوفت على أمتي الشرك أما انهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً، ولكنهم يراءون بأعمالهم»..

وحضهم على طلب العلم وقال لهم: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».. «العلماء ورثة الأنبياء»..

وطالبهم بأن يكونوا أحراراً أمام الحياة.. وأن يمارسوا حرية العمل.. ولام الذين يقولون ان الانسان مجبر مسير، لا اختيار فتلى عليهم آيات تسخر من هذا القول: «.. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء.. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى

ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون». .

الانسان حر. . وعمله هو الذي يشكله. . هذا هو ما جاءهم به. . الصدق والبر ورعاية الوالدين، ومكارم الأخلاق، والرحمة، والعدل والمساواة والشجاعة والكرم، وحق الانسان في الحرية وواجبه المقدس في الدفاع عن المستضعفين وعن حرية الآخرين.

كل هذا جاءهم به خلال ثلاثة وعشرين عاماً. .

لكم عانى في سبيل اقرار كل القيم التي جاءهم بها، وكافح من أجلها، حتى أصبحت دستوراً لأمة واحدة كانت من قبل قبائل متنافرة!. .

وأجهده الكفاح الطويل. . وعاد السم الذي دسه اليهود في طعامه بخيبر، ينوش كبده من جديد!.

ودخل بيت عائشة من الباب المفضي الى المسجد. . ولكنه لم يكد يبلغ فراشه، فقد أغمي عليه.

حتى اذا أفاق وجد أصحابه من حوله فقال: «ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً».

وأشار عمر الى الحاضرين ألا يتحركوا قائلاً: «قد غلبه الوجع. . وعندكم القرآن. . حسبنا كتاب الله».

وتناقش الحاضرون وارتفعت أصواتهم. . فأشار اليهم أن ينصرفوا. .

على أنه أنفق أياماً شعر فيها ببعض العافية، وأمر أصحابه أن ينصرفوا الى شؤونهم الخاصة.

فانصرف أبو بكر الى بيت له بخارج المدينة، وذهب كل أصحابه الى مزارعهم ومتاجرهم الخاصة. . وبقيت عائشة وحدها معه ورأسه في حجرها، وهي تمسح وجهه بالماء البارد لتخفف الحمى. . واذ برأسه يثقل فجأة!. .

أرسلت عائشة تستدعي أباها، وبقية الزوجات. . ووافتها حفصة بنت عمر، وكلمتاه فلم يجب. .

وقامت عائشة تصرخ . . وتستغيث وأقبل علد من المسلمين . . والتفوا حوله، وتردد أنفاسه «أوصيكم بالصلاة . . والزكاة . . وما ملكت أيمانكم».

ثم أغمض عينيه الى الأبد . .

وارتفع الصراخ . مات رسول الله . . مات محمد.

وازدحم البيت بالرجال، والنساء يلطمن الخدود، والصرخات ترتفع.

مستحيل أن يموت! . . من كان مثله لا يمكن أن يموت! . . يجب ألا يموت! . . هذا الرائد الغريب الذي حقق معجزة الانسان . . ولكنه كان يقول دائماً: انما أنا بشر مثلكم ـ بشر يمرض ويموت . . هو يموت؟!.

وأقبل عمر من بعيد يصرخ في الناس ويهدد الذين قالوا إنه قد مات!!.

ولكن محمد قد مات!.

جاء أبو بكر . . فارتمى على جسده وقبله والدموع تنهمر على الفراش وهو ينوح: «بأبي وأمي . . ما أطيبك حياً وميتاً».

وذهل عثمان فهو يراح به ويجاء، ما يطيق أن يتكلم . .

وتهاوى علي بن أبي طالب فما يقوم من مكانه . .

وارتفعت أصوات غريبة . . لو أنه كان نبياً صادقاً حقاً لما مات . . !.

ولكنه قد مات . .

ووقف أبو بكر وصوته يفيض في الدموع يذكر الناس بما علمهم محمد: «انك ميت وانهم ميتون» . . أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم».

وأفاق عمر وهو يسمع كلمات أبي بكر فقال: «والله لكأني لم أسمع بهذه الآيات قبل الآن».

ثم خر على الأرض يطلق نواحه الفاجع . . ان محمداً قد مات.

واستمر أبو بكر يقول: «من كان يعبد محمداً فان محمد قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت».

نعم . . ان محمداً قد مات . . وقد ظل يقول لهم: «انما أنا بشر مثلكم».

ولكن الذي جاء به محمد يجب ألا يموت . . فليقف هؤلاء الذين ترنحهم الصدمة . . وليمسك أبو بكر الشعلة بيد ثابتة كي لا تنطفىء أبداً!.

رقم الإيداع : ١٩٥٦ / ١٩٩٠
الترقيم الدولي : ٦ ـ ٤٠٣ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣